



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة عبد الحميد بن باديس



قسم اللغة العربية وآدابها

مستغانم

كلية الآداب والفنون

كتابة الهوية في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة

الفرنسية (1945/1920)

مذكرة لنيل شهادة الماجستير في مشروع "دراسات مقارنة"

إشراف:

الدكتور: داود محمد

إعداد الطالب:

مومن سعد

اللجنة المناقشة:

السيد، شعلال أحمد، رئيسا، أستاذ محاضر، جامعة مستغانم

. السيد، داود محمد، مشرفا ومقررا، أستاذ التعليم العالي، جامعة وهران

السيد، المكروم سعيد، عضوا مدعوا، أستاذ مساعد، جامعة مستغانم

. السيدة، فرقاني جازية، عضوا مناقشا، أستاذة محاضرة، جامعة وهران

السنة الجامعية: 2010/2009



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة عبد الحميد بن باديس



قسم اللغة العربية وآدابها

مستغانم

كلية الآداب والفنون

كتابة الهوية في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة

الفرنسية (1945/1920)

مذكرة لنيل شهادة الماجستير في مشروع "دراسات مقارنة"

إشراف:

الدكتور: داود محمد

إعداد الطالب:

مومن سعد

اللجنة المناقشة:

السيد، شعلال أحمد، رئيسا، أستاذ محاضر، جامعة مستغانم

. السيد، داود محمد، مشرفا ومقررا، أستاذ التعليم العالي، جامعة وهران

السيد، المكروم سعيد، عضوا مدعوا، أستاذ مساعد، جامعة مستغانم

. السيدة، فرقاني جازية، عضوا مناقشا، أستاذة محاضرة، جامعة وهران

السنة الجامعية: 2010/2009



لإهداء:

إلى كل المعلمين والأساتذة الذين تحملوا متاعبي،

فلولا صبرهم، ما كنت لأعاشر الحرف الذي سهل

لي دروب الحياة.

إلى روح والداي، إلى كل أفراد عائلتي وخاصة أولادي وزوجتي الذين صبروا على
انشغالي بالدراسة عنهم.

إلى كل من ساعدني من قريب أو من بعيد لإنجاز هذا العمل المتواضع.

المقدمة

المقدمة:

لكل أمة أدب يسجل، شفويا كان أم مكتوبا، مغامرات وملاحم وبطولات السابقين فيحفظ ويدرس في مدارسها وجامعاتها حتى يبقى من مكونات الشخصية المحافظة على هويتها خاصة إذا دون هذا الأدب في اللغة الأم، وهذا ما يطرح إشكالية جنسية الأدب للعديد من الشعوب التي استعمرت فترات طويلة من الزمن حيث حرمت من كل حقوقها ومن أهمها اللغة والدين كما هو الشأن بالنسبة للجزائريين الذين سلبت منهم اللغة العربية فحاولت مجموعة من المثقفين إسماع صوت الجزائر إلى "الأخر" عن طريق لغته، هذا ما دفعنا في تناول موضوع إشكالية جنسية الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية، هذا الموضوع الذي جلب اهتمام بعض الدارسين الذين ركزوا بالأخص على النص الروائي المتكامل الذي فرض نفسه بداية من الخمسينيات مع: مولود فرعون، محمد ديب، كاتب ياسين وغيرهم، لكن وقبل الوصول إلى روائع هؤلاء ألم تكن هناك خطوة أصعب من التي تلتها في هذا المجال؟ نقصد بذلك المؤلفات الجزائرية المكتوبة بالفرنسية في فترة ما بين الحربين (1920، 1945) وما نعتبره بواكير الرواية الجزائرية التي همشت أو تناولها النقاد للحكم عليها بغير الناضجة، كما استقبلت أحيانا بالرفض عند الجزائريين عندما كانت الأسباب الأيديولوجية والسياسية توضح الموقف الرسمي المحتشم إزاء هذا الإنتاج الذي اعتبر أحيانا مضادا للوطنية، لكن هل نستطيع فعلا حرمان كتاب هذه الفترة العسيرة من حياه الأمة من التمتع بصفاتهم مؤسسين لفضاء أدبي جزائري يشغل مكانه ضمن التاريخ الفكري وكتب ليرد بطريقته وأسلوبه على الآخر في وقت لم تكتمل فيه الرواية الجزائرية المكتوبة بالعربية إلا في سنة 1947م، لذا كان لا بد من هذه الدراسة كمحاولة منا لنمكن القارئ من الإطلاع على مدى تعلق جذور هذا الإنتاج (المدونة المختارة) في أصول الأدب الجزائري العربي شفويا أو مكتوبا كان حتى ولو تأثر شكلا ومضمونا بالرواية الفرنسية عامة وبالأدب الاستعماري خاصة.

وبعد قراءة شخصية لبعض المؤلفات للفترة المذكورة، كان لزاما علينا أن نعي ببعض الإشكاليات التي يطرحها هذا الأدب، سواء على المستوى الفكري أو الفني، كما كان هناك

سبب موضوعي دفعنا إلى قراءة جديّة للموضوع ألا وهو ما لاحظناه من قلة اهتمام لدى الجزائريين عندما يتعلق الأمر بترجمة أو دراسة هذا الأدب أو الكتابة عنه لأن معظم ما ترجم منه ونشر باللغة العربية تم على يد الأشقاء المصريين والسوريين، ومعظم ما وضع من الدراسات عنه كان على يد الغربيين باللغة الفرنسية واللبنانيين باللغة العربية، ثم إن أقسام الأدب في جامعاتنا لا تولي أي اهتمام لا باللغة العربية ولا باللغة الفرنسية للأدب الجزائري المكتوب في هاتين اللغتين، الشيء الذي كرّس القطيعة والتجاهل المتبادل بين المثقفين بهذه اللغة أو بتلك.

انطلاقاً مما سبق من اعتبارات ذاتية وموضوعية، اخترنا هذا البحث الذي حدّد عنوانه بعد مناقشته مع اللجنة العلمية لجامعة مستغانم " كتابة الهوية في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية (1920،1945)، هذا العنوان الذي يطرق مرة أخرى باب إشكالية النقاش والتعلق بموضوع الهوية في الأدب الجزائري السابق الذكر، إذ هناك من ينكر على هذا الأدب جزائريته ويعدّه بسبب لغته أدباً فرنسياً، وهناك من يعده بسبب الروح التي كتب بها، أدباً جزائرياً خالصاً، ولكل فريق حجته وأسانيده لكن هذا ليس اهتمامنا وإنما نريد تتبع تاريخه والإحاطة بمختلف مراحل، والتعمق في مضامينه ومسألة نصوصه المختارة مباشرة دون وسيط، ولا شك أن هذا لم يمنعنا من إعطاء الأهمية لأداء الدارسين مهما كانت، وإنما هذا يعني أننا منحنا الأولوية للنصوص الأصلية الأولى واستخلاص النتائج منها بعد قراءتها، وخاصة النصوص الروائية التي صدرت في العشرينيات والثلاثينيات والأربعينيات من القرن المنصرم، وهي النصوص التي تَعَوَّدَ معظم الدارسين إصدار الأحكام الجاهزة بشأنها دون أن يكلفوا أنفسهم عناء دراستها في عمقها متأثرين بأحكام أشهر الدراسات للأدب "جون دي جو" (Jean Déjeux) الذي، وإن كان لا يباري في وفرة مؤلفاته في هذا المجال إلا أنه لم يكن دائماً منصفاً في حق الكتاب المغاربة إذ جردهم في كثير من الأحيان من اكتساب لمسة فنية أو فكرية وجعلهم فقط تلاميذ يتعلمون الإنشاء محاولين إظهار قدراتهم اللغوية المكتسبة عن أساتذتهم الفرنسيين رغم أن هؤلاء كانوا أصحاب ثقافة عربية وفرنسية عالية ومنهم من يمتلك موهبة روائية خارقة للعادة آنذاك،

ولم يمثلوا شيئاً من الصورة التي رسمها لهم "جون ديغو" ومن اعتمد آراؤه من الباحثين الجزائريين الذين نقلوا أعماله بكل أمانة دون الرجوع إلى النصوص الأصلية لتلك الفترة حتى بلغ ذلك نوعاً من الظلم اتجاء هؤلاء الكتاب، الذين وبالرغم من "إندماجيتهم" الظاهرية لأنهم لم يتعلقوا بها في حقيقة الأمر إلا حرصاً على فكرة المساواة بين المستوطنين والجزائريين، قد دافعوا فعلاً عن هوية الشعب الجزائري وعن كيانه ووجوده، وعن حقه في صيانة دينه وتعلم لغته والحفاظ على مقوماته الأساسية، من هنا كانت عنايتنا بهؤلاء الكتاب والقراءة لهم، انطلاقاً من نصوص روايتهم الأولى ابتداءً من 1920م وحتى إلى الخمسينات حيث لم تتل تلك النصوص هي الأخرى حظها من التحليل رغم كل ما كتب عنها لما كان الاهتمام مُنصباً غالباً على الظروف التاريخية التي أحاطت بها.

ومن هنا قسمنا هذا البحث إلى ثلاثة فصول إضافة إلى المقدمة والخاتمة، كما افتتحنا الموضوع بتمهيد قصير عنوانه الهوية الجزائرية والاستعمار، حاولنا من خلاله إعطاء تعريف اصطلاحى للهوية مع بعض الشرح في اشتقاقها اللغوي العربي واللاتيني ثم حاولنا تناول إدعاءات المحتلين في هذه المسألة عندما اتخذ هؤلاء من إنكار هوية الشعب الجزائري مبرراً لاستيلائهم على خيرات بلاده، هذا ما ساعدنا على وضع الأسس النظرية والمنهجية التي تقوم عليها خطة عملنا المتواضع هذا.

تتضمن دراستنا في فصلها الأول بدايات الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية في فترة ما بين الحربين وذلك بالتعرف على نشأة هذا الأدب وأهم كتّابه ثم يلي الجزء الثاني من الفصل والذي يلخص تحليل الأعمال وتناول دراسة روايات المدونة، فتنبعه خلاصة لهذا الجزء.

خصص الفصل الثاني لعرض نظري حول الرواية الأطروحة أي النوع الذي تنتمي إليه الروايات موضوع البحث مع الوقوف عند خطاب الإدماج المزعوم عند البعض ودراسة الآليات أو العلامات التاريخية التي تحيط بالنصوص من عناوين ومقدمات، نستشف من خلالها مدى تشبث مؤلفي هذه الفترة بهويتهم الأصلية.

أما الفصل الثالث فقد تناولنا فيه مسألة الهوية المسلوبة ومحاولة استرجاعها عن طريق الإدماج الهجين كمشروع حكم عليه بالفشل في نهاية المطاف، لنصل إلى خاتمة الموضوع التي تلخص لنا مراحل هذه القراءة المتواضعة في ما كتبه روائيونا باللغة الفرنسية في فترة ما بين الحربين والتي تعتبر قاعدة تحضير، وفي كل المجالات لثورة التحرير الكبرى.

الفصل الأول

الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية (1945/1920)

المبحث الأول:

- البدايات الأولى.
- النشأة والتطور.

المبحث الثاني:

- النماذج الروائية الأولى
- أحمد بن مصطفى القومي (1920)
- زهرة زوجة عامل المنجم (1925)
- العلج أسير البرابرة (1929)
- مريم بين النخيل (1936)
- بولنوار الفتى الجزائري (1945)

الخلاصة.

المبحث الأول

تمهيد:

1- الهوية والاستعمار

قبل تناول موضوع الأدب الذي كتبه الجزائريون باللغة الفرنسية، نرى من الضروري الوقوف أولاً مع مفهوم "الهوية" الذي هو من صميم هذا البحث، لنحدد مختلف مدلولاتها اللغوية، وأبعادها الفلسفية والاجتماعية والنفسية، ثم نخلص إلى موضوع الهوية الجزائرية وحرب الإبادة التي شنها الاستعمار الفرنسي عليها وعلى الشعب الجزائري طيلة أكثر من قرن وربع قرن. ومن علاقة وآثار هذا الوضع في الأدب الذي كتبه الجزائريون باللغة الفرنسية تتبين ملامح أزمة الهوية الجزائرية ومميزاتها، وكيفية تمظهرها في نصوصهم. وهذا ما يمكننا من تحديد إشكالات بحثنا، لأن مسألة الهوية تعد حالياً من المسائل التي استقطبت الأنظار عند الكثير من الباحثين، حيث أصبحت عبارات كثيرة تتناولها الألسن في ساحة البحث الأدبي والسياسي. وقد وصل بهذا إلى حد ظهور جدل لا يحدد فيه معنى الهوية الحقيقي، مما يدفعنا إلى محاولة تعريفها بعبارات أدق دون الخوض في الجدل المطروح.

إن الهوية كما يعرفها قاموس المنجد باللغة العربية هي: "حقيقة الشيء أو الشخص، المطلقة، المشتملة على صفاته الجوهرية"¹، والكلمة مشتقة من الضمير المنفصل "هو" دلالة على ذات الشيء أو الشخص، المستقلة عن ذوات الأشخاص والأشياء الآخرين.

أما في اللغة الفرنسية، فإن لفظ (**Identité**) مشتق من الكلمة اللاتينية (**Idem**) التي تطلق على الأشياء أو الكائنات المتشابهة أو المتماثلة تمامًا، مع الاحتفاظ في نفس الوقت باختلاف بعضها عن البعض.²

والهوية كما شرحت في القاموس الفرنسي "لاروس" تعني: "مجموع الظروف، أو الحثيات التي تجعل من شخص ما شخصاً مميزاً، أو محدداً"³، وهذا لا يختلف كثيراً عما جاء به قاموس "روبير" في تعريفه للهوية إذ يقول: "ما يسمح بالتعرف على

¹ لويس معلوف، المنجد في اللغة والآداب والعلوم، الطبعة الثامنة، بيروت، مادة. هوية، ص ص 564، 565

² Cf: Identité, "Petit Larousse en couleurs," Edition 1984.

³ Ibid. "Terme". Identité.

شخص بين جميع الأشخاص الآخرين" وإنما يضيف بين قوسين بأن الهوية هي.
"الحالة المدنية والصفات المميزة للشخص"⁴.

أما "الموسوعة الكونية"⁵ "**E. Universalis**" فإنها تحتفظ في تعريفها للهوية بأصل الكلمة اللاتينية المذكورة آنفا (**Idem**) لكن لتنفذ فكرة التشابه والتماثل التام بين الأشياء، استشهدا بقول الفيلسوف والرياضي الألماني "لايبنيتز"، "**Leibnitz**" 1716-1646م الذي "يلغي التشابه التام بين شيئين بخصائصهما في العالم كله" ليخلص إلى نتيجة "أننا لو قلنا بذلك لكانا شيئا واحدا"⁵.

لذلك نستنتج أن مفهوم "الهوية" بمعناها المتداول، يعني وجود كيان مستقل لكل شيء أو لكل كائن، عن الأشياء أو الكائنات الأخرى مهما تشابهت الخصائص بينها، وفي عودة للموسوعة الفلسفية "الهوية" أنها "مقولة تعبر عن تساوي وتماثل موضوع أو ظاهرة مع ذاتها (...). ويتطلب تعيين هوية الأشياء أن يكون قد تم تمييزها مسبقا، ومن ناحية أخرى، فإن الموضوعات المختلفة تحتاج في الغالب إلى تحديد هويتها بهدف تصنيفها، وهذا ما يعني أن الهوية مرتبطة ارتباطا لا يمكن فصله بالتمييز بين الأشياء"⁶.

وبناء على هذه التعريفات السابقة نخلص إلى القول أن الهوية: "هي تلك المعلومات المسجلة في "بطاقة التعريف" أو "بطاقة الهوية" التي تشمل اللقب والاسم وتاريخ ومكان الميلاد، والنسب العائلي (اسم الأب والأم كاملين)، وعنوان الإقامة، بالإضافة إلى العلامات الجسمية المميزة كالطول ولون الشعر والعينين. قد يضاف إلى هذه المعلومات ديانة الشخص والطائفة التي ينتمي إليها ولون بشرته، كما هو الحال في بعض الأقطار. لكن هذا التعريف وما سبقه من التعريفات، يُبقي هوية الشخص جد ناقصة وبعيدة عن الدقة لأنها تقف عند التعريف اللغوي المبهم أو على التقييد القانوني المنصب على الناحية الشكلية الظاهرة المبنية على بطاقة الهوية أو تضيع وسط

⁴ CF "Identifler" In Petit Robert1. Dictionnaire alphabétique et analogique de langue française Edition 1984.

⁵ "Encyclopaedia Universalis", Volume 19 (Terme: Identité), France 1975.

⁶ الموسوعة الفلسفية، إشراف روزتال م، و ب.يادين، ترجمة سمير كرم، دار الطليعة، بيروت، ط4، 1981. (2)

التعميمات الفلسفية. ويبقى هناك عالم الإنسان الداخلي وما يزر به من مشاعر وعواطف وأفكار وتجارب في علاقته بالعالم الخارجي، وما يتضمنه من تفاعلات مع بيئته الطبيعية وكذا عوامل الوراثة المنقولة إليه عبر الأجيال التي تؤثر في تكوين شخصية الفرد من النواحي الجسمية والنفسية والاجتماعية، وبالنظر إلى مختلف جوانب الموضوع نجد أن مفهوم هوية الإنسان يتسع ويزداد تعقيدا ويتشعب إلى تسميات أخرى لها نفس المعنى مثل. الذات، الإنية والكينونة ليصبح حقلًا للدراسات في جميع مجالات البحث العلمي المتعلق بالعلوم الإنسانية.

وفي هذا الصدد، نرى اليوم بأن مصطلح "الشخصية" أصبح يعني في كثير من الأحيان "الهوية" وبالأخص في مجالي علم النفس وعلم الاجتماع رغم الاختلاف القائم بين الباحثين في هذين الاختصاصين، كما ورد عن الدكتور أحمد بن نعمان في كتابه "سمات الشخصية الجزائرية"⁷ حيث أحصى خمسة عشر تعريفا لعلماء نفسانيين، واجتماعيين وخلص إلى القول: " أن آراء العلماء لم تستقر بعد حول مفهوم دقيق لمعنى "الشخصية"، هذا ما حال دون الوصول إلى وضع تعريف جامع مانع يستوعب كل الأجزاء التي تتكون منها الشخصية"⁸.

ويحاول الدكتور بن نعمان أن يصوغ بدوره تعريفا للشخصية يوفق فيه بين آراء علماء النفس وآراء علماء الاجتماع حيث يقول: " الشخصية هي ذلك الطابع العام المميز والثابت نسبيا، المكون من جميع صفات الفرد الجسمية والنفسية المتكاملة في انتظام ودينامكية، والمتكيفة مع البيئة الاجتماعية والطبيعية التي يعيش فيها الفرد ويتبادل التأثير"⁹.

وبذلك يمكننا أن نخلص إلى القول بأن التعريفات الشائعة للهوية أو الألفاظ التي تقترب من معناها كالشخصية مثلا، غالبا ما تُهمل أبعاد الشخصية وتقتصر على بعد

⁷ أحمد بن نعمان "سمات الشخصية الجزائرية من منظور الأنثروبولوجيا النفسية" المؤسسة الوطنية للكتاب ENAL الجزائر 1988 ص 155.

⁸ المرجع نفسه: الصفحات 155 – 165.

⁹ سمات الشخصية الجزائرية. ص 165

واحد أو اثنين يشكلان عادة اهتمام الباحث أو اختصاصه في حين أن "الهوية" تتشكل من كل الأبعاد في حالة تفاعل دائم وحركية مستمرة.

أما إذا تعلق الأمر بهوية الجماعة، نجد أن معظم العناصر التي تشكل الهوية الفردية تنطبق على مفهوم الهوية الجماعية لأن الأمر يتعلق بمجموعة معينة من البشر يحملون اسما يعرفون به، ويقطنون رقعة جغرافية معينة، وينتمون إلى عرق أو أعراق متعددة، انصهرت مع مرور الزمن، مع بعضها ككتلة واحدة لتكون هوية مشتركة¹⁰، هنا يصبح الأمر أكثر تعقيدا، ويشهد بين الباحثين وبالأخص حول أولوية كل عنصر من العناصر المكونة للشخصية عدا الاشتراك في عنصر ما يسمى بالعرق النقي" والذي أثبتت الوقائع التاريخية في شأنه أنه خرافة لا أساس علمي لها وأنها من صنع الفلسفات العنصرية¹¹.

بينما تبقى العناصر الأخرى محل نقاش يميزه الاختلاف الشديد، حيث يرى بعضهم مثلا أن الاختلافات اللغوية والدينية لا تعتبر عائقا في تكوين أمة، إذ يكفي توفر الرغبة المشتركة لدى المجموعات البشرية المعنية والمختلفة لغة ودينا في التجاور والعيش معا في ظل دولة وطنية واحدة، ويضربون لذلك مثلا بسويسرا والصين والهند. أما وجهة نظر الفريق الثاني المعارض فتتمثل في أن الاختلاف المذكور لا يمنع قيام دولة لا يوفر كل الشروط لتكوين هوية قومية لأمة واحدة¹²، هذا ما يؤكد بأن عاملي اللغة والدين يشكلان عنصرين أساسيين في تكوين وحدة الأمم والشعوب، بينما يعود سبب الانقسام والصراع والحرب في كثير من الدول إلى تلك الاختلافات. وأقرب الأمثلة إلينا ما جرى في الهند وفي دول شرق أوربا، ومنطقة البلقان، وداخل الاتحاد السوفياتي السابق الذي ضُمت فيه أمم وشعوب إلى بعضها بعض ربما بالقوة لكنها سرعان ما انقسمت على نفسها بمجرد توفر الظروف السانحة لذلك التفكك.

¹⁰ ساطع الحصري "حول" الوحدة الثقافية العربية"، نشر مركز دراسات الوحدة العربية، سلسلة التراث القومي، ط2، بيروت 1985، ص 13-14

¹¹ د سامي مصطفى، "الشخصية القومية"، مجلة قضايا عربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، العدد الثاني، يونيو 1979 ص 245

¹² ساطع الحصري، "المرجع نفسه، ص 16.

أما بالنسبة لموضوع الهوية الجزائرية فإننا سنحاول تناوله بدءاً من الغزو الاستعماري الفرنسي للجزائر، وذلك لمعالجة عناصر بحثنا الذي ينصب أساساً في دراسة الأدب الذي كتبه الجزائريون باللغة الفرنسية، وكيف تظهت مسألة الهوية فيه انطلاقاً من أن ذلك الأدب ما هو إلا جزء من نتائج تفاعلات الاحتلال على الصعيدين الثقافي واللغوي. وللتوصل إلى ذلك سنحاول تقديم عرض مختصر لأبرز الممارسات التي قام بها الاستعمار من أجل القضاء على الهوية الجزائرية.

2- الهوية الجزائرية وحرب الإبادة الاستعمارية:

مما لا شك فيه أن هناك حقائق تاريخية لا يستطيع أحد نكرانها و المتمثلة في أن الجزائر كانت دولة قائمة بكل مؤسساتها قبل دخول الغزو الفرنسي في 05 جويلية 1830م، حيث كانت هذه الدولة تملك سياسة داخلية وأخرى خارجية وسلك دبلوماسي ومفوضين رسميين يوقعون المعاهدات باسمها. الدليل على ذلك بداية الغزو المباشر الذي جاء نتيجة "خلاف دبلوماسي" ولو مفتعل من طرف القنصل الفرنسي "دوفال" (Duval) المقيم بالجزائر آنذاك، وبأمر من حكومته يوم حاولت تبرير الغزو بحادثة المروحة المزعومة¹³

كما وجدت هناك حجج أخرى لتبرير الغزو، ومنها تلك التي تقول بأن الجزائر كانت مستعمرة من طرف الأتراك وأخرى تجعل من هذا البلد "إرثاً يعود لفرنسا عن الإمبراطورية الرومانية، هذه الأسطورة التي اهتم بها العقيد "كافينياك" (Cavaignac) الخبير في الآثار والذي ركز على الحفريات واهتم بإجرائها "غايته في ذلك أن تستخرج الآثار التي تبرهن للبدو بأن الأوربيين لهم حقوق قديمة في امتلاك البلاد"¹⁴ هذا من جهة ومن جهة أخرى، تدعمت هذه الحجج بحملات التنصير حيث توافدت على البلاد بعثات هائلة من ضباط الشؤون الأهلية والرحالين والمبشرين المختصين في دراسة عادات وتقاليد أنماط المعيشة لدى السكان الأصليين للبلاد

¹³ مصطفى الأشرف: "الجزائر الأمة والمجتمع"، ترجمة حنفي بن عيسى، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1983 ص 283.

¹⁴ "الجزائر الأمة والمجتمع"، ص 284.

وبمختلف مناطقها¹⁵. وقد سمحت تلك الدراسات والتحقيقات والتقارير والتصنيفات والخرائط بمعرفة دقيقة للتركيبة الاجتماعية للسكان، ومن ثم استغلال نقاط الضعف فيها وتصريفها لفائدة المستعمر الفرنسي الذي استغل بالأخص النعرات القبلية لزرع روح الشقاق بين السكان بتقسيمهم إلى عرب وبربر، متبعا في ذلك سياسة المحتلين الرومان الذين اخترعوا وطبقوا قبله سياسة " فرق تسد" حيث بسطوا سيطرتهم على شمال أفريقيا¹⁶.

كذلك انتهجت فرنسا إستراتيجيتها للقضاء على كل ما هو جزائري بشن حرب استعمارية إبادية شاملة في الجانبين المادي والمعنوي أو الروحي الذي له علاقة بموضوع بحثنا:

في الجانب المادي تمثلت العملية في مواصلة الغزو وتوسيع رقعة الحرب من أجل الاستيلاء على المناطق الجزائرية، حيث تمت مضاعفة القوات العسكرية الفرنسية ثلاث مرات عما كانت عليه عند نزولها على شاطئ سيدي فرج. ولم يقف المستعمر عند الاستيلاء على مزيد من الأراضي وتعميرها بالأوروبيين، بل ركز على إفناء العنصر البشري الجزائري بكل طبقاته وبكل الأسلحة الممكنة: القتل والحرق والتجويع والتشريد والنفي... مما جعل عدد السكان الأصليين يتراجع بشكل خطير كاد يؤدي بهم إلى الانقراض حسب إحصائيات 1844؛ فقد كان عدد سكان الجزائر يتراوح بين 4 و 5 ملايين، لكنه تقلص إلى أقل من نصف هذا العدد من سنة 1872م¹⁷. ولم يرتفع هذا العدد ليصل إلى 4 ملايين إلا بعد أكثر من نصف قرن.

تزامنت مع حرب الإبادة المادية التي إختصرناها أعلاه، حرب إبادة أخرى تفوقها فتكا وتدميرا، وهي التي نعتبرها الأشرس والأخطر كونها تستهدف ضرب وهدم كل القيم المعنوية والروحية للإنسان حيث تمثلت بالأخص في تدمير البنيات الثقافية والاجتماعية والتشريعية والروحية للشعب الجزائري، بداية بتحويل المساجد

¹⁵ المرجع نفسه ص 138.

¹⁶ خديجة بقطاش، "الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر 1830-1871"، مطبوعات دجلة، الجزائر 1992، ص 17.

¹⁷ "الجزائر الأمة والمجتمع"، ص 287

إلى كنائس وفرض يوم الأحد كعطلة أسبوعية من طرف الجنرال " دو بورمون " (De Bourmont) القائد العام للحملة الذي لم يحترم معاهدة الاستسلام الموقعة من طرف ممثل "الداي حسين" 18.

كان الهدف من هذه الانطلاقة تنفيذ مخطط الإبادة المعنوية، لتأتي بعدها خطوات أهم وأخطر لتشمل كل جوانب الحياة الخاصة والعامة للأفراد. ومن أبرز معالم هذا المخطط:

تزوير تاريخ الجزائر وطمسه أو تشويهه إن تعذر الطمس، وذلك بإشراك مؤرخين وباحثين في الآثار، ومستشرقين، وعلماء اجتماع وعلماء أجناس، ولغويين وأدباء في هذه المهمة لتتحول بذلك الجزائر إلى حقل تجارب يقوده العسكريون ورجال الدين.

تغيير نظام التعليم السائد في محتواه وفي لغته وذلك باستهداف المدرسة الجزائرية، بداية بمحاولة نشر اللغة الفرنسية عن طريق فتح مدارس مختلطة منذ عام 1833م، تعلم الفرنسية لأبناء الجزائريين واليهود والعربية لأبناء الفرنسيين 19. وكان لهذه العملية غرض خفي يهدف إلى خلق مدرسة بديلة تنافس المدارس القرآنية التي بقيت تؤدي وظيفتها رغم كل الضغوطات، وتعددت النماذج لتلك المدارس التي كانت تستقبل بتحفظ كبير من طرف الجزائريين. كما أنشئت بعد ذلك مدارس متخصصة مثل "مدارس تكوين المعلمين" وبعض المدارس المهنية المخصصة للبنات، لكن ظلت هذه التغييرات وإلى غاية سنة 1880 عبارة عن تجارب فاشلة بسبب مقاطعة الجزائريين المتواصلة لها 20. لأن المستعمرين، وبالرغم من اقتناعهم بأن التعليم هو طريقهم الأنجع إلى قلوب الجزائريين وعقولهم، لم يكونوا جادين في نشر التعليم على نطاق واسع بهدف تحرير الجزائريين فعلا من الجهل بل كانوا متخوفين من تعليم الجزائريين كما عبروا عن ذلك بعبارات الحقد والعنصرية كما جاء على لسان

¹⁸ د. جمال قنان: "نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر الحديث"، المؤسسة الجزائرية للطباعة، 1987، ص 303، 304

¹⁹ "L'amicale des anciens instituteurs et instituteurs d'Algérie". « Les enseignants d'Algérie se souviennent » Edition Privat 1981, P. 32

²⁰ « Les enseignants d'Algérie.... » P. 37.

"كوستاف لوبون" (Gustave Lebon) بأنه في حالة تعميم التعليم فإن النداء الذي سيجتمع عليه الأهالي هو "الجزائر للعرب" ²¹.

ويمكن أن تتجلى هذه الحقيقة أكثر من خلال الأرقام التي تدل على تطور عدد المتدرسين الجزائريين في المدارس الفرنسية حيث كان عددهم في سنة 1879 لا يزيد عن 3172 من بينهم عدد ضئيل من البنات، ثم وصل بعد إصلاحات قانون جول فيري (1892) (Jules Ferry) إلى 11500، ولم يتجاوز العدد في مطلع القرن العشرين 24172 لعدد من السكان يقارب خمسة (05) ملايين، أي بنسبة لا تتجاوز 2% ²²، بينما وصل عدد المتدرسين من أطفال المستعمرين الذين لم يتجاوز عدد السكان عندهم نصف مليون نسمة إلى 92000 تلميذ ²³. ومهما تعددت التسميات واختلفت في إنشاء المؤسسات التعليمية فإن السياسة التعليمية الاستعمارية بقيت، وفي جميع مراحل الاحتلال، محكومة بأهداف محددة غرضها تكوين نخبة تكون واسطة بين الإدارة والأهالي وتكون فيها الأسبقية لأبناء الأعدان والأعيان كالقياد والأغوات والقضاة وحتى كبار ملاك الأراضي ²⁴. وهذا ما يكشف عن تخوف المستعمر من تعميم التعليم وعن رغبته في تحويل الجزائريين إلى فرنسيين عن طريق المدرسة أو حتى عن طريق الجامعة، جامعة الجزائر التي أسست في سنة 1900 لتتكفل بتكوين وتخريج مدافعين أشداء عن أيديولوجية الاستعمار من قانونيين، ومؤرخين، وفلاسفة ولغويين ²⁵ يصب عملهم في الأهداف التي تخدم الاستعمار وتقدم له مبررات وجوده في الجزائر وحق البقاء فيها.

وفي الأخير نقول أننا حاولنا ولو في اختصار شديد، أن نرسم أهم المحطات من معالم الحرب الإبادية التي شنها الاستعمار الفرنسي على الشعب الجزائري، بشقيها المادي والمعنوي، وكانت حربا شاملة فاتخذت لها أوجها عديدة ومتداخلة: ثقافية،

²¹ « Les enseignants d'Algérie.... » P. 70.

²² الطاهر زرهوني "التعليم في الجزائر قبل وبعد الاستقلال، مؤسسة "موفم" للنشر، الجزائر 1993، ص 17.

²³ « Les enseignants d'Algérie.... » P. 94

²⁴ الطاهر زرهوني "التعليم في الجزائر...." ص 18.

²⁵ Mohamed Chérif SAHLI, « Décoloniser l'histoire., Introduction à l'histoire du Maghreb », Edit F.Maspéro, Paris 1965, P. 14.

لغوية، صليبية وحضارية، وظلت قائمة لمدة فاقت مئة واثنين وثلاثين عاما ولا يزال الشعب الجزائري يعاني إلى يومنا هذا من آثارها.

ومما لا شك فيه أن محاولة إزالة الآثار النفسية والتشوهات الفكرية التي تركتها تلك الحرب أدت إلى طرح تساؤلات حول حقيقة مقومات الشعب الجزائري الأساسية وهويته الوطنية إذ تحولت الشكوك التي زرعتها المستعمر في نفوس الجزائريين ومع مرور الوقت إلى قضايا أدبية وفكرية، ومثال ذلك إشكالية الأدب الذي كتبه الجزائريون باللغة الفرنسية منذ العشرينات من القرن الماضي إلى حد الآن كونه شكل ظاهرة مثالية للتعبير عن هذه الأزمة الأدبية، والفكرية، والثقافية، ليجسد في حد ذاته معلما بارزا في هذه القضية التي حاولنا التطرق إليها في بحثنا المتعلق بالهوية في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية في فترة ما بين الحربين، كما سيأتي في الفصول الثلاثة التي سنتناول فيها دراسة أهم الروايات التي صدرت في فترة ما بين الحربين (1920-1945).

1- الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية (1920-1940)²⁶: البدايات الأولى:

لم تستطع فرنسا إخفاء تخوفها من اللغة العربية في الجزائر المستعمرة كما عبر عن ذلك العديد من مثقفيها في وسائل إعلام مختلفة وكثيرة، نذكر على سبيل المثال ما جاء في نص موجه للمعلمين صدر في "نشرية أكاديمية الجزائر" كتبه ب. برنار (B.Bernard) مدير مدرسة الأساتذة لبوزريعة في سنة 1908: "الجزائر مستعمرة من نوع خاص، مستعمرة موجهة للتوطين لا تبعد إلا بأربع وعشرين ساعة عن فرنسا البلد الأم، لسنا بحاجة إلى تقوية اللغة العربية وبخاصة في أشكالها الإقليمية والمحلية، تلك المستعملة كلهجات في التعاملات اليومية. أول اهتمام لشعب غازي يكمن في رأيي في إزالة وفي أسرع وقت ممكن لغة رعاياه الجدد (...).2

يجب المساعدة في نشر الفرنسية وكل ما يمنح للعربية- وهنا أعتزف بأننا مجبرون في ظل الظروف الحالية فعل شيء ما لهذه اللغة- هو بمثابة مضيعة للوقت بالنسبة لفرنسا.

يشكل مثل هذا التحجج أحد العناصر الأساسية في سياسة الإدماج عن طريق المدرسة ويعطى فكرة واضحة عن المشروع الاستعماري، كما يفسر ولو جزئياً وضعية اللغات في الجزائر اليوم والشغف المفرط الذي يحيط بها.

من الضروري، وقبل التطرق للنصوص الأدبية الأولى المكتوبة باللغة الفرنسية وبأقلام جزائرية، التذكير ولو بإيجاز بمراحل الفرنسية التي وضعها النظام الاستعماري. إذ لم يقتصر المستعمر على إدخال اللغة الفرنسية، بل عمل على تقويتها بوضع الأسس لمستعمرة توطين. وهكذا فإن هذه اللغة الأجنبية فرضت نفسها كلغة أولى في الحياة الاجتماعية والحياة الإدارية والقضائية، كما في الصحافة أيضاً، وسرعان ما احتجبت الازدواجية اللغوية (لغة فرنسية / لغة عربية) لتضمحل نهائياً،

²⁶ Christiane Achour, "anthologie de la littérature algérienne," Edition Bordas Algérie, 1990 ,page 7.

2- op cité p.16

قبل أن تعاود الظهور باحتشام عند نهاية الحقبة الاستعمارية، حيث دخلت مجموعة العمليات المراد من ورائها اجتثاث آثار الاستعمار، مرحلتها الأخيرة.

وللإحاطة بهذه الفترة، لا بد من الاستعانة بكتب التاريخ وأبحاث المؤرخين، ونذكر من بين هؤلاء ش.ر أجيرون (C.R Ageron) لتذكر المراحل المختلفة للسياسة الاستعمارية في الجزائر والتي من دونها لن نتمكن من الإحاطة جيدا بتطور الأدب الجزائري باللغة الفرنسية كما في شقه العربي أيضا. يؤكد هذا المؤرخ على مراحل من بينها :

المرحلة الأولى، تلك التي تقابل المرحلة العسكرية، كان هناك تمسك بتدريس اللغة العربية، والبرنامج هنا وكما يبدو لم يكن صادقا بل ينم عن واقعية أمام الأحداث أكثر منها عن قناعة. إنه البرنامج الخاص بازدواجية اللغة في بعض المدارس والإكماليات (العربية / الفرنسية). كما تم تحت حكم الإمبراطورية الثانية 27، إنشاء المدارس الثلاث التي كان يرجى منها. "توظيف أمثّل للمسلمين في القضاء و في الشؤون الدينية والأوقاف وحتى في التعليم".

ولكن مشروع ازدواجية الثقافة هذا، ما فتئ أن اضمحل أمام هجمة الجمهورية الثالثة في عام 1882.

توسعت قوانين التعليم لجول فيري 28 (Jules FERRY) لتشمل المستعمرة بمرسوم 13 فبراير 1883 مع اجتهاد خاص يشمل المدن ومنطقة القبائل الكبرى. تأقلمت مدرسة تكوين الأساتذة وبرامج التدريس وبسرعة مع هذه السياسة الجديدة، تمت صياغة جديدة لبرامج التدريس في سنة 1898 إذ حرصت على إزالة اللغة العربية لصالح اللغة الفرنسية، وهنا يجب الإشارة إلى النسبة الضئيلة للجزائريين الذين كان يحق لهم الالتحاق بالمدرسة الابتدائية، تعتبر 1901 السنة التي يجب مقايستها بسن

¹ نظام سياسي ساد في فرنسا ما بين 1852 الى 1870 تحت حكم الرئيس لويس نابليون بونابرت بعد سقوط الجمهورية الثانية.
²⁸ "جول فيري"، (1893/1832)، رجل سياسي فرنسي، مستشار و وزير للتعليم، وضع القوانين التي أقرت بإجبارية التعليم الابتدائي واجباريته ولانكبيته و مجانيته في 1881، 1882 ، سميت هذه القوانين باسمه.

كتابنا، حيث كانت نسبة الأطفال الجزائريين المتمدرسين تقدر بحوالي 3.8 % تقابلها نسبة 84% من الأوروبيين.

يتضح من هذا أن تاريخ اللغة الفرنسية في الجزائر كان في بدايته جس للنبيض الذي غالبا ما يسبق الصراعات. كما أن لهذا التاريخ علاقة وطيدة بمراحل إزالة اللغة العربية الفصحى والتقليل من هيمنة اللغات الناطقة و بخاصة اللهجتين العربية والبربرية.

وعندما أحس المثقفون الجزائريون بشبه التراجع الذي ألحق باللغة العربية، لجئوا إلى التعبير باللغة الفرنسية. فظهر الجيل الأول من الكتاب الجزائريين عن طريق محاولات ونصوص مختلفة، كان القصد من ورائها الإثبات والتحجج، موجهة كليا نحو الحياة السياسية والاجتماعية، وأكثر الأسماء التي عبرت عن هذه الأفكار بالإضافة إلى "حمدان خوجة" الذي أصدر سنة 1833 في باريس: لمحة تاريخية وإحصائية للوصاية على الجزائر العاصمة – إسماعيل هامات- نجد كل من الحاج شريف قاضي سيدي أمحمد بن رحال (الذي كتب بدوره سنة 1891 الأقصوصة الأولى باللغة الفرنسية "انتقام الشيخ" – الدكتور طيب مرسلي – لويس خوجة – وشريف بن حبيلس، والأمير خالد وأخيرا الشاب فرحات عباس.

الروايات التي واصلت في طريق الإثبات السياسي والمتنوعة من حيث أفكار وآراء أصحابها، هي في الغالب روايات مدافعة عن أطروحات تعبر عن قضايا مجتمعية مختلفة. بن سي أحمد بن الشريف (1879-1921) أصدر سنة 1920 عن دار نشر بايو (Payot) الرواية الأولى (أحمد بن مصطفى القومي)، والرواية التي تلتها كانت "زهرة زوجة عامل المنجم" (باريس منشورات العالم الحديث) لصاحبها الحاج حمو (1891-1953) المعروف أيضا بإصدارات أخرى منها العمل الذي صدر له بالاتفاق مع روبرار راندو (رفقاء الحديقة) تحت الاسم المستعار "محمد فكري".

بعد صدور هاتين المحاولتين الرومانسييتين، جاء دور لروائيين اثنين أكثر أهمية : شكري خوجة (1891-1967) صاحب الاسم المستعار "حسان خوجة حمدان"

الذي نشر روايته الأولى (مامون، شهيد المثالية) (باريس، رادو 1928) وهي في جزء منها سيرة ذاتية وبها يدشن السلسلة الطويلة في تحديد المسالك المؤدية في طريق الاصطباغ بثقافة المحتل. أما الرواية الثانية التي تحمل عنوان العليج أسير عند البربر (أراس 1929) فإنها تتحدث عن الإدماج المستحيل مهما كان حجم الجهود المبذولة التي يقوم بها برنارد لوديو، سجين قرصنة الجزائر الذي اعتنق الإسلام قبل أن يصبح من أعيان الجزائر، ليرتد عن دينه الجديد قبل أن توافيه المنية بوقت قليل، ليقوم ابنه الذي كان فتيا بإنفاذه من حملة الانتقام التي وجهها ضده المؤمنون. هنا يأخذ الإيضاح منحى معاكسا. إذا كان هذا الإدماج مستحيلا فكيف لذلك المراد به إدماج الجزائريين سيصبح ممكنا.

شخصية أخرى مثيرة للاهتمام وموهوبة تتجسد في شخص محمد ولد الشيخ (1905-1938) ابن عائلة كبيرة النسب في الجنوب الجزائري و الذي سبق له و أن كتب أشعارا وقصصا قصيرة في الأسبوعية الوهرانية "الحق" سنة 1936، أصدر عن دار النشر بلازا (Plaza) في وهران الرواية الجزائرية الخامسة المكتوبة باللغة الفرنسية، والأولى التي تصدر في الجزائر "مريم بين النخيل". تدور أحداث القصة في منطقة تافيلات التي تتقاسمها الجزائر مع المغرب، هذه المنطقة التي كانت وقتها لا تزال متمردة على الحماية الفرنسية، وهي قصة زواج مختلط بين خديجة والنقيب ديبوسي (Debussy) اللذين يختلفان بسبب تربية طفليهما مريم وجان حفيظ. كتب ولد الشيخ أيضا مسرحية تخليدا لروح الأمير خالد الذي توفي سنة 1936، تحت عنوان: "خالد" (1937) وقد اقتبسها بشطارزي الذي قام بتلطيها ظنا منه أنها كانت عنيفة جدا، وهذا لم يمنعه من مقص الرقابة الذي فرضته عليه السلطة الاستعمارية.

إذا كان "الحوار" هو السمة الأساسية للخطاب الاستعماري المهيمن عند الروائيين الجزائريين داخل المستعمرة، فإن النبرة تختلف كليا في أعمال المنفيين الاثنين. علي حمامي (1902-1949) وهو ابن عائلة رفضت العيش تحت سطوة الاستعمار ففضلت الهجرة إلى مصر لتستقر هناك. وقتها كان الابن الذي بلغ سن

العشرين، مناضلا يوظف جميع أساليب مقاومة المستعمر. كتب روايته الوحيدة "إدريس" باللغة الفرنسية عند تواجده ببغداد سنتي 1941-1942 و التي صدرت في القاهرة سنة 1948. هذه الرواية الطويلة تغوص في مراجع الحركات الوطنية في العالم العربي. منفيّ آخر، هذه المرة ينحدر من عائلة قبائلية مسيحية اختارت الاستقرار في تونس هو جان عمروش (1906-1962) الذي نشر سنة 1934 ديوانين: رمد، والنجم الخفي، كما صدر له في تونس في سنة 1939 ديوان أغاني بربرية من منطقة القبائل.

"وفي منتصف القرن كان لا بد من الحديث عن أسماء وروايات عيسى زهار (بداية القرن- 1963)، رابح زناتي (1877 – 1952) و ابنه أكلي من جميلة دباش (1926) وطاووس عمروش أخت جان (1913 – 1976) ولكن مع هؤلاء الروائيين ندخل في مشهد آخر الذي يبدش لنظرة جديدة في التعامل مع المجتمع الاستعماري في الفترة الممتدة ما بين سنوات 1945 و 1954".1

في الروايات الأولى أو النصوص التي سبق التطرق إليها، نجد الفرنسية بوصفها لغة أدبية مستنبطة عن اللغة الفرنسية التي تُعَلَّم خلال التكوين المزدوج في المدارس، تتميز باللجوء إلى ألفاظ وأساليب حيث التكلف والتصنع يساوي بين الرعونة والصيغ المفخمة. هؤلاء الكتاب المتجزرين في اللغة العربية والثقافة العربية والإسلامية لديهم نماذج جمالية واقعية على وجه الخصوص، وبمسحة خفيفة منقولة من بلدان أجنبية وموروثة عن فترة التكوين المدرسي. يندرج الاهتمام المهيمن في هذه النصوص في إطار إعلامي أكثر منه جمالي. لقد كتبوا من أجل الحديث عن حياتهم وحياة مجتمعاتهم، عن الاختلاف الذي يفضلونه في خطاب الانتماء إلى مهمة التحضر التي حددتها فرنسا لنفسها عندما باشرت الاستعمار.

وعليه لا تشكل بواكير الفرنكوفونية الأدبية الجزائرية حركة ولكن تتمثل في ظهور أفراد ينحدرون من عائلات وجبهة. لا يمكننا فهمها دون ربطها بما يجري في أماكن أخرى، ليس فقط في مجموعة الأفكار التي تطرقنا لها باقتضاب، ولكن في مجال

المسرح المعرب مع محي الدين بشطارزي، رشيد قسنطيني وعلالو. و في مجال الشعر باللغة البربرية (والممثل الأكثر شهرة لهذا النوع هو سي محند أو محند(1845-1905) أو باللغة العربية مع الأمير عبدالقادر، محمد بن قيطون، محمد بلخير. كما يجب إدراج هذا الجنس الأدبي ضمن مجموعة حيث تطفو شخصيات يسطع نجمها بصفة مؤقتة أو انفرادية كاليزابيت إبرهارة. (I.Eberhardt)

وابتداء من هذه التربة الخصبة المبعثرة وغير المتجانسة بدأ الأدب الجزائري يشق طرق إنجازه داخل السياق الاستعماري الصعب والمعروف بالقيود التي يفرضها وتخفيض المكتسبات السابقة، لغوية كانت أم ثقافية."

أ- نشأته و تطوره:

قبل الوصول إلى النصوص الروائية قيد البحث في الفترة المشار إليها، كان لزاما علينا أن نتوقف ولو بإيجاز عند ما يمكن اعتباره أول المحاولات في كتابات الجزائريين المختلفة مثل سرد الأفكار لصاحبه "حمدان خوجة²⁹، هذا العمل الذي طبع في باريس سنة 1833 ووجه إلى الرأي العام الفرنسي كان هدفه المحافظة على الجزائر ³⁰. هذه المحاولة وما تبعها لم تكن دراسات مطولة وإنما مرافعات قصيرة تبرز الطابع الاستعجالي لأخذ الكلمة والتعبير عن تواجد العنصر الجزائري المثقف كل حسب موقفه أو وظيفته أو تكوينه. واستمر ظهور تلك الكتابات التي مهدت الأرضية للإنتاج السردي الذي قام بخطواته الأولى في ميدان القصة على يد سي أحمد بن رحال* في أول نص أدبي سنة 1891م تحت عنوان "انتقام الشيخ"، وهو ما اعتبره "جان ديجو" أول قصة مستقاة من التقاليد الاجتماعية الجزائرية. وتم نشرها في المجلة الجزائرية التونسية الأدبية والفنية³¹، لكن يعود الباحث ديجو بعد قيامه بعملية مسح

²⁹ حمدان خوجة (1773-1842) من الأوغارشية التركية، مستشار لداي حسين، من أكبر الملاكين العقاريين في سهل متيجة، مزدوج الثقافة عربية-تركية، أستاذ حقوق بالجزائر، يتكلم العربية والفرنسية دون كتابتها. مولع بالحضارة الإسلامية والنهضة الأوروبية في آن واحد، حاول إعلام الرأي العام الفرنسي عن الجزائر في محاولته تحت عنوان (المرأة) والتي قوبلت بالرفض من طرف "كلوزيل"، اختار حمدان الغربية وسافر سنة 1836 إلى اسطنبول حيث توفي هناك

³⁰ Christiane Achour. "Anthologie de la littérature algérienne de langue française," Editions ENAP, Alger, Bordas, Paris 1990. pp 14-15.

³¹ Jean Déjeux. "Situation de la littérature maghrébine de langue française ", OPU, Alger 1982, p 18.

شامل مست كل ما كان يصدره الفرنسيون في الجزائر بين 1880 إلى 1920 من مجلات وجرائد فيقول: بأنه عثر على نصوص قليلة موقعة بأسماء ذات "رنين عربي" – على حد قوله- لأنه كان يشك في هوية أصحابها ويرجح بأنها أسماء مستعارة من طرف مستوطنين فرنسيين مستثنيا منها اثنين:

الأول يدعى أحمد بوري وهو من نشر سنة 1912م، في جريدة "الحق"، رواية مسلسلة تحت عنوان "مسلمون ومسيحيون"، ويشير ديجو في دراسته إلى التناقضات التي أخفاها المؤلف في هذه القصة عندما كان يصور العلاقة بين الفرنسيين والجزائريين و كأنها في غاية الانسجام³². أما المؤلف الثاني يدعى سالم القوي ونُشر له عملان، مجموعة شعرية بعنوان 'حكايات وقصائد من الإسلام' سنة 1917، تبتعتها أخرى سنة 1920 تحت عنوان "أنداء مشرقية"، ولا يختلف العمل هذا عن الأول حيث كان يمجّد الإسلام والشرف وفرنسا في آن واحد³³.

ولما تميزت الفترة ما بين سنة 1891، سنة ظهور قصة "انتقام الشيخ"، بفراغ في الإنتاج الأدبي لأسباب مختلفة وبين العشرينات التي ظهرت خلالها عدة نصوص أدبية لجزائريين كتبوا باللغة الفرنسية في مجال الرواية، يعد المؤرخ للأدب الجزائري ذي التعبير الفرنسي "جان ديجو" أول انطلاقة حقيقية لهذا الأدب الناشئ عن طريق القائد "بن شريف محمد بن سي أحمد³⁴ في روايته: "أحمد بن مصطفى القومي" والتي ينظر إليها على أنها أول رواية يكتبها جزائري باللغة الفرنسية، وهذا ما لا ينكره بعض الباحثين المعروفين ولكنهم يتجاهلون في الوقت ذاته، كما هو الشأن بالنسبة لكل الإنتاج الأدبي الذي كتبه الجزائريون بالفرنسية في فترة ما بين الحربين³⁵، وللإشارة فإن الفترة الممتدة بين بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر وظهور هذا الأدب تزيد عن

³² Jean Déjeux. " Situation de la littérature maghrébine de langue française ", OPU, Alger 1982, p 19.

³³ Idem

³⁴ انظر التعريف في الباب الثالث

³⁵ نذكر على سبيل المثال، عبد الكبير الخطيبي وغانى مراد، حيث تجاهلا الانتاج الروائي الذي سبق سنة 1945 وأشارا إليه أحيانا في الهامش.

- Abdelkadir Khatibi, « Le roman maghrébin », Ed. F. Maspéro, Paris 1968

- Ghani Merad. La littérature algérienne d'expression française, Ed. Oswald, Paris 1976, p 68.

التسعين عاما، وهذا ما يعتبر غير عادي وغير طبيعي إذا أخذنا بعين الاعتبار ادعاءات المستعمر الذي كان يردد دائما أن رسالة في الجزائر هي رسالة حضارية.

والحقيقة أن تأخر ظهور هذا الأدب طيلة هذه المدة له عوامل وأسباب عديدة ومختلفة نكتفي بالتطرق إلى أبرزها وهما: سياسة العدوان المنتهجة من طرف الاستعمار وسياسة التعليم التي طبقتها المحتل في الميدان.

لقد كان الجزائريون والمستوطنون الأوروبيون يعيشون فوق أرض الجزائر جنبا إلى جنب، ولكن كخطين متوازيين لا يلتقيان، كان لكل مجتمع منهما حياته الخاصة التي لا يشارك فيها الطرف الآخر، فالجزائريين مقاهيهم ونواديهم وجمعياتهم الثقافية والرياضية الخاصة بهم، وللمستوطنين الأوروبيين ملاهيهم ومقاهيهم ونواديهم ومسارحهم. كما كان لا يسمح للجزائريين بمشاركة أنشطتهم المختلفة حيث كانت تلك الأنشطة "نوعا من الفاكهة المحرمة على الجزائريين³⁶، وبالمقابل كان الجزائريون من جهتهم لا يبذلون أي رغبة في مشاركة المستوطنين أنشطتهم الثقافية أو الترفيهية، وهو نوع من المقاومة السلبية للمحتل، وكذلك حفاظا منهم على ثقافتهم وهويتهم الخاصة بهم³⁷. كما عبر عن ذلك أحد الباحثين الفرنسيين حين قال. " لا يوجد بين فرنسا والجزائر سوى ألف كيلومتر من ماء البحر، ولكن يوجد بين أحياء الأوروبيين في المدينة وأحياء "الأهالي" مسافة فلكية هي تلك التي صنعها الاستعمار³⁸. هذه الوضعية العدائية المستحكمة التي ظلت تطبع العلاقة بين الطرفين منعت كل تبادل ثقافي أو تلاقح فكري أو تأثير حضاري بينها، لقد كان المحتل ينظر في الغالب إلى الثقافة المحلية نظرة احتقار، ومن جهتهم كان الجزائريون يتوجسون خيفة من ثقافة المحتل، ويقابلون بحذر كل ما يصدر عنه، ومن أشهر الأمثال الشعبية التي كانت متداولة على ألسنة الجزائريين لتترجم ذلك الخوف والتوجس قولهم. "كل ما يأتي من الغرب ما يفرح القلب".

³⁶ Saâd Eddine Bencheneb, préface des « Mémoires » de M. Bechtarzi, SNED, Alger 1968, p 06.

³⁷ أحمد منور "مسرح أحمد رضا حوحو"، رسالة ماجستير، معهد الآداب.

³⁸ Boula Mohammedi-Tabti « la société algérienne avant l'indépendance dans la littérature, Lecture de quelques romans » OPU, Alger 1986, p 31.

ولكن بدأت هذه الهوة تتقلص بين الطرفين عقب انتهاء الحرب العالمية الأولى حين وقع ما يشبه نوعا من التقارب الحذر بينهما، حيث حاول كل طرف الانفتاح على الآخر، كما ساعد على ذلك حالة الانفراج الدولي التي أعقبت الحرب، وإعلان مبادئ الرئيس الأمريكي ويلسون الشهيرة التي كانت تتحدث لأول مرة عن حق الشعوب في تقرير مصيرها. هذا بالإضافة إلى تجسيد هذا الانفراج من طرف الحكومة الفرنسية التي قامت باتخاذ بعض الإجراءات السياسية والإدارية خففت من حدة التوتر وهيأت ولو قليلا الأجواء المناسبة لمثل هذا الانفتاح، وصدر في هذه المرحلة ما أصبح يعرف بقوانين 04 فبراير 1919 التي ألغيت بموجبها معظم مواد قانون "الأنديجينا" العنصري الذي حكم الجزائريين بقبضة من حديد. وباتخاذ تلك الإجراءات، كانت الحكومة الفرنسية تريد رد بعض الجميل لما يقارب 73000 جندي جزائري كانوا قد شاركوا في الحرب تحت العلم الفرنسي، فقتل وجرح منهم الآلاف، كما كانت هذه لفتة اعتراف وتقدير منها لجهود العمال الجزائريين المقيمين على التراب الفرنسي الذين ضمنوا طوال فترة الحرب، استمرار دوران آلات المصانع الفرنسية عوضا عن العمال الأصليين الذين جندوا في الحرب³⁹.

بفضل هذه الاعتبارات واستنادا إلى القانون المذكور، أصبح من حق الجزائريين، ولأول مرة في تاريخ الاحتلال الفرنسي للجزائر إنشاء الأحزاب السياسية وإصدار الصحف والمشاركة في الانتخابات المحلية التي كشفت عن مدى صدق النوايا الاستعمارية في المضي قدما في وضع هذا الإصلاح موضوع التنفيذ الفعلي، لكن ما حصل في الانتخابات المحلية لمدينة الجزائر والتي فاز بها الأمير خالد بالأغلبية أظهرت عكس كل التوقعات⁴⁰.

كما كان هناك عامل سياسي آخر عجل بظهور الإجراءات الإصلاحية في السياسة الفرنسية اتجاه الجزائريين وهو استعداد المستعمر للاحتفال بالذكرى المئوية

³⁹ عمار بوحوش "العمال الجزائريون في فرنسا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1975، ص 98-99.

⁴⁰ Itinéraire politique de l'Emir Khaled, in « L'Emir Khaled, Documents et témoignages... », OPU et ENAP, Alger 1987, pp 11-14.

لاحتلال الجزائر، لذا كان لا بد من إظهار شيء ما أمام الرأي العام العالمي، وحتى الفرنسي نفسه لتبرير استمرار احتلال الجزائر. ويظهر هذا "ثمار الرسالة الحضارية" التي طالما ادعى المحتل الفرنسي أنه جاء لنشرها في هذا البلد، لذلك تقرر تشجيع الأدب ونشر أعمال إبداعية لكتاب من "الأهالي" تظهر كيف أن "جمعة أو Vendredi41" قد حفظ الدرس وتعلم من سيده المتحضر حتى أصبح يعبر عن مختلف شؤونه الخاصة بتلك اللغة.

لهذا ظهرت فجأة وبعد أكثر من تسعين عاما من الاحتلال، أعمال أدبية باللغة الفرنسية لبعض الجزائريين، كتبت ونشرت على عجل للمناسبة، وبالرغم مما كانت تحويه من نقائص فنية وعيوب، فإنها كانت مناسبة لتأكيد الذات إذ يقول "ديجو" "فكان المؤلفون(الجزائريون) يريدون أن يبرهنوا (للمستعمر) أنهم تلاميذ نجباء ومقتدرون"42.

وفي هذا الصدد، تميزت العشرية 1920-1930 بظهور خمسة أعمال أدبية حيث عقت مجموعة سالم القبي الشعرية والسيرة الذاتية للقائد بن شريف روايات: "زهراء امرأة المنجمي" لشكري خوجة سنة 1928، ورواية "العلاج أسير البرابرة" للكاتب نفسه سنة 1929.

لم يشكل هذا الإنتاج الأدبي القليل عامل فخر إذا ما قيس بطول فترة الاحتلال أو حجم الدعاية التي أحاطت بها السلطات الفرنسية في الجزائر هذا الحدث، كما يعكس هذا العدد نفسه مدى عمق المدرسة الاستعمارية في سياستها التعليمية الخاصة بالأهالي. بالإضافة إلى أن الكتاب الذين نشرت أعمالهم من أبناء البلد الأصليين قد اختيروا بعناية كبيرة، حيث كان ينتمي معظمهم إلى أبناء الأغوات والمتعاونين مع الإدارة الاستعمارية ممن كانت أحوالهم ميسورة ويؤمنون لحد بعيد بفكرة التعايش مع المستعمر والاندماج في مجتمع المستوطنين. كما كان هؤلاء الكتاب يظهرون إعجابهم

⁴¹ إشارة إلى تعليم "روبنسون كروزوي" اللغة الانجليزية لخدمه "جمعة" في الرواية الشهيرة لداينال دينوي، تحت عنوان "روبنسون كروزوي"

⁴² Jean Déjeux, « Situations de la littérature maghrébine de langue française », p 29.

بالثقافة والحضارة الفرنسيين، في كثير من الأحيان، ضمن كتاباتهم، غير أن القضايا التي عبروا عنها قد عكست، وربما عن غير قصد منهم، العديد من الإشكاليات المعقدة التي كانت تطرحها تلك الثقافة الأجنبية بالنسبة للمجتمع الجزائري المسلم. ومن أهم الهواجس الرئيسية في تلك الأعمال الأدبية الجزائرية، مسألة حرية تعاطي الخمر، ولعب القمار التي كانت تشكل جزءا من الحياة اليومية العادية للفرنسيين الذين أدخلوها معهم للجزائر فصارت شيئا مباحا لا يعاقب عليه القانون، وكذا تسامحهم مع ممارسة الدعارة وتعاطي المخدرات، هذه الأمور التي كان الفرنسيون يعدونها من التصرفات الشخصية التي تتعلق بحرية الفرد، في حين تحرم الشريعة الإسلامية، دين كل الجزائريين، كل هذه الأشياء المذكورة وتلزم إقامة الحد على مرتكبيها. وحتى أن هؤلاء الكتاب الأوائل لم ينظروا إلى الأمور المذكورة من الجانب الشرعي الديني المحض، فإنهم أولوا العناية بتصوير أثارها المدمرة على الأسرة المسلمة في الواقع الاجتماعي وهذا ما عبروا عنه في الروايات الأولى التي سنتناولها بالتفصيل ونذكر منها "زهرة امرأة المنجمي" التي يبرز فيها الكاتب الأثر السلبي للخمر التي أدت بالبطل إلى الانحلال الأخلاقي، ليسجن بعد ذلك على جريمة قتل لم يرتكبها في الحقيقة"43.

بينت هذه الرواية، وما تبعها، حتى وإن كان ذلك بصورة فردية، أن موضوع معايشرة الخمر، ولعب القمار، وتعاطي الحشيش، لم يكن عفويا ولم يكن أبدا مجرد مسألة شخصية أو موضة أدبية لدى هؤلاء الكتاب44، ولكنه تجسد في هاجس اجتماعي تحركه انشغالات وتساؤلات فكرية وسياسية توضح الحدود الفاصلة بين المحرم والمباح في الدين وفي القانون المدني، بين حرية الفرد عند المستوطنين والضوابط الأخلاقية بالمفهوم الإسلامي. هذا ما يبين أن أزمة هوية رافقت هذا الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية ومنذ بداياته الأولى لتتطور فيما بعد.

⁴³ Hadj Hamou Abdelkader. « Zohra, la femme du mineur », Edition ANEP, Alger 2005, p 264.

⁴⁴ Mostefa Lachref. « débat sur le roman maghrébin », ENAP, Alger 1988, p 39.

وتحولت هذه التساؤلات بسرعة لدى هؤلاء الكتاب إلى حيرة أو أزمة ضمير حينما طرحت إمكانية حصول بعض الجزائريين على صفة "المواطنة الفرنسية" حيث ظهر السؤال المحير لدى الكتاب وحتى عند بعض الزعماء السياسيين والمتقنين الجزائريين باللغة الفرنسية بوجه عام ألا وهو: كيف يمكن للجزائري أن يصبح فرنسيا ويبقى في الوقت ذاته عربيا مسلما مع كل التناقضات الموجودة بين مستعمر حاكم ومحتل محكوم؟

كان هذا السؤال محورا أساسيا في معظم الروايات الجزائرية المكتوبة بالفرنسية التي ظهرت في فترة العشرينيات وامتدت إلى ما بعد 1945م، ونذكر منها على سبيل المثال. "مريم بين النخيل" (1934) لمحمد ولد الشيخ، و"بولنوار، فتى جزائري" (1941) لرابح زناني، ورواية "العلاج أسير بلاد البرابرة" (1929) لشكري خوجة والتي خلافا للروايات المذكورة، عالجت الموضوع، بطريقة غير مباشرة حين لجأ كاتبها إلى استلهام وقائعها من تاريخ "رياس البحر في الجزائر" في القرن الـ 16 لیسقطها بشكل فني مميز يدفع به القارئ إلى استخلاص العبرة.

ولم ينحصر نقاش هذه المسألة في الروايات بل كان أيضا محل تدخل السياسيين ومن بينهم الزعيم الوطني فرحات عباس، أول من كرس استعمال صفة "الفتى الجزائري" في أدبيات الحركة الوطنية في فترة العشرينيات والثلاثينات كدلالة على تواجد الجيل الجديد من المثقفين الجزائريين خريجي المدرسة الفرنسية. وقد نشرت هذه الأفكار بين سنتي 1922 و 1930 في مقالات صحفية متفرقة ثم جُمعت سنة 1931 في كتاب عنوانه "الفتى الجزائري"، كما اشتهر ترديد هذه التسمية بعد ظهور هذا الكتاب وبرزت في عناوين عديدة من كتابات الجزائريين باللغة الفرنسية خاصة في حقل الفن الروائي الذي اتخذ كوسيلة لتجسيد الأطروحات الفكرية الرئيسية كالدفاع عن المساواة في الحقوق والواجبات بين الجزائريين والأوروبيين مثلا، فيما يتعلق بقانون

الخدمة العسكرية الإجبارية والتي كانت مدتها تمتد ثلاث سنوات بالنسبة للمجنّد الجزائري ولا تتعدى ثمانية عشر شهرا بالنسبة للأوروبيين⁴⁵.

وقد جسد كتاب "الفتى الجزائري" أرضية نقاش الأفكار حتى توسعت الرؤى وبدأت تشمل التعرض إلى بعض القضايا الأخرى ذات الطابع الاجتماعي والاقتصادي، من أهمها هجرة الفلاحين الجزائريين إلى فرنسا ليتحولوا هناك إلى عمال⁴⁶، والاتهامات التي كانت توجه للشبان الجزائريين من خلال كل نشاط نقابي أو اجتماعي أو سياسي⁴⁷.

وطرحت أيضا قضايا أخرى ذات بعد حضاري وثقافي وديني، فشكّلت هذه الموضوعات الخلفية الفكرية لمعظم الروايات التي سبقت فترة الخمسينات حيث دافع الروائيون من جهتهم بطرق شتى عن الإسلام، وعملوا على التعريف به، وإظهار سمو مبادئه، وعظمة رسالته اعتقادا منهم بأن الأوروبيين لا يعرفون الإسلام، فكانوا يحرصون أشد الحرص على الاستشهاد بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة مع التركيز على شرحها وتبيان مقاصدها. لكن روائي هذه الفترة، وفي تأثرهم بكتابات الأوروبيين من مدرسة الجزارة (اهتموا كثيرا بموضوع الزواج المختلط بين الجزائريين والفرنسيات في المحل الأول، ثم بين الفرنسيين والجزائريات وهو القليل، حيث وظفوا، ما يعد خرقا للممنوع بالنسبة للفريقين لطرح مختلف القضايا الاجتماعية والثقافية وحتى السياسية التي تعتبر سببا رئيسيا في تباعد وتنافر الطائفتين. ووجد، بالنظر إلى هذا النوع من الزواج، موقفان رئيسيان حيث عده البعض ممكنا ولكن غير مجد في خلق الانسجام نظرا لاختلاف العقيدة، وهذا ما سنتطرق إليه في دراسة الروايات المختارة في المدونة موضوع البحث. في حين يرى الفريق الثاني أن هذا النوع من الزواج هو السبيل الوحيد لدفع التقارب والتفاهم بين المسلمين والمسيحيين،

⁴⁵ Ferhat Abbas. « De la colonie vers la province », *Le Jeune algérien*, edition Garnier Frères, Paris 1981, p 34.

⁴⁶ "Le Jeune algérien", p 51.

⁴⁷ *Idem*, p 66- 68.

كما ذهب إليه كل من "محمد ولد الشيخ" في رواية "مريم بين النخيل" ورابح زناتي في "بولنوار الفتى الجزائري". أما الرأي الذي يتفق عليه الجميع أن ما يمنع تحقيق التقارب عن طريق هذا الزواج، فهي الأحكام المسبقة التي تحملها كل طائفة عن الأخرى وعدم استعدادها الفعلي للتخلي عن مواقفها، وهو الأمر الذي يشكل ضغطا اجتماعيا قويا يهزم أبطال هذه المغامرة فيحولهم إلى ضحايا مجتمع، كما حدث لبطل رواية "بولنوار الفتى الجزائري"، وكذا بطل رواية "ابن الفقير" لمولود فرعون والتي يعود تاريخ كتابتها إلى سنة 1939، حيث يلتقي كاتبها مع من سبقوه في الإيمان بفكرة الاندماج والتعايش مع الأوروبيين. وقد كتب مولود فرعون روايته انطلاقا من منظور أن الأهالي قد أتاحت لهم الفرصة للتعرف على فرنسا عن طريق الهجرة وعن طريق المدرسة "حتى أن أطفال القرية يعرفون من أين ينبع نهر السين (...)"⁴⁹، إلا أن هذه المؤلفة كانت تختلف عن إنتاج كتاب هذه الفترة، إذ ابتعد فيها عن طغيان السيرة الذاتية واعتمد في عمله على تصوير العادات والتقاليد القبائلية بصفة خاصة. ونشير هنا إلى امتداد ظاهرة الرفض الذي عبر عنه فيما بعد كتاب فترة ما بعد 1945، كما كان الشأن بالنسبة لمالك بن نبي في رواية "البيك" التي كانت تعالج موضوع الخمرة والضياع، كما شكل ظهور أعمال محمد ديب (1954) منعظا حاسما في تطور الأدب الروائي الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية الذي تجاوز الفوقية في معالجة المشاكل الحقيقية، وبدأ يطرح تساؤلات محددة وصريحة عن الهوية الوطنية، وعن مفهوم الوطن وعن علاقته بالهوية الحقيقية للجزائريين.

وفي هذا الصدد لا بد لنا أن نشير هنا إلى أسماء كتاب جدد من أصل جزائري برزوا في فرنسا في العقدين الأخيرين وهم في معظمهم من أبناء العمال المهاجرين الجزائريين أمثال "مهدي شارف"، "علي غالم"، "زوليخة بوقرط"، هؤلاء الذين

⁴⁸ يوسف لبيب "مولود فرعون" حياته وأعماله، ترجمة حنيفي بن عيسى، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1991، ص 41.

⁴⁹ المرجع نفسه، ص 32.

يعرفون حاليا بـ"البير" 50 (Beur) أو الجيل الثاني من المهاجرين الجزائريين يتناولون موضوعات لها صلة من قريب أو بعيد بالجزائر، حتى وإن تعلقت تلك الموضوعات بصميم الحياة اليومية في المجتمع الفرنسي المعاصر، وهذا ما نراه في نظرنا امتدادا و تطورا طبيعيا لأدب الجزائريين السابقين باللغة الفرنسية مع التأكيد على وجود الفوارق في المستويات الفنية واللغوية⁵¹.

هذا ما نعتبره نبذة عن الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية من حيث التطور عبر مراحلها المختلفة، والتي يمكن تصنيفها إلى أربع فترات رئيسية منها: مرحلة البداية والتي كانت متعثرة فنيا ومتذبذبة سياسيا، حيث امتدت من قبل 1920 إلى 1945. ومع ظهور المرحلة الثانية التي شهدت على اندلاع ثورة التحرير والتي تميزت هذه الفترة بالقلق والترقب. ثم أتت مرحلة الثورة التي غاب فيها مجال التردد والحياد عند الكتاب، وتلتها مرحلة ما بعد الاستقلال التي عرفت تنوعا كبيرا في الرؤى والمواقف حول كل القضايا الاجتماعية والسياسية والفكرية والفنية حيث تضاعف الإنتاج في كل الأنواع الأدبية، من شعر، ومسرح، ونثر، بتنوع في الموضوعات حسب التوجهات الفكرية الجديدة والمختلفة و حسب كل مرحلة عن التي سبقتها. هذا ما يؤكد أن عملية تكوين الدوائر الثقافية والسياسية للجزائر لم تكن تستغني عن المساهمة البناءة لمنثقي فترة ما بين الحربين في نمو وتطور فكرة المثل والهوية الثقافية للبلاد.

⁵⁰ البور، (Beur)، لفظة مستهجنة من العامية الفرنسية (verlan) ظهرت في 1981 والتي تعني كلمة "عربي" مع استبدال في المقاطع وإخفاء بعضها.

⁵¹ Christiane Achour, "Anthologie de littérature algérienne de langue française ", p 184.

المبحث الثاني

ب- النماذج الروائية الأولى:

وانطلاقاً من الموضوع قيد الدرس وجب علينا إعادة وضع دراسة دور أوائل الكتاب الجزائريين باللغة الفرنسية الذين غالباً ما يدرجون ودون تحليل جاد في خانة "منشدي الإدماج" من دون معرفة حقيقية أو دراسة معمقة لأعمالهم الأدبية. ينتمي هؤلاء الكتاب إلى الطبقة الراقية من المثقفين المفرنسين داخل المجتمع الجزائري، إذ سبق لنا أن حددنا معالمهم الفكرية وتحدثنا عن انشغالاتهم، حيث أن حياة كل واحد منهم تتميز بارتباطها العميق بالهيئات والمؤسسات الاقتصادية والاجتماعية التي وضعها النظام الاستعماري الذي كان يبتغي من وراء ذلك إحكام سيطرته. لم يكن هذا الارتباط الوثيق جلياً عند طبقة المثقفين المفرنسين فحسب، بل شمل ولو لدى جزء منهم، مجموعة المثقفين المتخرجين من القالب الإسلامي. تبقى المجالات التي توفرها الإدارة والقضاء والتعليم والجيش من بين الأماكن المفضلة حيث تنتعش وتتطور هذه الطبقة الرهيفة المحلية إذ تستغل في الإنابة عن السلطة الاستعمارية. تعطي موسوعة الكتاب المغاربيين باللغة الفرنسية¹ لصاحبها جون ديجو **Jean Déjeux** ملخصاً مقتضباً لسيرة الكتاب موضع الدراسة، ولكن العمل الذي نريد إنجازه، فقد حاولنا أن نجد معلومات أكثر تفصيلاً فيما يخص هؤلاء الكتاب، كما سنحاول البحث عن أوجه التشابه البليغة فيما بينهم أو إذا لزم الأمر الحديث عن خصوصياتهم داخل السياق الثقافي والأدبي للفترة التي عايشوها.

- بن الشريف محمد بن سي أحمد: "أحمد بن مصطفى القومي"

ينحدر من قبيلة أولاد سيدي أحمد التي كانت تنتشر في الهضاب العليا الوسطى في الجزائر، في منطقة الجلفة على وجه الخصوص. إنه أول جزائري مسلم ينشر رواية كاملة باللغة الفرنسية. عمل أبوه تحت لواء الأمير عبدالقادر قبل أن يعلن موالاته لفرنسا، وبقيت عائلته من بعده وفية لهذا الالتزام. بعد دراسته في الثانوية التحق بمدرسة سان سير – ضابط مرافق للحاكم جوناك "**Jonnart**"، ثم ملازم في فيلق

¹ DEJEUX, Jean, "Dictionnaire des Auteurs Maghrébins de langue française", Paris, Karthala, 1984, 404 p.

السبايس، وأخيرا قايد لقبيلته، مسيرة محمد بن الشريف كما نرى، هي مسيرة صاحب امتياز داخل النظام الاستعماري. إنه لا يعبر عن امتنانه لفرنسا عبر كتاباته فحسب ولكن من خلال حياته كاملة. وبعد مشاركته في حرب المغرب الأقصى سنة 1908، لم يتورع في الذهاب إلى جبهة الحرب إبان الحرب العالمية الأولى. وسرعان ما سقط في الأسر ليتم ترحيله إلى ألمانيا، ليحول فيما بعد إلى معتقل بسويسرا. وبالرغم من كل هذه التقلبات بقي وفيا لالتزاماته إلى جانب فرنسا، وعند انتهاء الحرب، وبعد عودته إلى الجزائر عاود الاشتغال بمهامه كقائد لقبيلة أولاد سي أحمد، توفي سنة 1921 أثناء وباء الطاعون الذي ضرب المنطقة حيث جاء لمساندة رجال قبيلته في محنتهم قبل أن يقضي بدوره بعد إصابته بالعدوى.

وصل عدد المسلمين المجندين طواعية في صفوف الجيش الفرنسي خلال الحرب العالمية الأولى حدا تفاجأ له المسؤولون في الجزائر، تم إحصاء 87500 مجند طوعي من بين 173000 مسلم في صفوف الجيش حيث سقط منهم في ساحات المعركة 25000 جندي مسلم مقابل 22000 فرنسي من الجزائر¹، تترجم هذه الأرقام مدى أهمية الشريحة من المجتمع الجزائري التي اختارت طواعية أو مكرهة الخوض في سبل الإدماج أو على الأقل التعاون مع قوى النظام الاستعماري. لذا لا يجب الاندهاش من كون صاحب أول رواية باللغة الفرنسية كان جنديا، لأن الجيش يشكل المكان المفضل للاتصال والالتقاء بين العرب والبربر والأوروبيين القادمين من مشارب مختلفة من المستعمرة. وهذه الرواية ليست الأولى ولا الأخيرة من مجموع المؤلفات الفكرية التي تنشر بالفرنسية لمسلمين جزائريين مجندين في الجيش الفرنسي. إسماعيل هامات²، عبدالله بوكابوية³، سعيد قنون⁴، وفيما بعد الأمير خالد، حتى لا

¹ Source. STORA, Benjamin, "Histoire de l'Algérie coloniale (1830-1945)", Paris, Editions La Découverte, 1991, p.44.

² HAMET, Ismaïl, "Les musulmans français du Nord de l'Afrique", Paris, Armand Colin, 1906, 313 p.

³ BOUKABOUYA, El Hadj, Abdallah, "L'Islam dans l'armée française", Constantinople, 1915.

⁴ GUENNOUN, Saïd, "La voix des monts, mœurs de guerre berbères", Rabat, Omnia, 1934, 317 p.

نذكر إلا بعض الأسماء من الذين كتبوا وخطبوا في ظروف وحالات مماثلة داخل الجيش. كان الهدف المرجو بالنسبة للكثير منهم من وراء كتاباتهم هو تقديم المسلم بديانته وتقاليدته ومطالبه إلى الفرنسيين بعيدا على الكليشيهات والصور السلبية التي صنعها عنهم المستعمر، ولكن من الداخل و بحسب النظرة التي يوقعونها عن أنفسهم أو كما يريدون أن يظهروا للآخرين. وهكذا فإن أول طبعة لمحمد بن شريف هي سرد لمآثر السفر والذي يستجيب لهذا المنطق. إن الهدف المبتغى من ذلك هو تقديم الحج إلى البقاع المقدسة ومدى أهميته بالنسبة إلى المسلمين¹ وهنا يتضح لنا جليا ومن خلال كتاباته وحياته، أن الكاتب بقي متعلقا بقوة بالقيم الإسلامية، وحتى أن ارتباطاته بفرنسا وبجيشها لم تنقص من انتماءاته الثقافية ولم تؤثر في هويته العربية المسلمة.

- حاج حمو عبد القادر: "زهرة زوجة عامل المنجم"

ينحدر صاحب الرواية الثانية في هذه المدونة بدوره من عائلة كبيرة، هي عائلة حاج حمو من مدينة مليانة. وعلى النقيض من عائلة محمد بن شريف، لم يكن للجيش الفرنسي دور في شهرة عائلة عبدالقادر الحاج حمو (1891-1953)، ولكن في مجال الدين والتشريع الإسلامي. فمن بين أجداده هناك ولي صالح في معسكر، عمل أبوه قاضيا في مدينة مليانة وهو الذي اقترح في سنة 1893 مشروع إصلاح القضاء الإسلامي في الجزائر أمام لجنة مكونة من سيناتورات، واصل الابن سيرة أبيه، فبعد دراسته في مدرسة الجزائر، امتهن القضاء، ولكونه يجيد اللغتين العربية والفرنسية، تم تأهيله لتدريس اللغة العربية وتحصيل شهادة مترجم قضائي.

في سنة 1930، وعند الاحتفال بمرور مائة سنة على احتلال الجزائر وجه خطابا في سيدي فرج باسم الكتاب باللغة الفرنسية من أصول عربية وبربرية. كان عبد القادر الحاج حمو الروائي الجزائري باللغة الفرنسية في حقبة ما بين الحربين (الأولى والثانية) على اتصال مكثف بمعاصريه من الكتاب المنخرطين فيما بات يعرف بالأدب

¹ BENCHRIF, Mohammed, "aux Villes Saintes de l'Islam", récits de voyage, Hachette, 1914, Paris

الاستعماري. جعل منه انتماؤه إلى الماسونية و صداقته بروبير روندو **Robert Randau** وجان بومي **Joan Pomier** أن يتبوا مكانة هامة في حركة الجزائر. وقد وجهت له دعوة لشغل نائب رئيس جمعية الكتاب الجزائريين بعد الحرب العالمية الثانية. بدأ أعماله الأدبية بأقصوصة **1** نشرت سنة 1925 ضمن مجموعة قصصية قدم لها لويس برتراند **Louis Bertrand**، صدرت له في السنة الموالية الرواية التي تشكل جزءا من المدونة موضوع دراستنا. ثم بعد سنوات أخرى صدر له، تحت اسم مستعار، مع روبرت راندو حوار في قالب قصصي **2** اعتبر فيما بعد إنجيل التعايش ما بين الأوروبيين والسكان الأصليين، كما أن لصاحبنا عدة مقالات في الصحف والجرائد لتلك الفترة إلى جانب مجموعة من الحكايات (**Contes**) نشرها في أربعينيات القرن الماضي. لقد استعمل مرات عديدة أسماء مستعارة لإصداراته (العربي أو عبد القادر فكري) ونتيجة لذلك كان له عنوانان مختلفان بالجزائر العاصمة.

وفاءه للإسلام، جعله يحلم بجزائر فرنسية إلى الأبد، مدمجة كلياً حيث يحترم كل واحد فيها تعاليم ديانة الآخر. ترسم لنا صورة مثلى للتعايش بين مختلف الأطراف التي يتشكل منها الشعب الجزائري وذلك من خلال حوار ه مع روبرت راندو و كذا من خلال إصداراته في المجالات، ، تناقضات كثيرة ومحاولة لإخفاء حقيقة المستعمر.

كما تميزت كتاباته بمطابقتها الشديدة لثقافة المحتل وهو الأمر الذي أدهش القراء الحاليين وجعلهم يتساءلون عن مدى نزاهة واستقامة مواقفه المختلفة. ولتقدير عمق هذا التماثل الفكري الذي عمل جاهدا من أجل مطابقة الخطاب الإيديولوجي المهيمن آنذاك، دعنا نقرأ بعض المقاطع المدهشة من مقالة صدرت له في مجلة ميركور دي فرانس (**Mercure de France**) زئبق فرنسا.

¹ HADJ-HAMOU, Abdelkader, "Le frère d'Ettaous, in Notre Afrique, Anthologie des conteurs algériens", préface de BERTRAND LOUIS, Paris, Les Editions du Monde Moderne, 1925, pp. 1-28.

² HADJ-HAMOU, Abdelkader, Pseudo. FIKRI et RANDAU, Robert, "Les compagnons du jardin", Paris, Donat-Monchrestien 1933, réédité par DUGAS, Guy, in L'Algérie, un rêve de fraternité, Paris, Omnibus, 1997, pp. 59-154.

"نؤمن بأن فرنسا هي أعظم قوة إسلامية في العالم، لذا وجب على كل فرنسي معرفة الإسلام والمسلمين"¹.

أو عندما يتكلم عن نفوذ فرنسا في بلاد المسلمين.
لقد بدأ المسلمون في الجزائر والمغرب ومنذ أن رُفرف العلم الفرنسي فيها، فهم ديانتهم التي كانوا يجهلونها".

بمجيء فرنسا، لازالت مدارسها تبدد ظلمات الجهل.
من هنا نفهم أن عبدالقادر حاج حمو لم يكن له أي تقدير لدى الوطنيين الجزائريين وأن الأدب الجزائري باللغة الفرنسية سرعان ما تجاهل مؤلفاته الأدبية. وإذا كانت رواية "زهرة زوجة عامل المنجم" لاقت الكثير من النقد بسبب الخرق والرعون في التعابير إلى جانب ثقلها في الأسلوب فإن حواراته مع روبرت راندو في "رفقاء الحديقة" هي التي أثارت نقدا عنيفا ولاذعا بسبب مثاليته التي تخفي حقيقة النظام الاستعماري ويوميات المسلمين في جزائر ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية. إن المسار الفكري لعبدالقادر حاج حمو وارتباطه الداخلي يجعلان منه الروائي الأكثر ريبية وإشكالية لمدونتنا هاته. بالفعل، كيف يمكن لنا الآن قراءة وفهم خطاب سماته الأساسية، التناقضات الضرورية والأوهام التي كان من الصعب تجنبها في تلك الفترة.

وكما سيظهر لاحقا فإن مجال الخيال الأدبي هو الكفيل بتحرير الروائي من الضغوطات الخارجية والداخلية التي تبقي نظرتة للعالم رهينة إطار يحدده الخطاب الاستعماري لتلك الفترة.

- شكري خوجة: "العلاج أسير البرابرة"

اسمه الحقيقي حسن خوجة حمدان، هو صاحب رواية "العلاج أسير البرابرة" في مدونتنا هاته. يعتبره البعض بأنه الأكثر جرأة وإثارة من باقي الكتاب الجزائريين

¹ HADJ-HAMOU, Abdelkader, "L'Islam est-il immuable ? in Mercure de France," 1^{er} mai 1930, pp. 599-611.

بالفرنسية في الحقبة الاستعمارية. في الحقيقة لم تكن له إسهامات في المجالات الأدبية والثقافية لتلك المرحلة، وبغض النظر عن الروايتين موضع دراستنا، لم تعرف له إصدارات أخرى، بالرغم من أن سلفه ومساره الدراسي والمهني لم يختلفا كثيرا عن عبد القادر حاج حمو.

ولد في عائلة من صغار التجار برأسمال ثقافي معتبر، فكان جده (والد أمه) رئيسا لمحكمة الجزائر وكاتبا. بدأ مساره الدراسي في المدرسة الابتدائية المخصصة لأبناء السكان الأصليين بحي سوسطارة حيث تحصل على شهادة الانتهاء من الدراسة الابتدائية. فقد أباه وهو في سن السادسة عشر، ما دفعه إلى العمل بائعا عند تاجر يهودي في وسط العاصمة، ليتحول فيما بعد للعمل في الإدارة. وفي سنة 1916 عندما كان عمره خمسة وعشرون عاما تمكن من الالتحاق بمدرسة الجزائر ليحصل على شهادة المدرسة أولا ثم في سنة 1922 حصل على الشهادة العليا للمدارس. وبحكم تمكنه الجيد من اللغتين الفرنسية والعربية وبعد اجتيازه للمسابقة، تم تعيينه مترجما قضائيا في أحياء وبلدات مختلفة تابعة للجزائر العاصمة.

حظي هذا الموظف الهادئ والوجداني باحترام رؤسائه، الأمر الذي سمح له بالحصول على تعيين كمتحن لجميع أقسام الترجمة القضائية في سنة 1933. لم يشارك بفعالية في الحركات الشبابية في الجزائر إلا أننا يمكننا التخمين بأن أفكاره كانت تتقارب وأفكار هؤلاء الشبان وأن الانهيار السياسي لهم والعنف الذي انجر عن الحرب التحريرية أثر سلبيا على صاحبنا¹. من المهم الإشارة إلى أن هذا المثقف المزدوج اللغة الذي نشر روايتين بالفرنسية، كان عضوا نشيطا في جمعية ثقافية مسلمة في البلدة، وجمعية للتعاون الاجتماعي بالمدينة. وهذا يوضح جليا حديثنا السابق عن العلاقات التي كانت تربط المثقفين المفرنسين بنظرائهم في الحركات الإسلامية. ينتمي شكري خوجة إلى مجموعة المثقفين الذين حاولوا التحقيق عبر مؤلفاتهم وحياتهم

¹ MERIANE, Leïla, "Notice sur Chukri Khodja, in Recherches biographiques ", Algérie, 1830-1962, Paris, n°3, 1^{er} trimestre 1985.

تركيبية تشمل الجزائر المسلمة ومجتمعها على الطريقة الفرنسية، بهوية ثقافية جزائرية وتكوين فرنسي، وهي وضعية غير مريحة دائما مما تسبب من دون شك في هموم وقلق داخلية انجر عنها انهيار عصبي شديد في السنوات القليلة التي سبقت وفاته، و التي أتلّف خلالها كل أعماله الأدبية وكتاباته المختلفة.

في بداية سنوات التسعين أعيد نشر روايته من طرف الديوان الوطني للإصدارات الجامعية وهو ما يعتبر في حد ذاته حالة نادرة.

- محمد ولد الشيخ: "مريم بين النخيل"

في 23 فبراير سنة 1906 في الجنوب الوهراني وبالتحديد في مدينة بشار، من بين الخمس كتاب لمدونتنا يبقى الوحيد الذي يشتغل موظفا ضمن الهيئات الاستعمارية كباقي المثقفين المفرنسين لتلك الفترة. ينحدر من أسرة كبيرة من الجنوب الوهراني وقد كان لهذه الأسرة تأثير حاسم في التطور التاريخي لتلك المنطقة، ومن المهم الإشارة إلى كيف أن الدور التاريخي لهذه العائلة (أولاد سيد الشيخ) يطرح بشكل مغاير عن باقي المثقفين لفترة ما بين الحربين، فلننظر إلى تقديم هذه العائلة بحسب ما يرويهم عنهم جون ديجو **Jean Déjeux** ثم حسب أحمد الأنصاري صاحب أعمال كثيرة بخصوص هذه الفترة.

"إنه ابن الأغا الشيخ بن عبد الله الذي عمل على انتشار النفوذ الفرنسي في منطقة كولمب بشار"¹.

فضلا عن ذلك فإن الروائي ينحدر من عائلة الأشراف الكبرى لأولاد سيد الشيخ التي لعبت دورا رئيسيا في إثبات الهوية الجزائرية. فمن انتفاضة 1864 إلى تلك التي اندلعت سنة 1891، برهن أولاد سيد الشيخ عن رفضهم الاستعمار واعتزازهم بهويتهم الإسلامية.

¹ Introduction de l'auteur à ZENATI, Rabah, "Le problème algérien vu par un indigène," Paris, Publications du Comité de l'Afrique française, 1938, p.10.

ولكون الروائي قد ورث من هذه العائلة الشريفة الأنفة والاعتزاز فقد احتفظ في

أعماقه بتعلق شديد بالإسلام. ¹

ومن دون الدخول في جدل إيديولوجي وتاريخي، فإن المقولتين السابقتين تتحدثان عن نفس العائلة ولكن بحسب حقتين تاريخيتين مختلفتين، وباستعارتنا للمفردات التقنية التي استعملها عبدالقادر جغلول أن العائلة مرت من مرحلة (المقاومة -الرفض) إلى مرحلة (المقاومة-الحوار)²

وفي كل الأحوال فإن محمد ولد الشيخ تابع مساره الدراسي الكلاسيكي المخصص للعائلات الجزائرية المترفة، دراسة ابتدائية في مدرسة فرنسية في بشار ثم التحق بثانوية في وهران و انفصل عنها لأسباب صحية وعاد إلى الجنوب دون أن ينهي دراسته الثانوية بعد إصابته بمرض رئوي كاد يتفاقم بوجوده في وهران بالرغم من استجمامات في مراكز صحية: فيشي **Vichy**، بوحنيفية وتلمسان، إلا أن حالته الصحية لم تتحسن حيث وافته المنية في جانفي من سنة 1938 وهو في سن الثانية و الثلاثين من العمر، وعلى النقيض من كتاب مدونتنا هاته لم يعمل صاحبنا في الهيئات الإدارية والقضائية أو التعليم الاستعماري بسبب مرضه، والنشاط الوحيد الذي عرفناه عنه هو الكتابة ونشر الأعمال الأدبية. وفي واقع الأمر فإن عدم الارتباط بالمؤسسة الاستعمارية يبقى نسبيا، كون عائلته المصدر الرئيسي لتموين حياة الكاتب الارستقراطية وإن كانت قصيرة والاستجمامات التي كانت بعيدة المنال بالنسبة لغالبية سكان المنطقة بقيت خاضعة لعلاقتها بالسلطة الاستعمارية.

بالإضافة إلى الرواية المطروحة للدراسة، فإن محمد ولد الشيخ كتب العديد من الأقصوصات والحكايات والأشعار نشرت في "مجلة وهران" و صدر له ديوان

¹ ZENATI, Rabah, " *Le problème algérien vu par un indigène* ", Paris, Publications du Comité de l'Afrique française, 1938, 182 p. et ZENATI, Rabah, (pseudo. Hassan), " *Comment périra l'Algérie française* ", Constantine, Attali, 1938, essai, 140 p.

² DJEGHLOUL, Abdelkader, Si M'hamed Ben Rahal (1857-1928) " *La résistance-dialogue d'un notable de Nedroma, in Algérie-Actualité* ", n°699, du 8 au 14 mars 1979.

لأشعار نثرية تحت عنوان "أغاني من أجل ياسمين"¹. لصاحبنا كذلك مسرحيتان، ثانيهما "صمصم الجزائري"؟ التي ترجمت إلى العربية ليقوم محمد بشطارزي بإخراجها أولا سنة 1937 وثانيا في سنة 1947 قبل أن تمنعها السلطات الاستعمارية. تعد " مريم بين النخيل" الرواية الأولى لفترة ما بين الحربين التي يتم إعادة نشرها في الجزائر المستقلة سنة 1985 بتقديم مفصل لأحمد الأنصاري حول الظروف التاريخية والثقافية لهذه المرحلة. بإمكاننا القول الآن أن محمد ولد الشيخ هو الروائي الوحيد من بين كتاب مدونتنا الذي يلاقي قبولا وترحيبا في الجزائر اليوم. وعلى النقيض من الروائيين المفرنسين الذين عاصروه يبقى محمد ولد الشيخ الوحيد الذي أعيد إدماجه في نطاق التراث الأدبي الوطني الرسمي.

- رابح زناتي: "بولنوار الفتى الجزائري"

هو آخر روائي جزائري يصدر رواية باللغة الفرنسية مليئة بالخطابات الداعية للإدماج. كما يمكننا القول بأنه آخر ممثل للتوجه المعروف باسم (المقاومة-حوار). بالفعل فبعد نشره لروايته "بولنوار الشاب الجزائري" سنة 1945، لم نر له إصدارات لروايات جديدة بهذا الأسلوب الذي تميزت به سنوات الاستعمار، حيث أن الخيال يرضخ بقوة للخطاب الإيديولوجي المهيمن. إن الذي يطغى على السطح يتمثل في إرادة واضحة في الإدماج تخفي في نفس الوقت كل الغموض والالتباس الذي يعترى المحاولة.

ولد رابح زناتي في منطقة القبائل الكبرى في عائلة متواضعة، ولنقل فقيرة إذ لم يكن لديها الامتيازات الاجتماعية والاقتصادية التي كان يملكها الكتاب قيد المدونة. وقد شارك والده سنة 1871 في ثورة المقراني، إذ أحرق البيت الذي كان يؤوي العائلة في العمليات الانتقامية التي كان ينتهجها جيش المحتل، مما دفع العائلة للاحتباء في مغارات جبال جرجرة، في أيام صباه، الطفل رابح عمل على رعي قطيع صغير

¹ OULD CHEIKH, Mohammed, "Chants pour Yasmina ", Oran, Fouque, 1930, réédité en 1937, préface de Gaston PICARD.

من الماعز طوال النهار على غرار أقرانه من أطفال منطقة القبائل، ولم يلتحق بالمدرسة الفرنسية إلى حين بلوغه سن الثانية عشرة من العمر وذلك دون رضا والده الذي كان يريد إبعاده عن سيطرة الفرنسيين.

وبالرغم من هذه البداية المتأخرة إلا أن الطفل رابح برع في دراسته، والشيء الأهم بالنسبة لمستقبله فإنه آمن بقوة بفرنسا مثالية و عادلة وصانعة للحضارة. حصل على شهادة مدرس سنة 1903 ليحصل بعدها على الجنسية الفرنسية ولكن تجربته الكبيرة التي اكتسبها خلال الحرب الكونية الأولى صنعت منه مناظلا متحمسا في سبيل الإدماج، وهو ما أهله للعب دور الوسيط بين الأوروبيين والمسلمين. في هذه المقدمة التي سبق الحديث عنها، يتحدث عن نفسه بصيغة الغائب.

" مكنته السنوات الأربع للحرب من الاطلاع على الكثير من الأشياء وبخاصة القيم الأخلاقية للبشر(...). إن معرفته الدقيقة لعقلية الفرنسيين في أوساط مختلفة، حياتهم النقية والمعتدلة مكنته من تكوين نظرة حول احتمال إدماج إخوانه الذين يشغلون مراتب منحطة ومهملة باحتراس وحكمة وعلى مراحل. ومن هنا فإن قراره بلعب دور الوسيط، نقطة الوصل لضمان الالتحام بين شعبيين محكوم عليهما العيش في مجتمع بمصالح وأفكار مشتركة".

شغل بعد انقضاء الحرب، منصب معلم ثم مدير مدرسة في القطاع القسنطيني إلى حين حصوله على المعاش سنة 1934، وهي المرحلة التي عمل فيها في المجالين الفكري والثقافي، بدأ بكتابة مقالات صحفية، إلى جانب مساهمته سنة 1922 في إنشاء "صوت البسطاء" والتي عرفت بداية ب"نشرية المعلمين الذين ينحدرون من أصول جزائرية" ليؤسس في سنة 1929 جريدة خاصة به "صوت الأهالي". يظهر أن رابح زناتي و من خلال جميع كتاباته، كان يناضل من أجل تحرير وإدماج إخوانه في المذهب من خلال تعميم التعليم لديهم وتمكينهم من حقوقهم السياسية. لقد كان ممثلا حقيقيا لتيار الشباب الجزائري، بعد أن كان قريبا من فيدرالية المنتخبين من أصول جزائرية، وبعد مرور الزمن، والإخفاقات السياسية التي تراكمت والراديكالية التي

طبعت مواقفها، وجد نفسه تدريجيا وحيدا مع أفكاره. وعلى الرغم من كل خيبات الأمل التي مست الشبان الجزائريين وفيدرالية المنتخبين، واظب رابح في المحافظة على مواقفه وواصل العمل بتوظيف موارده الشخصية وكل طاقته. وبغض النظر عن للرواية التي تشكل جزءا من مدونتنا هاته، لم نعرف له أعمالا أدبية أخرى.

لقد تحدث هذا المؤلف أساسا عبر صحيفته، التي أصبحت تعرف بـ "الصوت الحر جريدة الاتحاد الفرنسي المسلم" بداية من سنة 1947 وعبر نصين بطابع سياسي صدر له سنة 1938. ووفق مواقيت متباعدة ببضعة أشهر، الأول في باريس والآخر في قسنطينة تحت اسم مستعار¹.

إذا قدمنا أعمال أنصار الإدماج على أنها أعمال وطنية وأيديولوجية فهذا يعني أننا لم نتمعن إلا في المقاطع التي تمجد فرنسا ورسالتها الحضارية في الجزائر. ولكن في واقع الأمر، قراءة معمقة وموضوعية لكتاب رابح زناتي تمكننا من اكتشاف أن هذا الرجل يملك تعبيرا عن نضال فكري صادق ويأثس أحيانا، ومع ذلك إنه لم يتورع في انتقاد السلطة الاستعمارية و التمسك بجذوره الفكرية والعقائدية.

وتصديقا لذلك، لننظر إلى مقطع من مقالة تميل إلى الهزل حيننا وإلى الدراما حيننا آخر، صدرت له في الصفحة الأولى من جريدة "صوت الأهالي" سنة 1933 التي، هي حسب ما يبدو، كتبت بقلم مدير الجريدة.

الوصايا العشر للمستعمر:

عليك أن تتخلى عن تاريخك و عليك أن تتعلم تاريخنا و عليك أن لا تحلم بالدخول إلى عائلتنا.

عليك أن تحفظ عن ظهر قلب قيمنا المتمثلة في الحرية والمساواة والإخاء وترتلها في المدرسة ولكن يستحيل عليك المطالبة بها في الحياة العملية.

¹ ZENATI, Rabah, "Le problème algérien vu par un indigène", Paris, Publications du Comité de l'Afrique française, 1938, 182 p. et ZENATI, Rabah, (pseudo. Hassan), "Comment périra l'Algérie française," Constantine, Attali, 1938, essai, 140 p.

في المجالس المنتخبة، عليك الاحتفاظ بمنصبك السفلي، والموافقة بإشارة من رأسك فقط ومن دون أن تطمع في الدفاع عن مصالحك.

مصادق عليه، البيكو الفرنسي

إن قراءتنا لهذه المقالات الصحفية المعبرة عن يأس يتزايد يوما بعد يوم، وبالاطلاع على النص السياسي الذي صدر له في قسنطينة سنة 1938، تحت اسم مستعار وبعنوان (كيف ستضمحل الجزائر الفرنسية) نتساءل كيف أن هذا الرجل بقي وفيًا إلى حين وفاته لأفكاره المطالبة بالإدماج، أفكار ما فتئ أن تنازل عنها كثير من أصدقائه المثقفين المفرنسين تدريجيا في الثلاثينات من القرن الماضي وبخاصة بعد فشل مشروع بلوم – فيولات (Blum-Violette).

إن صدور روايته في سنة 1945 موضوع دراستنا هاته، هي تصوير مطابق لحركة الشاب الجزائري، تبدو "متأخرة" عن الأحداث والتطورات التي عرفتها الدوائر الفكرية والأدبية في الجزائر المسلمة، وعليه إذا قرأنا كتابات رابح زناتي لأواخر الثلاثينات وإذا فكرنا في نصه "كيف ستضمحل الجزائر الفرنسية" يصعب علينا الفهم في كون الكاتب يصدر روايته سبع سنوات بعد ذلك موضوعها الأساسي إصراره على إمكانية الإدماج والتعايش مع الفرنسيين.

خلاصة الفصل:

سنحاول في فصول بحثنا اللاحقة الإجابة على هذه التساؤلات. وما هو مؤكد أنه وخلال سنة 1945 والمظاهرات التي شهدتها القطاع القسنطيني والقمع الشنيع الذي تلاها طويت صفحة من تاريخ الجزائر نهائيا.

وفي كلتي الجهتين فإن مناضلي الإدماج أقروا باستحالة تحقيق هذا المبتغى وأن أحلامهم أضحت ضربا من الخيال. ففي المجال الأدبي، فإن هذه الصحوه المفاجئة للحقائق ترجمتها نهاية سلسلة الروايات التي تمجد احتمالات ومزايا الإدماج من جهة ومحاوله تقديم جزائر مستعمرة وبتقافات متعددة، فرنسية ومحترمة لحقوق السكان المسلمين من جهة ثانية.

ومن مجموع الروايات التي تتشكل منها مدونتنا، نجد أن جلها صدرت بفرنسا واثنتين فقط صدرتا بالجزائر عن دور نشر يملكها فرنسيون في المستعمرة. هذه الملاحظة تبين لنا مدى ارتباط الدوائر الثقافية الجزائرية بالنظام الاستعماري. ويظهر ضعف الوسائل عند المثقفين الجزائريين جليا في جميع المستويات وبخاصة في مجال إصدار ونشر كتاباتهم وعند توزيعها أيضا. فبغض النظر عن بعض المحاولات فإن الصحافة ونشر الكتب يبقين خاضعين للدوائر الاستعمارية، وبخاصة في التموين بالورق، الطباعة والتوزيع. وتؤثر هيمنة الدوائر الاستعمارية على المطبوعات والتوزيع من دون شك على الكتاب وتحد من حرية التعبير لديهم بحكم الرقابة المسلطة عليهم وبحكم الرقابة التي يمارسونها على أنفسهم أيضا. وبالنظر إلى العدد الكبير للمقدمات التي تنصدر روايات مدونتنا والتي تتسم بميزتها الأبوية نفهم أكثر مدى إرتباط كتابنا بأصحاب دور النشر وبالدوائر الثقافية الاستعمارية.

للحديث عن مشاكل الطباعة والتوزيع، التساؤل الآخر الذي يكتسي أهمية قصوى والذي يجب أن نطرحه لمعرفة القارئ الرئيسي لكل هذه الأعمال الأدبية المدونة بلغة وأيديولوجية غريبة، وأكثر غرابة منها الأسلوب المفروض على الروائيين أنفسهم، لقد أشرنا في بداية هذا الفصل إلى النسبة الكبيرة للأمية مابين الأهالي في جزائر ما بين الحربين والعدد المحدود للمثقفين الذين يقرؤون ويكتبون باللغة الفرنسية. حقيقة هذه الأرقام تؤكد الإحساس الذي يتولد عند قراءة هاته الروايات، إذ أن هذه الأعمال موجهة إلى الفرنسيين عموما وسكان فرنسا على وجه الخصوص.

بعد قرن من الاستيطان بدأ المستعمّر الساكن الأصلي لهذا البلد يتكلم عن نفسه، يقدم نفسه للآخر بتبنيه للغة وشكل وأيديولوجية فرضها المحتل. إنها الفترة التي تمكن فيها الجزائريون من اللغة الفرنسية إلى درجة التأليف بمحاكاة الكتاب الذين يفضلونهم ومنها توجيه النظرة التي صنعها الأوروبيون عن الشعوب المغزوة: إن تاريخ الأدب

الجزائري باللغة الفرنسية بدأ مع فترة التشبع بالثقافة والمحاكاة حيث أن الانبهار
بالآخر ساهم بجزء لا يمكن تجاهله في عوامل تحفيز الكتاب.

الفصل الثاني تحليل ودراسة الأعمال الروائية لفترة ما بين الحربين.

المبحث الأول:

- مسالك الوحدة
- أ- أحمد بن مصطفى القومي.
- ب- بولنوار الفتى الجزائري.

المبحث الثاني:

- مسالك الضياع وطريق الجنون:
- أ- زهرة زوجة عامل المنجم
- ب- العليج أسير البرابرة.

المبحث الثالث:

- مريم بين النخيل.
- خلاصة التحليل

المبحث الرابع:

- الرواية الأطروحة:
- خطاب الإدماج.
- العناوين الناطقة.
- المقدمات.

I. "تحليل ودراسة الأعمال الروائية الأولى (1945/1920):"

لا يمكن لعمل روائي وبموجب طبيعته أن يتحدث عن شيء واحد في كل مرة.

ولكن عن شيئين على الأقل يتماشيان، يتداخلان من دون المزج بينهما¹.

إنطلاقاً من هذه المقولة نجد أن النقد الأدبي في القرن العشرين قد شدد على أهمية دراسة الهياكل والبنى التي يتألف منها النص. ولهذا كان علينا أن نتفحص شخصيات الرواية ليس مثل كائنات جامدة لا تتحرك فوق ولكن ك"فاعلين" متحركين. لا نحكم على أبطال الرواية بناء على الشخصيات التي يظهرون بها ولكن بناء على الأعمال التي ينجزونها. زمرة "الفعل" جاءت لتتقدم على زمرة "الكائن" نظراً لأهميته من وجهة نظر الناقد. وتدرس العقدة الروائية على أنها مسار قام به البطل أو الأبطال بين وضعيتين مختلفتين للكائن.

وبالنظر إلى ما سبق فإن دراسة المسار الروائي للشخصيات يشكل مستوى أول من المطالعة لا يمكن الاستغناء عنه، وبالتالي فقد اخترنا أن نبدأ دراستنا بتفحص عميق لمسارات أبطال مدونتنا هاته، إذ يشكلون الدعامة الطبيعية للخطابات الأيديولوجية. ومن المهم الإحاطة في بداية الأمر بالنقص الأولي الذي يميز أبطالنا والبحث عن إمكانية وجود تشابه بين رواية وأخرى. من المتفق عليه أن وجود طابع الغموض والالتباس الذي ميز الروايات الأولى من الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية، ولكن الأسباب المقدمة على أنها أصل هذا الغموض ليست هي نفسها، فبالنسبة للبعض، يمكن التفسير في الرغبات المعلنة أو الخفية لممثلي الأدوار الرئيسية والروائيين، إنها الرغبة المدونة² في الذات في الآخر هي التي تقف وراء كل هذا الغموض "أما البعض الآخر فيفضل الحديث عن "الخطاب المزدوج" أو بالأحرى عن "تسويات استدلالية والطرق المسدودة للتقليد والإيمائية" في هذا الجزء من دراستنا سنحاول معرفة الرغبة

¹ P.MACHERY, "Pour une théorie de la production littéraire", Paris, F, Maspero, 1980, p.8.

² J.DEJEUX, « Le double désir du même et de l'autre chez les romanciers de langue française de 1920 à 1945 » in Actes du congrès mondial des littératures de langue française, Padoue, mai 1983.

التي تقف وراء تحريك البحث في مستوى القصة. ما هو النقص المبدئي الذي يريد ممثلو الأدوار الرئيسية إغداقه؟ هل يوجد "نقص نموذجي" قابل للتحدي بوضوح، يميز مجمل الأعمال الأدبية موضوع الدراسة؟ إلى أي مدى يكون هذا النقص واضحاً؟ هل يحمل تسمية، وهل بإمكان صاحب البحث تحديده؟ وفي الأخير هل يمكننا سد الفراغ الناجم عن هذا النقص من خلال الخيال الروائي وهل سنبقى دائماً في هذه الوضعية من الحرمان بحيث لا يمكننا الوصول إلى موضوع البحث؟

المبحث الأول

1. مسالك الوحدة:

أ- أحمد بن مصطفى القومي:

الرواية الجزائرية الأولى باللغة الفرنسية، "أحمد بن مصطفى، القومي".
لمحمد بن شريف صدرت سنة 1920، هي في أغلب أجزائها سيرة ذاتية، لتتصل
النهاية عن الواقع المعاش لصاحب الرواية. هذا الأخير، بطل الرواية إذا، كان يشغل
منصب "قايد" لقبيلة أولاد سيدي أحمد لمنطقة الهضاب العليا الوسطى من الجزائر،
تجند طواعية في الجيش الفرنسي ليشارك في حملة مسالمة المغرب الأقصى، وهو
عضو من قبيلة تنحدر من القبيلة الكبيرة لأولاد نايل. تم إدماجه في "فصيل القومية"
حيث أدى اليمين على أن يبقى وفيًا لالتزاماته ولمدة ثلاثة أشهر.

كان أحمد بن مصطفى يرغب في إثبات شجاعته ووفائه لفرنسا، وهو السبب
الذي دفع به للذهاب إلى الحرب. نجاحه في أرض المعركة مكنه من الحصول على
التشريفات والأوسمة. لم يبرهن على شجاعته فحسب بل خاطب المغاربة عن منافع
وخيرات فرنسا. وعندما يُسأل عن أسباب محاربتة لإخوانه وسبب انضوائه تحت راية
الكفر يجيب دون تردد مدافعا عن فرنسا، الأمر لا يستدعي الردة عن دينه ولكنه يريد
الاستنفاع بخيرات فرنسا والقبول بالحقيقة على حالها. يجب نسيان الاختلافات بين
الديانتين لصالح تاريخ مشترك مكن من التقارب بين الشعبين إبان الحرب.

"إن العلم الذي أخدمه يحميني. إنه يحمل في طياته العدل والتسامح وحق
الضعيف تماما مثل رايات أسلافنا. أرى أنه موروث تقي وورع، لذا يجب أن أوصل
بإمكانياتي الضعيفة أفكارهم النيرة والمجيدة. لقد خدم أجداد هؤلاء المسيحيين تحت
راياتنا في المسيرة نحو نفس هذه الأنوار التي تضيء عالمنا الجديد".¹

موضوع بحث البطل هو في الواقع إقامة علاقات وتوطيد صداقات مع الآخر.
إننا في إطار البحث عن تفاهم غزلي حيث علاقات الغالب/المغلوب تأخذ أوجها بناء
على أفكار العدل والمساواة. يجد أحمد بن مصطفى نفسه بين عالمين، بين ثقافتين، إنه

¹ Ahmed Ben "Mostapha, goumier", p.71.

يتألم من عدم الفهم الذي يفرق بين الشعبين. إنه محارب وحيد ومنعزل يبحث عن مجال ترحيب عند كل فرد، بعيدا عن الخصومات والمشادات التي تثار حول السلطة. القومي، كباقي المحاربين العرب أو البربر، كباقي الرجال المشاركين في الحملات العسكرية، يبحث عن أرض سلم وأمان حيث يمكنه الاستراحة في هدوء تام. ومع هذا، وعند الانتهاء من الحملة البطولية في المغرب عاد إلى قبيلته لمباشرة مهامه التقليدية "كقائد"، كما نجده متلهفا لإمكانية الرحيل من جديد. يشكل هذا الجزء وقتا مستقطعا من مجمل الرواية. يبدو بحث البطل وكأنه معلق. إنها العودة إلى الأصل، استراحة في مسلك حيث تطور القصة يبدو ثابتا في الزمان والمكان.

مع بداية الحرب العالمية الأولى يذهب أحمد بن مصطفى من أجل فرنسا لمحاربة الألمان، إنه جندي صاحب ضمير حي لا يتردد عندما يجب الدفاع عن "وطنه بالتبني"، ولكنه أيضا رجل مندفع نحو المغامرة برغباته غير المشبعة. وفي النص وصف مثير للعواطف عند الوصول إلى فرنسا وعن الانطباعات الأولى للبطل حول بلد الآخر، موضوع البحث يقترب ليتجسد من جديد من خلال المعركة والحرب، إذ يجب على القومي، أن يدافع عن أرض وطنه بالتبني من العدو الألماني. إنه وقت قصير من مساره حيث تقاربه من الفرنسيين يبدو متجسدا.

ولكن هذا الحلم لم يدم طويلا. لقد سقط أسيرا عند الألمان، الذين وجهوا له اقتراحات عديدة لإرغامه على التعاون معهم. لقد قاوم بشجاعة وبسالة، وأخيرا وبسبب المرض، يحول إلى سويسرا، وهنا يموت وحيدا، بعيدا عن أهله وبعيدا عن وطنه بالتبني، لقد قضى أجله في مكان لم يكن ملكا للذات ولا ملكا للآخر. لقد قطع كل علاقة تربطه بذويه، ولم يحصل على أي خبر من الجزائر التي اضمحلت كلية من اهتماماته.

يجعلنا عنوان الفصل الأخير نظن أن بن مصطفى يقضي أجله "مستأنسا بالصدقة الفرنسية الأكثر رقة"، في الواقع يتعلق الأمر بتبادل رسائل مع سيدة من باريس التي ستحمل اسم "صديقتي الغالية" ابتداء من الرسالة الثانية. هذه المراسلات الأفلاطونية العدمية لم تحمل إلا حلا وهميا لمشاكل السجين، والحواجر التي كانت

تفرق بين الشخصين لم تختفي إطلاقاً. هذا التبادل للرسائل يظهر إضافة إلى ذلك ميزة غريبة نوعاً ما بحيث أنها لا تتباعد في الزمن، في البداية رسائل السيدة الغريبة تبقى دون رد ثم سلسلة من رسائل أحمد تتتالي أمام القارئ، وفي النهاية سكوت، الموت وحده يجيب على آخر الرسائل الباريسية. ينتهي الحوار بمناجاة ذاتية (مونولوج) متشائمة، والإعلان عن الموت قام به شخص ثالث، لتنتهي الرواية. الاقتراب أو بالأحرى الالتحام يبقى مستحيلًا في هذا الطريق المسدود الذي يؤدي إلى الموت.

يبدو مسار أحمد بن مصطفى في الفضاء كتذبذب منتظم بين عالمين متضادين. مسيرته نحو عالم الآخر تتم بعد مجهودات كبيرة وهامة، بواسطة المعارك في الحروب أو عن طريق الصراعات الداخلية، وفي كل الأحوال لا يتم الأمر بصفة طبيعية. يجب اللجوء دائماً إلى العنف أو الإجبار على الانفصال والفرار. التي تنقل الكاهل مع مرور الوقت. إذا كان التقرب ثمرة مجهود فردي، فإن الإبعاد يبدو وكأنه قدر محتوم لا يمكن مواجهته. يسرد أحمد هذا الإحساس بالعجز والحبس ملياً في واحدة من رسائله الأخيرة. " منذ أيام وأنا أعيش مرارة حزن لا يوصف، أحمل على كاهلي سويسرا بأكملها، بجمالها التي لا تنتهي، المفرطة في الطول، المفرطة في العرض، المفرطة في العلو، ينعدم الجمال إلا من سفوحها المغطاة بثلوج ناصعة البياض. آه من هذه المنحدرات التي يتعذر عبورها. وهذه الأسوار التي تغلق منافذ الأفق من كل الجهات... تباعد بيني وبينكم." ¹

هذا "الأنتم" يبقى مبهماً، الشخصية المقصودة لا تظهر جلياً في أي من سلسلة الأحداث الواقعية للرواية ولا ندري بأي طريقة تم التعارف بينهما. إنها صحبة صادقة ومؤثرة في آن واحد، ولكن لا تساهم إلا في تفاقم يأس البطل بحكم تباعد المسافات بينهما. الالتقاء بالآخر يستحيل في فضاء الشمال الأفريقي، ولا يتم حصرياً إلا في العالم العسكري، وفي أي من الأوقات لن يكون في عالم المعمرين أو الفرنسيين في المدن الجزائرية. من الواضح إذاً أن التقارب لا يمكن تصوره مع فرنسيي الجزائر،

¹ BENCHRIF Mohamed, " Ahmed Ben Mostapha, goumier", Edit. Publisud, 1997 pp. 231,232.

ولكن مع أولئك الذين يسكنون فرنسا البلد الأم حصريا. هذا التجريد، الغياب الكلي لعالم المعمرين، يشكل رفضا، أو على الأقل نوعا من الحكم على الاستعمار بالطريقة التي تم بها في الشمال الأفريقي.

يبقى الاحتلال العسكري مقبولا كونه فعلا إيجابيا بالنسبة للشعوب المدنية. هذا ما نستنتجه على الأقل من خطاب أحمد بن مصطفى في الفصل الثالث الذي يوجهه لإخوانه في المغرب والذي يفسر فيه أسباب حملته السلاح ضدهم. خياراته، مساره الروائي، تبرره حتمية العمل من أجل مسالمة المغرب الذي يقوم بها الجيش الفرنسي، أما تستره على الاستعمار المراد من ورائه التوطين، يعني أنه قد حكم عليه بالرفض من خلال الشخصية الرئيسية. هذا التصوير على مستوى الخيال الروائي يقابله واقع تاريخي:

في بداية القرن و في الأراضي الداخلية والجنوب، كثيرة هي القبائل التي فضلت البقاء تحت الإدارة العسكرية بصرامتها، والتي كانت في نظرهم وخلافا للإدارة المدنية للمعمرين أكثر احتراما للعدل وللحقوق. تتم مسيرة البطل في الفضاء، حسب قانون بسيط جدا لا يدع كثيرا من الحرية في الخيارات. عالم الآخر الذي كان يريد التقرب منه، و يريد منه اقتسام أفكاره السامية واستقصاءاته الداخلية، ليس ذلك الذي يوجد بالقرب منه، ولكنه يوجد خلف الضفة الأخرى من البحر الأبيض المتوسط. ومع ذلك، وباجتيازه لهذا البحر، سيتترك بعضا من هويته الطبيعية، من دينه، من قبيلته ومن تقاليدته ومن خلال مساره الروائي لا يتمكن أحمد بن مصطفى من الوصول لموضوع بحثه، لينصرف عنه وينتهي مغامراته في بلد متسم بالبرودة ومنغلق تماما مثل الفشل والموت الذي يترصده.

إن الوصف الوجيز جدا للشخصيات داخل الرواية، والانعدام الشبه كلي للمظاهر البسيكولوجية تمكن وبصعوبة من تقديم فرضيات حول الجدوى منهم والتأثير الحقيقي الذي يمارسونه على مسار القومي. ولدينا كليشيهات سريعة عن هذا أو ذاك النوع من الجنود، عن البدوي المترحل، عن الشيوخ وعن الأجانب، وجوه بسمات غاية

في الضياء، إلى درجة أننا لا نستطيع النظر إليهم كونهم مساهمين بفعالية في أطوار الخيال الروائي. وسواء كانوا معارضين أو مساعدين للبطل في بحثه فإنهم يبدون وكأنهم شخصيات ثانوية جامدة على الورق، وأن أدوارهم قد حُددت مسبقاً ولا تتعدى إطلاقاً حدود منفعتهم الوظيفية.

يُبرز في البداية وبغرابة، أن العدو هو "الأخ في الدين"¹، بمعنى القبائل الرافضة للوجود العسكري الفرنسي في المغرب. ومن خلال حديث له مع المغاربة يرد بن مصطفى بحدة على الانتقادات التي يوجهها هؤلاء لفرنسا. مُجمل هذه الاتهامات تأتي من الألمان الذين يساندون المغاربة ضد أعدائهم والذين يقومون بأي شيء من شأنه المساس بشرف وسمعة الآخر، يترسخ في النص و من البداية تضاد بين فرنسا وألمانيا، الأولى عادلة وسخية تجاه أبنائها والثانية تمثل بلد الشر والظلم والخداع. يوجه البطل كراهيته نحو ألمانيا التي تصبح السبب لجميع مآسيه، وتبعده في النهاية عن موضوع البحث.

ولكن المعارض الحقيقي لبطلنا ومنذ بداية الأحداث هو قومي آخر، بن قويدر الذي يتميز بحسده وغيرته من بن مصطفى، هذا الأخ الحسود سيتقمص بسرعة شخصية معارض لملازم فرنسي عادل، شجاع ونزيه.

"القومي يثق في نزاهة وعدم تحيز الملازم الذي يقوده (...). يُعجب به لمحاسنه التي هي أساس كل شيء بالنسبة لكل عربي: الشجاعة، العدل والنزاهة. تبدو له سفالة ونذالة بن قويدر على أنها شيء حقير، إنه لا يريد معاملة هذا المتعود على دور النساء باحترام، وعند سماعه للكلمات البذيئة التي يوجهها له بن قويدر يهز كتفيه مصرحاً: "خُلقت الكلاب من أجل أن تنبح"².

¹ Dans cette œuvre, on ne trouve pas le terme de « coreligionnaire » pourtant si fréquent dans le vocabulaire de l'époque pour désigner les frères dans la religion musulmane.

² "Ahmed Ben Mostapha, goumier" p.26.

انتقال السمات النيرة والطباع الحسنة ليتميز بها الملازم الفرنسي، في نفس الوقت الذي ينحط فيه الأخ في الدين الذي يُشبهه بالكلاب. بالطبع، لا يُقدم العرب جميعا بهذا المظهر السلبي ولكن بن قويدر يترأى لمرات عديدة خلال تسلسل أحداث الرواية غالبا ما يأتي ليعارض التطلعات والمشاريع التي يريد البطل تحقيقها، وكذا المثل العليا التي ينوي الوصول إليها. بن قويدر هو بمثابة النسخة السلبية نوعا ما لأحمد بن مصطفى. غيور لا يقبل ترقية صاحبه، نذل وخسيس في الأوقات الحساسة من المعارك و معظم وقته يقضيه في محاولة استقطاب إعجاب الضباط الفرنسيين. وعند وصول القوم إلى فرنسا، يبدأ الروائي بوصف للمدن التي مر بها القطار وفي إحدى المحطات تحيي فتاة في مقتبل العمر موكب الجنود بإشارة من يديها، يظن بن قويدر أنه المقصود من بين جميع الركاب بهذه القبلات. فرصة أخرى لتعارض وتضاد الشخصيتين. يغتم بن مصطفى هذا التصرف المهين لغريمه ليقوم بتجسيد السمات السلبية التي يرفضها البطل والتي يدينها عند إخوانه في المعتقد. يبدو أن بن قويدر مثلا للمسلم الذي لم يجلب له التأثير الفرنسي متغيرات إيجابية بل سلبية في أغلبها.

لقد سبق لنا وأن أشرنا إلى انعدام تصوير المجتمع الفرنسي في الجزائر وكذا عالم المعمرين والبرجوازيين داخل المدن. ويبدو من خلال النص أن التقارب بين العالمين يُمُر أساسا عبر العلاقات بين الجنود، بين الضباط الذين يصادفهم البطل في مسيرته. نجد التصرفات المقبولة للفرنسي الطيب كما للفرنسي السيئ. يصنف في هذه الزمرة الثانية ذلك الضابط الذي يلقب البطل "بين كوس كوس"1، يسخر منه دون سبب ليبقى متمسكا بأحكامه المسبقة ولا يريد السماع إليه. ولكن هناك ضابط ثان، صديق قريب من البطل هو ذلك الذي يُحدثه عن تاريخ العرب وعن حضارتهم السامية. كما يتحدث له عن الأسباب التي تقف وراء انحطاطهم.

¹ "Ahmed Ben Mostapha, goumier" p.89.

"إنه اليوم الذي أراد فيه أجدادك مندفعين وراء شغفهم بالحرية الفردية القتال بنفس الطريقة التي قمت بها أمس، وحيدا، وكل لحاله، لقد فقدوا روحهم الجماعية عند معاودتهم لمعاركهم الهوميرية ليتنازلا في النهاية عن شخصيتهم السياسية"¹.

إنها صورة الفرنسي بالشكل الذي نريد أن نرى بها جميع الفرنسيين: متفهم، مهتم بالثقافة العربية والإسلامية، يتكلم لغتنا، لغة العرب كما يحسن السماع ولا يتسم بالكبرياء والعنجهية. إن دور هذا الضابط يبدو مزدوجا فإنه وفي نفس الوقت يقدم مرآة لبن مصطفى. إن انعكاس هذه المرآة يُمكن البطل من التأمل في تاريخ ومغامرات أجداده: نظرة أبوية للعلاقات، إن كان لها وجود، والتي تربط الغالب بالمغلوب. ومع ذلك فإن بن مصطفى يريد إقامة علاقات صادقة والعيش في نطاق محيط فرنسيين من هذا النوع، وخارجيا يتلخص بحثه في اللقاء والاقتراب من الفرنسي الطيب الذي يطابق صورة مفبركة لبحثه الداخلي. يريد دائما استرضاء وتلبية رغبات أصدقائه الفرنسيين مقابل تفهمهم له، ولكنه يبقى وحيدا طيلة مسيرته. تختفي الأوقات النادرة للتفاهم والصدقة مع الفرنسيين بسرعة لتبقى بعيدة المنال دون أن تحمل حلولا حقيقية للتطلعات العميقة في الاقتسام والأخوة للبطل.

بولنوار، الفتى الجزائري:

تندرج الرواية الثانية في المحور نفسه وهي، بولنوار، الشاب الجزائري، لصاحبها رابح وأكلي زناتي² تقدم مسيرة مماثلة بامتياز لتلك التي حملت عنوان أحمد بن مصطفى، قومي، تغلف و عزلة البطل تدريجيا مع تطور أحداث الرواية. يصل الفاصل الزمني بين نشر الروايتين إلى 25 سنة ومع ذلك فإن الروايتين لم تتجحا، أو بالأحرى لم تتمكننا من تخلص شخصيات الرواية من العزلة التي تلقي بثقلها عليهم. تميز هذه العزلة أغلبية أبطال الروايات الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية في

¹ Idem, pp.52-51.

² ZENATI, Rabah et Akli, Bou-El-Nouar, "Le jeune Algérien," La Maison des Livres, 1945.

فترة ما بين الحربين ولكن في الحالتين قيد الدرس، فإنها تتحول إلى العنصر الأساسي للنظرة إلى العالم التي يكشف عنها الخيال الروائي. توقيع الرواية الثانية تم تحت اسم رابح الأب وابنه آكلي ولكن، وكما يبدو، فإن الكتابة تمت من طرف الأب. رابح زناتي، معلم وأديب كان قد ساهم بفعالية في الحياة الفكرية لقسنطينة في فترة ما بين الحربين، مناضل مقتنع بضرورة التقارب ما بين الشعبين، قام بنشر بعض المقالات السياسية بنفس الأفكار الرئيسية التي نجدها في هذه الرواية.¹

مسار بولنوار هو ذاته لآلاف الأطفال المُستعمَرين، الذين سلكوا في يوم من الأيام طريق المدرسة العمومية الفرنسية وبدؤوا في تسلق درجات المعرفة والعلم أملا منهم في الخروج من حياة البؤس والتقرب من تجمُّع الآخر. سواء تعلق الأمر بالطفل الأسود لكمارا ليلي² (Camara Laye) أو ابن الفقير لمولود فرعون³، المدرسة هي دائما مكان اللقاء بالعالم الذي يشد إنتباه الطفل المنحدر من الأهالي، الشغوف بالمعرفة والنجاح. وفي كل مرة يواجه البطل المعوقات نفسها في طريقه، نفس التشنجات وفي غالب الأحيان نفس العزلة التي تدفع به للتخلي عن محيطه الطبيعي. وبحسب الحالات فإنه يُفهم ويعاش هذا الرحيل و هذا الفراق على أنه إبعاد قصري ناتج عن وضعية انسداد أو كمجرد نافذة على العالم الذي كان البحث جاريا عنه والذي كان يصبو إليه منذ زمن بعيد.

"بولنوار" هو الابن الأكبر لعائلة ثرية في قرية عين الروينة في القطاع القسنطيني تشتغل بالفلاحة. يعارض أبوه في بداية الأمر فكرة تعليم ابنه. ولكن شيئا فشيئا وبالاستماع إلى نصائح وإحاحات محيطه يقبل بإرساله إلى المدرسة. مسيرة هذا الأخير بدأت من المدرسة القرآنية بالقرية إلى مقاعد المدرسة الابتدائية، ثم الثانوية

¹ ZENATI Rabah, "Le Problème algérien vu par un indigène ", paris, Comite de l'Afrique française, 1932 , p82

² CAMARA, Laye, "L'Enfant noir," Paris, Les Presses de la Cité, 1967, 256 p.

³ FERAOUN, Mouloud, "Le Fils du Pauvre," Paris, Le Seuil , 1954 , p.130 .

ومن ثم حصوله على شهادة البكالوريا، لينتهي به المسار بجامعة الزيتونة في تونس، تشكل كل مرحلة ابتعادا عن محيطه العائلي حيث يحس بالغربة أكثر فأكثر، ولكن المأساة في كل هذا هي الرفض الذي يقابله به الآخر وعدم استقباله له.

هذا البحث عن الإدماج يتجسد بشدة وبطريقة أكثر مأسوية في علاقاته بالنساء عندما يقرر أبوه الزواج ثانية من امرأة في سن بولنوار، فإن الانسجام الذي طبع العائلة سابقا ينتهي بالانفصام. نقد لاذع لتعدد الزوجات يقوم به الشاب المتخرج من المدرسة الفرنسية، والأم بدورها لم تغفر لزوجها المتسلط اقتترانه بامرأة ثانية. إضافة إلى ذلك، فإن المرأة الجديدة في البيت تلاطف بولنوار وتحاول جاهدة تحويله عن انشغالاته الفكرية لتجذبه نحو اهتمامات جسدية. ممارسة الزواج المتعدد وتجسيده في الواقع يقدم بطريقة سلبية جدا ليشكل عائقا في طريق البطل. ولكن الزواج وبالطريقة التقليدية التي قام بها هو ذلك الزواج المستهدف بالانتقادات اللاذعة من خلال الخيال الروائي. يتحمل بولنوار دون رضاه إرادة أبيه في تزويجه وهو لا زال في طور الدراسة الجامعية بفتاة من قريته. في ليلة عرس غريبة، توجه انتقادات شديدة إلى الأب عبر الخطاب وعبر تصرفات أصحاب الأدوار الرئيسية. "ينظر إليها بولنوار للمرة الأولى (...). إنها تقاسم قدره. لقد كانت عرض تهامي كما كانت عرض بوضياف، بضاعة أريد لها أن تباع وبأعلى الأثمان من دون أن توجه لها كلمة واحدة بخصوص هذا الاقتران الذي تمت الموافقة عليه والمباشرة فيه دون علمها. لقد أحس بالشفقة، ولكنه أصر على قراره في عدم الذهاب بعيدا في هذا الزواج.

هذه المرأة الأولى في حياته، المتحدرة من محيطه الطبيعي، غير قادرة على تلبية طموحاته الفكرية، وانفصال سريع يأتي ليضع نهاية لهذا الزواج القصري. زوجته الثانية، فرنسية، تهجره بسرعة بسبب أحكام مسبقة عن الجنس وعن المعتقد. وبعد منعطفات أليمة: يكون الحب في النهاية هو الأقوى من جميع الأحكام المسبقة، ليلتقي العشيقان في الفصول الأخيرة من الرواية، ولكن بذهنية أن الفضاء الاستعماري في الجزائر لن يكون متسامحا مع العلاقة التي يصبو إليها كل واحد منهما، لذا يفضل

كلاهما اللجوء إلى فرنسا. تماما كما هو الحال في رواية أحمد بن مصطفى، قومي، فإن موضوع بحث البطل ينحصر في الاقتراب من الآخر، وفي الرغبة بالترحيب به والقبول به كما هو.

يمثل مسلك البطل في الفضاء ابتعادا تدريجيا عن محيطه الأصلي، عن مسقط رأسه الذي يتخلى عنه في الأخير. بالنسبة لبولنوار فإن الابتعاد عن البيت الأبوي يبدأ أولا على المستوى الفكري بحيث أن أباه وأمه لا يعرفان كيف يرافقانه في طريق المعرفة ومساعدته في الدراسة. للمدرسة دور مزدوج في هذا النص: فمن خلالها يقوم مجتمع الآخر باجتذاب أو بالأحرى امتصاص البطل من جهة، ومن جهة أخرى فإن الدراسة هي التي تجعل منه المثقف الوحيد، داخل بيت طفولته. من المهم الإشارة أنه طيلة أطوار الرواية فإن الأب هو الذي يعارض رغبة ابنه في مواصلة الدراسة. إن الذين يساعدون الابن في مسعاه هم حراس التقاليد الذين كان أحرى بهم إبقاءه داخل مجتمع الأم. يتعلق الأمر بداية بالقاضي، الحارس وبامتياز للتشريعات الإسلامية، الذي يحرض الأب على تسجيل ابنه في المدرسة القرآنية ومن ثم المدرسة الفرنسية، الثانوية وفي الأخير السماح له بالالتحاق بالجامعة. المساعد المهم في طريقه لاكتساب المعرفة ستكون أمه، التي هي مبدئيا حارسة التقاليد العائلية، التي وعكس كل التوقعات كانت تقف إلى جانب ابنها في شغفه بمواصلة الدراسة. ومن غرائب سخریات القدر، الخيال أو التفاتة لطيفة من الراوي: الشخصيات التي تتقمص دور حماية التقاليد والعرف (القاضي، الأم والعرافة) تتخلف عن واجبها بل بالعكس، إنهم يدفعون به للاصطباغ بثقافة المحتل عند إرساله للمدرسة الفرنسية.

المساعدون الحقيقيون والإيجابيون في المسار الروائي لبولنوار هم الفرنسيون الذين يلتقي بهم ويستقبلونه ليلقنوه العلم والأفكار الغربية بفضل زوجين من المعلمين قدما من بورغون ليستقرا بعين الروينة. أصبحت الفرنسية ترحب بالأطفال المسلمين الذين يرغبون في الالتحاق بها، بعد "الطالب في المدرسة القرآنية أصبح للسيد والسيدة فونتان أول مدرسي البطل الدور الأساسي في نجاحاته المدرسية. هذان الزوجان

يجسدان صورة الفرنسي الطيب الذي يتمنى أن يكونوا جميعهم على شاكلته. من خلالهما، لدينا تصوير مثالي للمعلم اللائكي الذي يضحى من أجل المثل العليا للجمهورية. إنهما متفتحان بنظرة ثاقبة، نزيهان ومتحفظان في آن واحد، ولا يبحثان عن مصالحهما الشخصية، ولكن يعملان من أجل مصلحة الجميع. وفي محيط المدرسة التي يديرانها تتجسد الأخوة والمساواة التي طالما حلم بها الأوروبيون والمسلمون. وتأثيرهما المفيد أحست به القرية ككل، وهنا يحس القارئ من خلال بعض الفصول أن أحسن العوالم قد حل. وكأن عين الروينة تحولت إلى جزيرة للسلم والتفاهم بين ساكنيها على اختلاف مشاربيهم، ويواجه العنف بين التلاميذ بحزم وصرامة وبالخطاب المتعقل الذي يخرج كل الذين لا يقبلون بأفكار المحبة والإخاء.

نجح بولنوار في الحصول على الشهادة الابتدائية في نفس الوقت الذي ينتهي فيه من حفظ القرآن الكريم. وبهذه المناسبة يقيم له والده حفلا كبيرا، يصل التفاهم بين التجمعين ذروة التفاهم والالتقاء. يبدو أن ثمرة جهود الزوج من المعلمين قد تجسد على أرض الواقع وأن الغاية المنشودة قد تحققت. "بنيت خيمة كبيرة تحت أشجار المزرعة. كان على الموائد أن تكون مختلطة، خدمة الفرنسيين قام بها بعض الأهالي على دراية بالحياة الغربية، تم استقبال بقية الضيوف على الطريقة العربية ولكن جميع الضيوف اجتمعوا حول المشوي (...). بعد تلاوة الفاتحة تم استدعاء الطالب "سي الطيب" والزوج المكون من السيد والسيدة فونتان إلى المنصة الشرفية تحت تصفيقات الحاضرين ليحصل كل واحد منهم على جائزة قيمة. فيصعد بولنوار لتقبيل يد الطالب ومصافحة معلميه الفرنسيين، حاول المعلم الطيب الإدلاء بكلمة لكنه لم يستطع، دمعة فرح تدحرجت على خذه. كانت هذه ردة فعله الوحيدة." ¹

هذه الصورة الغزلية من التوافق بين التجمعين تشكل إسقاطا خارجيا، إنجازا فاق كل الطموحات والرغبات المعبر عنها من طرف الشخصية الرئيسية، تبدو هذه الحفلة غريبة، وموقعها في مجمل النص يعد إشكالية نوعا ما بحيث وبغض النظر عن

¹ ZENATI Rabah et Akli, Bou-El-Nouar, "Le jeune algérien," la maison des livres, 1945, pp. 88-89.

بعض الاستثناءات، فإننا لا نعرف أدنى شيء عن الشخصيات التي يتكون منها المجلس، ليختفوا بنفس السرعة التي دخلوا بها ممثلون بأدوار ثانوية. لقد اقتصر دور هؤلاء الضيوف على رسم الخطوط العريضة للغاية محل بحث البطل. إضافة إلى ذلك فلقد تبين وبسرعة أن هذه الصورة مجرد سراب عابر بالنسبة للبطل كما للقارئ. المسار الروائي لبولنوار يُظهر إذن ميزة غير منقطعة للتقارب ثم الابتعاد بالنسبة لهذا السراب الذي يبدو مستحيل المنال.

وصول القروي الصغير العربي إلى الثانوية الفرنسية في المدينة يتطلب ظهور مساعد جديد، إذ يجده في شخص أستاذ الفلسفة السيد دورتن (Mr Durtin) الذي وصل من فرنسا منذ وقت قصير، وعلى ما يبدو فإن الفرنسيين الإيجابيين الذين يتراءون في هذه الرواية كما في (أحمد بن مصطفى، قومي) يأتون دائما من فرنسا، ولا ينحدرون أبدا من فرنسي الجزائر. فبغض النظر عن بعض الخطوط العريضة لرفقاء القسم، بعض المناوشات والشجارات الطلابية مع أبناء المعمرين، لا نجد في الرواية تجسيدا حقيقيا لذلك النموذج الذي يقدمه الفرنسي في الجزائر، يترجم غياب هذا النوع من الشخصيات من الرواية الإخراج الذي تسببه مجابتهم، كما لو أن الروائيين غير قادرين على تقديمهم، أو كما لو أن منعا يتعلق بإخراجهم لا يجرؤ أحد على انتهاكه، واحدة من أكبر التناقضات التي تقع فيها الشخصية المركزية تكمن في كونه يتصرف، يفكر ويعيش تماما مثل الغربيين ولكن بخلاف الإطار المدرسي، لم تكن له علاقة يومية وعميقة مع هؤلاء الرجال وهاته النساء الذين يراد التشبه بهم. على كل حال، إن الفرنسيين القادمين من فرنسا يستخدمون كمساعدين له في بحثه عن المعرفة ويفتحون أمام أعينه وبانتظام أفاقا جديدة.

يظهر البحث العلمي والمعرفي لبولنوار تذبذبا منتظما بين العالمين، ينتمي مساعده إلى الضفتين ويتوجه بالحديث لكليهما تباعا. ولأنه كان يحس بعدم قدرته مواجهة النخبة الإسلامية المثقفة بسبب تكوينه الفرنسي بالدرجة الأولى، يقرر الذهاب إلى تونس للحصول على شهادة من جامعة الزيتونة. وحتى وإن كان تفكيره قد هيمنت

عليه الأفكار الغربية إلا أن مشروعه العمل من أجل إسعاد والنهوض ب"الشعب الجزائري" كان لزاما عليه معرفة وفهم الفلسفة، الديانة والتاريخ الإسلامي. في تونس لم يجلب انتباهه أساتذة الزيتونة ولكن شيخ هرم، مفتي في المعاش، والد صديقه شاذلي، يدخله إلى غرائب الفلسفة الإسلامية. حكم قاس نوعا ما يوجه للتعليم التقليدي في الجامعة التونسية، الذي يعبر عنه عبر الخطاب من جهة، ولكن بواسطة توجيه اهتمام البطل الذي يتحول بسرعة عن الدروس والبرامج الإجبارية.

يجد البطل نفسه ما بين قاض عين الروينة والزوجين فونتان، ثم ما بين السيد دورتان وأب صديقه شاذلي في تونس في بحث عن تناسق بين مختلف الأيديولوجيات، تتراكم في رأسه الفلسفة والدين والثقافة والتقاليد، التاريخ والسياسة، ليتسع بحثه أكثر فأكثر حتى يصل أبعادا موسوعية. وهنا يتابع القارئ مختلف مراحل التنازل عن الموروثات التي تؤدي بالشخصية الأساسية إلى هجران الفضاء الجزائري نحو المنفى في مسلك الإبعاد هذا. ويأخذ طرد زوجته زينة دلالة رمزية في هذا الوقت بالذات. لم يكن بولنوار راضيا عن هذا الزواج التقليدي، وبقيت زوجته غير قادرة على مسايرته في بحثه الفكري، في الواقع كان لزينة وزواجه منها أن يبقى البطل في الفضاء القروي حيث يعيش والداه. لقد فشلت في أداء هذه الوظائف ليصاب الأب والأم بالإحباط، وقطع أواصر هذا الزواج شكلت فشلا على مستويات عدة.

فشل الوالدين في محاولتهم إبقاء ابنهم داخل البيت، فشل زينة، الزوجة الشابة لتعود في الأخير إلى والدها، ثم فشل الزوج الذي يبتعد نهائيا عن البيت العائلي. تتحد الخطوط العريضة للتنازل عن الموروث مع تجسد رفض المجتمع الأصلي.

"كان يحس أكثر فأكثر بالغرابة تجاه أسرته، ولا أحد يهتم بما يفكر أو يفعل. لخص ابوه الموقف ذات يوم مخاطبا أمه (...) ابننا لم يعد واحدا منا، وهذه هي النتيجة الغربية للأسف لكل ما فعلته من أجله".¹

ليختم الراوي:

¹ Bou-El-Nouar, "Le jeune algérien," p. 180.

"ذهب بولنوار في رحلة البحث عن سعادة الشعب الجزائري دون أن يفكر في

إسعاد نفسه وذويه"¹.

ومرة أخرى أولئك الذين كان عليهم مبدئياً إبقاء البطل في عالمه التقليدي، أولئك الذين يفترض فيهم مساعدته في الاحتفاظ بهويته الأولى، لا يؤدون أدوارهم ويفشلون في إنجاز واجباتهم. "الهوية المضطربة"² تبعد الشخصية عن أقرانها وتدفع بها نحو الآخرين في بحث، يبرر خارجياً بمحاولة إيجاد حلول لمعضلات الشعب الجزائري، ولكن داخلياً، تبقى يده ممدودة نحو الرغبة في الالتقاء بالآخر.

تقطب وجه الراوي يعبر بوضوح عن الالتباس الذي يكتنف البحث عن سعادة الشعب على حساب العائلة التي هي في الواقع النواة المكونة للمجتمع. نعيش مع هذا البطل نوعاً من "الخلع المزدوج" تقريباً. خلع المرأة من طرف زوجها الذي كان يريد الرحيل، وخلع الابن من طرف والده الذي لم يعد يعترف به بوصفه فرداً من العائلة. تتسارع الأحداث والسنوات الثلاثة التي قضاها في تونس، ولا تستحق أكثر من نصف فصل. وعند نهاية الرواية، لا توضح أفعال لتروى بصفة مقتضبة فقط، وعلى النقيض من ذلك يتوسع الخطاب حول الأفكار وهنا يحق للقارئ في سرد مطول لنظريات الإدماج، إمكانياتها ومعوقاتهما.

وابتداءً من هذا الخلع، بقي بولنوار يتخبط بين عالمين وبدأت العزلة تثقل كاهله. يتجسد اقترابه من مجتمع الآخر من خلال سفره إلى (بورغون) عند أستاذ الفلسفة القديم السيد دورتين ثم اللقاء والزواج السريع بفتاة من هناك التي حملت اسم **Georgette** "جورجيت". يتم تقديم أبوة السيد "دورتان" على أنها مثال للتفاهم التام ما بين العالمين، ولكن الزواج المختلط لا يدوم طويلاً بحيث أن "جورجيت" بطهارتها وبراعتها في "بورغون" ما فتئت أن تأثرت بالنظريات حول الأحكام المسبقة المتعلقة

¹ Idem, p. 181.

² Cf. l'article de DJEGHLOUL, Abdelkader, un romancier de l'identité perturbée et de l'assimilation impossible, Chukri Khodja, in Revue de l'occident Musulman et de la Méditerranée, "Le Maghreb dans l'imaginaire français", CRESM collection « Maghreb contemporain », Edisud, 1986.

بالأجناس، ومنذ الوهلة الأولى التي استقرت فيها مع زوجها في الجزائر. وكأن الفضاء الجزائري يفسد ما لم يكن وسخا في بورغون الأسطورية. فضاء أسطوري بحيث من هنا جاء كل الفرنسيين الإيجابيين للنص، الزوجان "فونتان"، السيد "دورتان" و"جورجيت"، وبرغم حسن نية هؤلاء لم تتمكن الشخصية الرئيسية من تجسيد حلمها. الزواج، صورة الإدماج الناجح ينتهي بالانفصام سريعا في داخل الفضاء الجزائري ويبقى موضوع البحث بعيد المنال ولا يمكن للبطل إلا البكاء والتحسر على حظه التعس.

"لقد أردت أن أعطي لحياتي معنى وشكلا محددًا (...). كان مستقبلي يبدو بطهارة نجم الصباح. كان يبدو في منأى عن كل ما يفسد وفي الوقت الذي مددت فيه ذراعي للعناق الرفيع لم تتعلق يدي إلا بنطاق متنسل لحقيقة فظيعة."¹

عند نهاية الرواية. قوة الحب تجمع ثانية العشيقين، وهنا يتم التعبير بوضوح عن استحالة الوصول إلى السعادة في الجزائر، لذا يجب الرحيل نحو بلد بعيد أسطوري كما هي عليه فرنسا، أو أكثر من ذلك بلاد البورغون. لا يمكن لبولنوار أن يصير بولنوار (كرة سوداء) إلا عند هجرانه لبلده، ولجنوره ومن ثم لثقافته: يستحيل تجنب الانقطاع، والتنازل عن الموروث، لا يشك القارئ الفطن إطلاقا في فشل موضوع البحث، بحيث أن أحداث الرواية تنتهي بسعادة مفترضة وبعيدة المنال، وفي كل الأحوال فإن البطل يكرس حياته للعزلة والتوحد. إذا بقي في الجزائر فإن زوجته ستهجره وإذا رافقها إلى فرنسا فإنه يجبر على التنازل عن مشاريعه، عن مبادئه وعن شعبه الذي كان يريد إسعاده والذي من أجله درس كثيرا وناضل طويلا. المسار الروائي لأحمد بن مصطفى ينتهي بالعزلة ثم الموت في بلد غريب. وكذا بالنسبة لبولنوار فلا يبدو الأمر مشجعا بالنسبة له أيضا. فإن لم يصل إلى حد الموت ماديا، فإن المنفى الذي يتفتح أمامه يرادف معناه موتا فكريا ومعنويا. فالانعزال سيكون بدوره

¹ Bou-El-Nouar, "Le jeune algérien", p. 208.

مأساويًا والموت محتما كما بالنسبة لبطل أول رواية في الأدب الجزائري باللغة
الفرنسية.

المبحث الثاني

مسالك الضياع وطريق الجنون:أ- زهرة زوجة عامل المنجم.

خلافًا لكل روايات مدونتنا، فإن الشخصية الرئيسية في قصة زهرة، زوجة عامل المنجم ليست هي نفسها التي تتصدر عنوان الكتاب. زهرة وإن كانت أول بطلنة في الأدب الجزائري باللغة الفرنسية، فإنها تضمحل وتتلاشى أمام زوجها، يطابق مسارها تمامًا حقيقة وضعية المرأة في المجتمع الجزائري في بداية القرن العشرين. كنا قد تعودنا في الأعمال التي درسناها سابقًا على أن الذي يمنح اسمه لعنوان الرواية هو نفسه الذي يشكل النواة التي تدور حولها الأحداث، ودراسة المسار الروائي يكون أساسًا لمسلكه الذي يكتمل من خلال المجال الخيالي. نلاحظ هنا رسماً للأدوار ضمن المخطط العاملي (Schéma actantiel) أكثر تعقيداً حيث يقسم العديد من مؤدي الأدوار الواجهة وحيث يصعب تحديد الشخصية الرئيسية بوضوح.

تلعب كل هذه الشخصيات أدوارها في مدينة مليانة حيث يأتي للاختلاط بهم عمال قادمون من آفاق مختلفة من الجزائر وحوض البحر الأبيض المتوسط: عرب، قبائل، ميزابيون، يهود، إيطاليون، مالطيون، أسبان، فرنسيون وسكان مليانة الأصليون يتعايش هؤلاء جميعاً في فضاء بحسب أطروحة الروائي قد يمكن ويمكن من احتمالات تحقيق الإدماج. إن المنجم، المكان المشترك للعمل، حيث تلتقي مختلف المجموعات البشرية، التي تصبح بذلك ذات سلطة توحيد فئوية بالرغم أن المراتب الشهرية تتفاوت والمعاملات تختلف.

يطمح الفضاء الخيالي من خلال الرسم الروائي، إلى إدماج ناجح، ويريد تصويراً للمساواة والإخاء بين مختلف التجمعات الحاضرة. وبواسطة الشخصيات التي تؤدي أدوارها في هذا الفضاء، ومن خلال وجود هذا الفضاء تحديداً يريد الروائي تمرير رسالة النجاح، ولكن مساراتهم وخطاباتهم المضمرة تأتي لتناقض هذا الطرح.

إذا درسنا تصرفات الشخصيات داخل المدينة فإننا نصل إلى القناعة بأنها لا تملك سلطة التوحيد فحسب، وإنما مفسدة ومؤدية إلى طريق الجنون بوجه خاص. هذه الملاحظة تتراءى بالنسبة لحالات ممثلي الضفتين، سواء أكانوا من أصول مسلمة أو

كانوا مسيحيين. في مدينة مليانة يجد أبطال الرواية أنفسهم وقد ساروا في طريق الخسة والتخفيض من القيمة. وهذا ما سنحاول توضيحه بدراستنا للزوجين المسلم ملياني وزوجته زهرة والمسيحي قريمسي وزوجته تيريزا، يعمل الرجلان معا في المنجم وصادقتهما تؤدي بهما سريعا إلى اقتسام أوقات الفراغ في المقاهي وحول موائد المشروبات الكحولية. المرأتان لا تعرفان بعضيهما ولكن يكون لعلاقة أزواجهما نتائج وآثار على حياتهما الزوجية على التوالي ويمكننا استخراج أوجه التشابه في مسيرتهما.

- زهرة: صورة للمرأة العربية المثالية، إنها تعيش داخل بيتها، ودورها يكمن في إبقاء زوجها داخل التجمع الأصلي. من جهة المسلم، إن الذي يمثل أطروحة الإدماج هو ملياني الذي يتصادق مع الأوربيين، ممثلين في شخص "قريمسي"، وحيث أن مساره يشابه مسار الأبطال السابقين. إنه أيضا ابن قايد، وحفيد أغا، ولكنه لم يتبع نهج أجداده. مرحلة الاستعمار كان لها تأثير سلبي وقاتل على وضعية هذه العائلة. بالفعل، هذا الذي ينحدر من عائلة موظفين كبار في القضاء الإسلامي، يعيش في بساطة كبيرة ويعمل كمنجمي من أجل سد حاجياته وحاجيات زوجته.

إذ كان موضوع التعليم وبالتالي موضوع البحث الفكري يشغل مكانه ويفتح المجال أمام مقاطع طويلة من الاستدلال في الروايتين السابقتين، هنا الأمر يختلف وهذا العنصر مع أهميته من وجهة نظر الإدماج لا يظهر في هذا العمل. إن الذين يقفون على مسرح الأحداث ليسوا هم الشبان المثقفين بالفرنسية ولكن جمهور العمال أو الأحرى جمهور المنجميين. موضوع بحث ملياني بسيط جدا، يمكننا القول بأنه مُبتذل وتافه، وفي كل الأحوال لا يتم البحث عنه بوعي كما في الحالات السابقة. في عالم المنجميين هذا لمدينة مليانة الذي يحاول التشبه وبغرابة بعالم "جرمينال".

الرغبة المُصرح بها لأصحاب الأدوار الرئيسية هو عالم أكثر عدلا حيث المساواة والإخاء تكون أساس التعايش بين مختلف الشعوب. يتم التعبير عن أطروحة التعايش في أكثر الأحيان بحوارات. "أوه! أوه! رد بسرعة الفرنسي، العربي يساوي

أي رجل آخر، إننا نتشابه جميعا يا صديقي ! يجب أن تكون متدينا لكي تمقت من دون سبب رجلا بتقاليد تختلف عن تلك التي تدافع عنها. هذا صحيح ! استرسل قريمسي مؤكدا. يهود عرب، إيطاليون، فرنسيون، كل الرجال متشابهون، كلهم متساوون ! بالطبع، وافق مسلم من أصل ملياني، نحن كلنا من طين، أبونا جميعا هو آدم ونشترك في أم واحدة هي حواء " 1

ومع ذلك فإن المسار الروائي لملياني يأتي ليؤكد هذه النظرة الغربية للمساواة بين مختلف الشعوب الحاضرة، إن الظلم والتصرفات الجائرة بقيت تميز العالم الذي يعيش فيه، ليس هذا فحسب، بل نحضر لحدوث انتقاص في قيم البطل عند ملامسته لعالم المحتل وهذا ما يتناقض مع الإدماج بصفته تطورا مفيدا، على مستوى الخطاب الأيديولوجي، يقدم هذا الاختلاط بين الشعوب بصورة إيجابية ولكن على مستوى النص القصصي يكون له تأثير سلبي على مسار مختلف الشخصيات. صداقة ملياني و"قريمسي" كان لها أن تكون مثلا للتعايش الأخوي في سبيل خدمة قضية التقارب ما بين مختلف التجمعات و الرفع من الأوضاع الاجتماعية لمختلف الشخصيات. لا شيء من هذا يحدث، وهذه العلاقة تنتهي بجر ملياني إلى طريق الانحراف والفسق والفجور، الذي يتزامن مع فقدانه لهويته. في بداية الرواية، يُقدم ملياني على أنه رجل شريف ونزيه، مسلم طيب يحترم تعاليم دينه وتقاليدهِ ويعيش في تناسق وانسجام مع زوجته، أي مع محيطه الأصلي.

"كان ملياني رقيقا، طيبا وفاضلا، جعلت منه طباعه الجدية رجلا يحظى باحترام جميع من يقتربون منه وهكذا فإنهم لم يكونوا يدعونه ملياني فقط، وإنما "سي ملياني" كان يتكلم بهدوء، دون أن يرفع صوته الذي كان خفيضا وغير مصحوب بالإيماءات و التشويرات، ومن دون أن يغضب أبداً. 2

¹ Zohra, "la femme du mineur", p. 70.

² Zohra, "la femme du mineur," p.10.

بناء على الوصف المبدئي، فإن الزوجين ملياني وزهرة يكوّنان أسرة فقيرة ماديا ربما، ولكن غزلية وهادئة في بساطتها. هذه الوضعية الأولية المتناسقة ستتنفصم مع ظهور قريمسي، الإيطالي الذي سيجر ملياني نحو دروب الإدمان على الكحول. ومرة أخرى ولوج الآخر في العالم الفقير ولكن المتناسق للرجل المنحدر من الأهالي، يأخذ رمز القاطرة التي تخرق المنظر الطبيعي. القطار والراكب قريمسي يُولدان نفس التطور، الأول أحدث خلا في المنظر الطبيعي الهادئ والمتناسق للغابات والحدائق التي تحاذي المدينة، والآخر أحدث خلا في حياة الزوجين المنحدرين من الأهالي. هذا الاضطراب ينحدر عنه بالنسبة لملياني انحطاط ثم فقدان لهويته، ومنها الاضمحلال الذي ينتهي بالموت. ملياني هو البطل السلبي الذي يعطي بمساره الروائي مثلا للاشمزاز والنفور بالنسبة للقارئ، يحذر من مخاطر "الحضارة". العلاقة بين ملياني الاسم الذي يحمله البطل والفضاء الذي يتزعرع فيه، مدينة مليانة يأخذ مدلولاً عن البعد الرمزي الذي تحمله الشخصية. بطل باسم يمكن أن يحمله كل ساكن لمليانة، الخطوط المميزة للشخصية وفشل مسارها يأخذ دلالات لكل المجتمع داخل المدينة الاستعمارية الصغيرة.

صفات (المتحضر والمتعصب) تستعمل في الرواية بمعنى خاص، نوعا ما يستحق أن ننظر إليه بدقة في الرواية، متعصب هو الذي يتمسك بدينه، المسلم الذي يواصل في أداء صلواته ويرفض الاستسلام للإدمان على الكحوليات. بالمقابل المتحضر هو المسلم الذي لا يعاشر الأوروبيين فحسب ولكن يتناول الخمور معهم ولا يرفض الكحوليات ويتنازل شيئا فشيئا عن تعاليم دينه. في هذا العالم المادي، يوضع ملياني على طريق يدفع به نحو هاويته.

" حاول ملياني من ثم مقاومة إغراء شرب الخمر. مقت المدمنين (..) كراهية المسلمين الفاسدين الذين يظنون أنهم في الطريق الصحيح، الذين يظنون أن حضارة

فرنسا هي الإدمان على الخمر وارتداد دور الدعارة (...). حدث يوما ورغما عنه،
وللمرة الأولى في حياته، أن قرب كأسا من شفثيه"¹

العنصران السلبيان اللذان سبقت الإشارة إليهما يأتیان من عالم الآخر فيصادفهما
البطل في مساره. الإدمان على الكحول الذي يجره إليه قريمسي، وعلاقة الزنا التي
تربطه بزوجة هذا الأخير تيريزا الفرنسية. ينحصر إدماجه في مجتمع المحتل في
ارتداد المقاهي، استهلاك المشروبات الكحولية والتنازل عن أداء الصلاة، عن القيام
بعمله بانتظام وعن معاشره زوجته، وفي هذه الهاوية من الفساد، لا تستطيع زوجته ولا
محيطه الأصلي ولا حتى الديانة من الإمساك به وإنقاذه من السقوط أكثر فأكثر. وكما
هو الحال لبولنوار، فإن الشخصيات التي من شأنها تقوية الهوية الأولى لا تؤدي
أدوارها وتقف عاجزة تنظر إليه وهو يهوي في المنحدر. الطلاق الذي تصر عليه
زوجته، ثم موتها حسرة، ثم مدة طويلة وراء القضبان تغير من تصرف ملياني الذي
يفضل الاغتراب عند نهاية الرواية، في المغرب ليعود إلى سابق عهده بالإسلام تطبيقا
واحتراما لتعاليمه ومؤدبا للصلوات في أوقاتها. هذا المسار السلبي يتناقض والخطاب
الإيجابي حول التعايش السلمي بين مختلف الشعوب ويعطي بيانا لآثار النحس والشؤم
للأوروبيين على السكان المحليين.

بينما يسقط ملياني في الرذيلة، تبقى زوجته متعلقة وبشدة بتقاليدها وديانة
أجدادها. زهرة هي البطل الإيجابي الحقيقي في الخيال الروائي التي لا تفقد شيئا من
براءتها ومن طهارتها الأصلية، وهذا بالرغم ما تعرفه من عذاب وموت. يمكن
تلخيص بحثها باختصار شديد في تمسكها بالهناء والسلم والحب العائلي وبتعلقها بدينها
في شكله التقليدي، أي مع كل الاعتقادات التي تتصل بالأولياء الصالحين والمرابطين.
وعنوان الرواية والمكانة التي تشغلها زهرة في القصة لا تدع أي تردد أمام مشروع
الكاتب في مجابهة قضية الإدماج، المسار الروائي الذي صدر بحقه حكم وتم تقديمه
إيجابيا هو مسار زهرة وليس مسار زوجها. تصرف هذه البطلة يتطابق حرفيا مع

¹ Zohra, " la femme du mineur "p.23.

المقاومة السلمية التي تُعرف أيضا بالمقاومة الرفض، التي ميزت المفكرين المسلمين والغالبية القصوى للسكان في النصف الثاني من القرن العشرين والتي أخذت في الأفول والاختفاء خلال العشرينيات من نفس القرن لصالح المقاومة/الحوار.¹

يمكن تلخيص مأساة زهرة في الأسطر التالية.

"كانت زهرة مريضة، كانت زهرة تتألم، كانت زهرة تصارع الموت ولولا وجود قريمتي في المناجم لكان من الممكن أن يجد ملياني السعادة مع زوجته: عوض أن يفقد رشده وصوابه في الكحول، كان من الممكن أن يستمر في طهارته بذهابه لمرات عديدة في اليوم إلى المسجد. هل كان هذا قدرا؟ ... "2

زهرة صورة ورمز للجزائر المتألّمة؟ بإمكاننا الإجابة بنعم، بحيث أن المصيبة التي ألمت بالزوجين ملياني وزهرة جاءت من وجود شخص ثالث، وجود هذا "الأخر" في فضاء مدينة مليانة، حيث كل شيء كان يبدو مثاليا قبل مجيئه. وما هو مأساوي في هذا الوضع هو أن الحوار ومحاولة الإدماج لملياني لم توصلانه إلى طريق الفساد وإلى فقدان هويته فحسب بل وحتى سعادته. وأن المقاومة السلمية لزهرة أودت بها إلى الموت. ومرة أخرى،، نصطدم باستحالة الإدماج وبالمأساة عند محاولة تحقيقه على مستوى القصة وعلى مستوى المسارات الروائية.

تتقاسم الزهرة وتيريزا وضعا متشابها داخل القصة، كلتا المرأتين تتألمان بسبب خيبات وفشل زوجيهما. بالنسبة للأولى فإن اللقاء بالآخر وإغراء الخمر هما المتسببان الرئيسيان في إبعاد زوجها عنها. أما الثانية فالخيانة الزوجية لقريمتي هي السبب في كل مصائبها. ولكن الفرق الأساسي بينهما. والراوي لا ينسى أن يلمح إلى ذلك بوضوح، هو أن زهرة تتألم بإذعان وصبر دون التخلي عن كرامتها وتعهداتها، أما "تيريزا" فتنثور، وتقاوم بوسائل يدينها الراوي، وذلك من أجل استعادة زوجها، في

¹ Cf, DJEGHLOUL, Abdelkader, "la Formation des Intellectuels Algériens Modernes 1880-1930, in Lettrés intellectuels, et militants en Algérie 1880-1950," Alger, O.P.U, 1988.

² "Zohra", p.195.

وضع متشابه، زهرة تواصل مسارا يوصف بالإيجابي، بينما نظيرتها الفرنسية "تيريزا"، تأخذ مسلكا وُصف بالسلبى. إن أفعال هذه الأخيرة وصلت إلى حد جر ملياني إلى الزنا، مما زاد من تخليه عن موروته الثقافي والديني من جهة، ومن آلام زهرة من جهة ثانية. إن "تيريزا"، بهذا لا تجسد الفرنسي الطيب، التعليق الذي يصدر بشأنها من طرف أحمد الصغير، بعد قراءة إدانتها وملياني في الجريدة، يوضح هذه النقطة.

"أه!... كم أن الله عادل! يا ابني! هتف الإسكافي الحكيم متعجبا.

الفرنسيون كذلك يا أبي!... لقد أدانو الإسبانية أيضا، كما ترى!"¹

لا يتطابق مسار تيريزا مع ما يمكن أن ننتظره من فرنسية حقيقية، برغم أمها الفرنسية ستبقى "إسبانية"، بنت منحدره من مجتمع أوروبي يعيش بالجزائر، مجتمع لا نجد له تمثيلا إيجابيا في الروايات التي تتألف منها مدونتنا، هنا أو هناك، يبقى الفرنسي الطيب بعيدا ويأتي دائما من فرنسا. إنها أسطورة لا تتحمل عناء التمثيل الروائي على وجه الخصوص. هذا النوع من الشخصيات يبقى بعيدا دوما ولا يظهر إلا ليختفي في حينه. ولا يشغل عموما أي وظيفة في البناء الروائي، إنه هنا من أجل توضيح الأقوال المصرح بها على المستوى الاستدلالي. في كل الأحوال لا يمكنه الحصول على أهمية كافية على مستوى القصة حتى نتمكن من اعتباره مساعدا في البحث على الإدماج الناجح. لقد احتفظنا بمثالين لهاتين الشخصيتين التي تشكل "اللوحة الخلفية" والتي لا تظهر إلا لتوضيح إمكانية التفاهم والمساواة بين الشعبين. بعد شجار ملياني و"قرمسي" ينتهي بتبادل للكلمات، لدينا وصف لردود أفعال المحيط.

"سقط الإيطالي على قفاه، روزات اختفت، حضر الناس، بقي ملياني هنا، يتلقى

الشتائم والتهديدات، أقر الإيطاليون وبعض الأوربيين أن الضربة وجهت إلى الكنسية

¹ "Zohra", p.215.

المسيحية نفسها، الكاهن الذي مر من هنا وعلم بما حدث تمكن من تعقيل ملياني ليختفي بعدها"¹

عارض مجموع المحيط فوراً ذلك الذي كان يريد أن يندمج في عالم الأوروبيين. ولكن الكاهن وبمجرد ظهوره في القصة، يأتي ليعقل وبالتالي المساهمة في الخطاب حول إمكانية الإدماج. الكاهن، باختلافه الظاهر جلياً ليوضح ما كان ممكناً. ولكن هذه إمكانية تختفي بسرعة مع اختفائه، والمثال الثاني الذي احتفظنا به، أكثر دلالة على ما يبدو، لأنه يوحي بأن أناساً مثل قريمتي يمكنهم الاختفاء ليحل محلهم فرنسيون طيبون فعلاً.

"نزل من القاطرة التي قادها طوال النهار، لقد أنهى ساعات عمله، ليحل مكانه رجل طيب، أب لعائلة من أصول فرنسية، رجل محبوب من طرف مسؤوليه، لا يخالط أحداً. ويصر على عدم ارتياد المقاهي برغم سخريته أصدقائه الغيورين منه على ما يبدو..."²

ولكن أشباهه يبقون بأعداد كبيرة، ليبقى موضوع بحث ملياني بعيد المنال. بغوصه في الخمر، يفقد هويته الأولى من دون أن يتمكن من الوصول إلى فضاء الآخر. ليتخلى عنه أهله ويدخل عالم الرذيلة لينتهي به المطاف في السجن. المنفى الذي يختاره عند نهاية الرواية هو دليل على فشل هذا المسار الروائي.

بيد أن مسيرة زهرة تنتهي بالموت، إلا أن مسارها هو الذي يحكم عليه ضمناً بالإيجابية، لقد فشلت في مسعاها في إبقاء زوجها في فضاء الذات، ولكنها تحتفظ بكرامتها وهويتها.

ب- العلاج أسير البرابرة:

يشكل الكتاب الثاني من حيث الظهور (1929) لشكري خوجة، "العلاج أسير البرابرة" أصالة في الإنتاج الروائي للمرحلة، فمن بين الروايات

¹ Idem, p.65

² "Zohra", p.170.

المدروسة، تبقى هي الوحيدة التي لا تجري أحداثها في الجزائر المُستعمرة للقرن العشرين، ولكنها تنقل إلى القرن السادس عشر ومن وجهة نظر فضائية، تبقى العقدة الروائية في الجزائر العاصمة ولكن في مرحلة القراصنة. وهكذا فإن معطيات مشكلة الإدماج تقدم بصورة معكوسة.

يقع مسيحي فرنسي أسيرا لدى قراصنة الجزائر، ومن خلال مساره، يجد نفسه في مواجهة مشكل تغيير الديانة، إنها الرواية الوحيدة بحيث أن مشكلة الديانة والتخلي عنها لصالح ديانة الآخر تشغل المكان المركزي للعقدة، وحيث أن الردة تضحل في الخيال، وفي الأعمال الأخرى لمدونتنا، لا نجد تجريما مباشرا للانتماء الديني، فمن وجهة نظر إيديولوجية لا نغير اهتماما لكون الشخص مسيحيا أو ملحدا حتى يسير في طريق الإدماج. يعامل "ملياني" على أنه مسيحي من طرف زوجته وكل أولئك الذين يدينونه بسبب تصرفاته وعيسته المنافية للأخلاق والقيم، ولكن الأمر يتعلق بتسمية محقرة من طرف أولئك الذين يُسدون الأحكام وليست نتيجة الرغبة الإرادية للشخصية الرئيسية في تغيير دينها. وعلى النقيض من الأعمال الأخرى في المدونة نجد في هذه الرواية الأولى لشكري خوجة، أنه يتحدث بكثير من الحرية على التضادات والاختلافات الموجودة بين العالمين الإسلامي والمسيحي. تعود هذه الحرية أساسا إلى نقل أحداث القصة في الزمن وتغيير النظرة إلى إشكالية الإدماج.

المسار الروائي "البرنارد لوديو" (Bernard Ledieux) هذا العبد الفرنسي الذي يقع أسيرا لدى قراصنة الجزائر في القرن السادس عشر، مأساوي تماما مثل مسار كل أبطال مدونتنا، وعلى العكس من هؤلاء جميعا، فإن برنارد لوديو أقل حرية في تحركاته، أو على الأقل أن موقعه في الأسر يبدو جليا على الحالات السابقة، تُصور جزائر البربر على أنها أماكن متوحشة وخالية من القوانين حيث يقبع السجناء في بؤس شديد ودون الأمل في الحصول على الحرية من جديد، بطل الرواية عبد في عائلة تركية ميسورة الحال عندما تقع ابنة سيده في حبه، يجازف الأول بحياته و ببساطة،

بينما تتلاعب الثانية بشرفها وشرف عائلتها. وفي هذه الوضعية الحرجة، يبقى الأفق الأساسي للوديو هو تعطشه للحرية وبحثه يبقى منحصرا في الخطة التي تعيده إلى أهله وذويه في أوروبا. وبينما لا يستطيع ملء هذا الفراغ وتخطي هذا النقص يختار أن يتجاوز نقائص أخرى: توفير الأمن الجسدي لشخصه والحصول على ميزات مادية أحسن التي يتمكن منها مباشرة بشرط أن يرضخ لقواعد اللعبة التي تملئها عليه عائلته الجديدة التي تبنته، يقبل اقتراح والد الفتاة الشابة، سماعيل الحاج: إعتناقه الإسلام ومن ثم الزواج من إبنته، وهكذا فإن الإشاعات التي بالامكان المساس بشرف العائلة تنمحي وتضمحل وليتمكن "لوديو" من إستعادة بعض من حريته في الحركة والتنقل.

"وهكذا ستجعل من نفسك مسلما ولعلمك فإنك عندما تصير مسلما ستستعيد حريتك، من دون قيد أو إمارة مميزة، ستعمل، ستفعل ما تشاء، ستصبح مساويا لي في النهاية.

- بابا حاجي، إنه من الصعب التحول عن ديني الأصلي، عندنا المرشد منبوذ، كما هو الحال عندكم... سأرى، سأرى "1.

- بهذا الحل السهل، يتمكن "لوديو" التخلص من وضعيته الحقيرة كعبد و من تجاوز النقص على المستوى المادي والجسدي، موضوع بحثه الحقيقي خصوصا ، الحرية في الحركة، تتواجد في الواقع في مستوى داخلي، وبدل التقرب يجد نفسه يبتعد أكثر عن هذا الهدف. هذه الوجهة الخاطئة وهذا الحل السطحي قد يزيد من رغبته الشديدة في العودة إلى أوروبا، عالمه الخاص. مثل "ملياني" لا يندمج في عالم الآخر إلا على مستوى سطحي، مستوى الاستهلاك و الأغراض المادية. هذا التقارب الخارجي لا يتبعه تغير داخلي صادق، "لوديو" الذي يتجاوز مرحلة حاسمة في تنكره لدينه لصالح ديانة أخرى، إذ يتخلى عنه سريعا أصدقاؤه المسيحيون، كما هو الحال دائما، فإن الردة يتبعها رفض أكيد من كلا التجمعين الموجودين في الساحة. هذا الاختبار،

¹ KHODJA,CHUKRI "EL Euldj, captif des Barbaresques", Editions ANEP ,Collection Patrimoine, p.44;2005;Alger.

كمثل مجموع المسار الروائي للبطل، ينجر عنه حكم سلبي عام باتجاه هذا الرجل. احتقار من طرف المؤمنين المسيحيين الآخرين في المدينة، تمرد وعطف من طرف ضميره ضد هذا الفعل الذي أجبر عليه وفي الأخير عدم فهم واضح من طرف القاص الذي يحكم على هذه المحاولة في الإدماج.

في الواقع، يتم تقديم "برنارد لوديو" منذ البداية على أنه شخصية ضعيفة بأفكار غير متناسقة وكل أفعاله يملئها عليه خوفه من أساليب التعذيب التي يسلطها العرب على الأسرى المسيحيين. يركز هذا البطل في خطابه ذي المسار السلبي بانتظام على أهمية مصير وقدر كل إنسان ليبرر مواقفه إذ يؤكد على أن لا أحد بإمكانه الهروب من قدره المحتم. وعلى النقيض من ذلك، نجد صديقه "ألبيير كوزيني" (**Albert Cuisinier**) الذي يرفض كل فكرة تتعلق بالردة وحتى التعاون مع المسلمين إذ يعبر عن استعداده إذا اقتضى الأمر، على تحمل التعذيب من أجل قناعاته الدينية.

على مستوى النص، يتعرض اسم البطل إلى تغيير سطحي بناء على التقلب الذي حدث. "برنارد لوديو" يصبح "عمر لوديو" وهو مجرد تلاعب بالألفاظ بناء على نطق الاسم الأصلي. التحول الأقل أهمية وذو الطابع الهزلي يشكل في حد ذاته حكما على الشخص وعلى الفعل الذي قام به. ومن ثم فإن التقدير السلبي يتفاهم بالاسم الذي يُنعت به البطل في العنوان. بالفعل كلمة "علاج" تعني بالعربية "الحمار الوحشي" أي "فظ"، وهذه الكلمة تم تداولها في السياق المغربي في فترة القراصنة لنعته المرتدين. هذه التسمية المحقرة بشدة طبع بها "لوديو" الذي يتحول إلى علاج "مرتد" وللإبقاء على سمة من إسمه الأصلي سيحمل لقب علاج (**Euldj**). يصدر القاص لمرات عديدة حكما سلبيًا بخصوص الشخصية الرئيسية للرواية وعلى مجمل المسار القصصي، ليذهب أحيانا للسخرية من البطل كما هو الحال عند ختانه.

"وكانت هذه اللقطة غاية في الفكاهة، " يقاوم لودبوس " قبل أن يرضخ للحجم الذي أوكلت له هذه العملية الجراحية، حادثة ساخرة من غير المجدي التركيز عليها وقعت للحين" 1

إذا كانت هناك حاجة لذلك فإن هذه المقاطع تبرهن بما فيه الكفاية بأن مسار لوديو لم يقدم على أنه مثال ايجابي للإدماج ولكن كمسلك يجب تجنبه لكل واحد لا يريد أن يقع في براثن الجنون، بحسب هذه الرواية، إن الذي يرتد عن دينه لا يمكنه أن يندمج أبدا في مجتمع الآخر والذوبان فيه. فإن ضميره سيذكره دائما بأصوله، من جهة، ومن جهة أخرى فإنه سيقابل بالرفض إن آجلا أو عاجلا من أولئك الذين يريد الانتماء إليهم. تتسارع أحداث القصة لنشاهد عمر لودبوس سنوات بعد ذلك، أب للطفل المسلم الذي سيصير مفتيا في المسجد. تظهر الهوية الضامرة للبطل دون انقطاع ليجد صعوبة في احتوائها. لن ينسى أبدا عائلته الفرنسية وديانته الأصلية، يركز القاص على حالة الصراع التي يعيشها البطل ليقوع من جديد حكما على أفعال البطل.

" ومن هنا، فإن عمر لودبوس لم يكن بإمكانه أن يوقف طفرات إيمانه المنبعث من جديد، اعتناقه للإسلام لم يكن إلا استعراضا، (...) عودته إلى ديانته الأصلية كان بمثابة ضرورة حتمية،...." 1.

إن الجنون الذي يصاب به هو بمثابة فشل لكل محاولة لتغيير الديانة، الجانب الروحي للإدماج يبقى شيئا مستحيلا، وإن كل واحد يرفض هذا التصور يكون مصيره الجنون. لن يصبح "لودبوس" عضوا في المجتمع المسلم بصورة تامة في حين سينبذه المسيحيون ويعزلونه. يبقى الوصول إلى موضوع البحث أمرا مستحيلا منذ البداية والمنعرج الذي سلكه لا يؤدي به في النهاية إلا إلى طريق مسدود كلية، الطريقة الوحيدة للخروج من هذا المأزق هي العودة إلى الأصل، التأكيد على هويته المسيحية

¹ "ELEuldj, captif des Barbaresques" P. 104.

¹ Idem, P.114.

والكفر بالإسلام علانية، وهو ما اختار البطل أن يقوم به أمام الملائكة في إحدى الصلوات في المسجد. ولولا تدخل ابنه المفتي لكان مصيره الإعدام دون محاكمة من طرف الجموع التي حضرت التصريح بالردة. ينتهي به المسار بالجنون ثم الموت. مرة أخرى نحضر مشهدا روائيا لمحاولة تنتهي بالفشل. يمكن النظر إلى وضعية ابنه على أنها إشارة للأمل: بإمكان الجيل الثاني أن يعيش كلية ويحقق الإدماج الذي باشره الجيل الأول. ولكن الشخصية الرئيسية عليها الانهيار في خلال البحث المستحيل الذي تقوم به.

كل مأساة الشخصية لوديو/ لوديوس تأتي من كونها لم تصادف في مسيرتها مساعدا حقيقيا. إنه وحيد إلى درجة اليأس منذ البداية وحتى النهاية في مشروعه الهادف إلى الإدماج. وكما سبق وأن أشرنا إليه في حالات أخرى من روايات المدونة، تتنصل الشخصيات الثانوية بصعوبة من الكليشيهات المفبركة مسبقا ولا تأخذ إلا نادرا سمكا بسيكولوجيا. ومرة أخرى هناك للأسماء وظيفة في تمييز الشخصيات التي ستقوم بالأدوار الثانوية الغير فاعلة في القصة، التي تشكل لوحة الصدر الضرورية عند المباشرة في محاولة الإدماج. وهكذا فإن العديد من السجناء لم يكن ظهورهم في الرواية إلا مقتضبا "فرانكو قاسبارو" (**Franco Gasparro**) الإسباني، "بول لوماك" (**Paul Lemek**) الفرنسي، وحتى "جورج لوفرونجان" (**George Lefrangin**) الذي يموت تحت التعذيب الذي يمارسه عليه الإنكشاريون. في المحيط المسلم لهذا المعتقد حديثا للإسلام نجد أيضا هذا النوع من الشخصيات التي لا تظهر إلا مدة حديث نظري قصير وحيث أن دورها في تطور أحداث القصة يقتصر على كونها مقصودة بالحديث الذي ينطق به بطل الرواية.

الصديق الحميم في الأيام العصيبة للسجين، "ألبير كوزيني"، يصدر حكمه ويتخلى بسرعة عن البطل في وقت الشدة وحيث كان من واجبه المساعدة. والأمر نفسه بالنسبة للقس الكاثوليكي، وبالرغم من أنه كان على علم بالردة التي يحضر لها لم يقم بأي شيء من شأنه أن يحول دون "مغادرة هذا الخروف لصدر الكنيسة" ومن جانب

المجتمع الأصلي، لا نجد إذن أي مساعدة بإمكانه مساندة البطل في مشروعه في الإدماج ولا معارض يمنعه من مواصلة السير في هذا الاتجاه. يختلف الأمر كلية فيما يتعلق بالمجتمع المسلم الذي يجذبه ويحاول الاندماج فيه. وهنا يكمن الاختلاف مع باقي الروايات التي درسناها في إطار المدونة، حيث أن محاولة الإدماج تبقى في غالب الأحيان على مستوى الرغبة البعيدة المنال وحيث يفتقد بصورة رهيبية التمثيل لمجتمع الآخر. هنا، بواسطة الزواج وتغيير الديانة، يدخل البطل حقيقة في عالم الآخر ووصف هذا الأخير يكون دقيقا أكثر من وصف المجتمع الأصلي للبطل، إنها الرواية بحيث أن محاولة الإدماج تأخذ بعدا كبيرا وحيث أن الخيال الروائي يصبح تصويرا حقيقيا للأطروحة المقدمة. مبدئيا، هناك ثلاثة أشخاص أكثر قربا من البطل لوديوس في مساره. زوجته، صهره وابنه المنحدر من هذا الزواج الجديد.

علاقة البطل بصهره بقيت تحمل وإلى الأبد بصمات علاقتهما الأولى، علاقات السيد بالمستبعد، و"ابا حاجي" بقي يعامل صهره وحتى بعد الزواج، كشخص بإمكانه التحكم فيه وتوجيه الأوامر إليه. تتشابه الأبوية والسلطة المطلقة للصهر في كثير من الجوانب بهيمنة المعمر على المستعمر وعلى هذا النحو الذي تبدو عليه في الروايات الأخرى من المدونة وحتى في الروايات الجزائرية للسنوات الخمسينات والستينات من القرن الماضي، أما فيما يخص زينب، المرأة التي تقف وراء محاولة الإدماج هاته هي أيضا كاتمة الأسرار الأولى التي يجرأ البطل على البوح لها بعدم قدرته على نسيان ماضيه المسيحي، ولكنها لا تستطيع الاحتفاظ بزوجها في إطار العقيدة الإسلامية وأهميتها بالنسبة لمسار البطل تضحل بسرعة في الوقت الأكثر تعقيدا من القصة، وفي الوقت الذي كان فيه زوجها بحاجة أكثر لمساعدتها، الابن الذي صار مفتيا يشكل بالعكس شخصية تستحق أن نتوقف عندها لما تحمله من بعد رمزي في مسارها وفي خطابها، يتمكن من إنقاذ أبيه من الإعدام من دون محاكمة الذي كان ينتظره بعد تصريحه العلني بالردة، ولكنه لا يستطيع أن يمنعه من الكفر بالإسلام والخروج في الوقت ذاته من المجتمع الذي تبناه، ولا الإمساك به ومنعه من الغوص في الجنون،

ومع أن الحوار النهائي بين الوالد الذي يغوص في الجنون و الابن الذي يتحدث بالفرنسية يبعث على رؤية خيط رفيع من الأمل بخصوص محاولة الإدماج. هذا الابن الذي تحول إلى فقيه سبق له وأن أدهش تلامذته (والقارئ في القرن العشرين) بأفكاره العصرية التي أباح عنها خلال أحد الدروس في المسجد. في الواقع إنها أفكار الكاتب التي تظهر عبر هذا الحديث.

"إن البلاد الإسلامية سترتمي بطريقة جنونية مسعورة في الحركة التطورية التي تحملهم إلى التيار الهائج الذي سيحمل اسم "الأوربة: الانطباع بالأخلاق الأوروبية". سيكون فيه الخير؟ سيكون فيه الشر؟ المستقبل هو وحده الكفيل بالرد على هذا التساؤل، وأحب أن يكون اعتقادي بأن هذه الحياة الجديدة ذات تأثير منقذ للعقول"¹.

كلمات تحمل قليلا من العقلانية تنبثق من فم فقيه في القرن السادس عشر والتي تسمح بظهور نظرة الكاتب للعالم. إن الفصل الثلاثين، الأخير في الرواية، الذي يفصح عن الأفكار الحقيقية لابن لوديو. تركيبة الثقافتين التي كانت مستحيلة مع الوالد بدأت تتشكل من خلال الجيل الجديد، وبالمقاربة من المستوى الروائي فقط يمكننا القول بأن الابن هو الشخصية الوحيدة في المدونة الذي ينجح في تمثيل ايجابي لأطروحة الإدماج، في حين لا يصير لوديو إلا مشروع مسلم، ولكن يوسف، أوجان لوديو في أوقات هياج وهذيان الأب، يكون على شاكلة هذه الطبقة من المثقفين المفرنسين لسنوات العشرين والثلاثين من القرن العشرين الذين يحتفظون بمرجعيتهم الإسلامية ولكنهم يتوجهون نهائيا نحو الحداثة التي يرغبون في إدماجها بواسطة اللغة والثقافة الفرنسية، نحضر هنا لتحول بالنسبة للوضعية الابتدائية للرواية حيث أن المسألة كانت تتعلق بإدماج برنارد لوديو في محيط إسلامي. عند نهاية الرواية ينتهي هذا البحث بفشل بينما ترسم خطوط عريضة لبحث جديد، خاص بالعلم والمعرفة التي يحملها الفرنسي ويبحث عنها الفقيه المسلم، بينما يتلاشى سراب الإدماج الديني والاجتماعي،

¹ Idem, P.148.

يترآى في الأفق ما يمكن أن يكون ثمرة للاختلاط ما بين الأجناس والثقافات: إدماج مفيد بعناصر ايجابية من حضارة الآخر مع الاحتفاظ بالثوابت والقيم الإسلامية، كلمات يوسف عند نهاية الرواية تعبر عن هذا التوجه.

العناية الإلهية قضت أن يكون الابن المسلم من فرنسي عاد لمسيحيته يحمل في داخله مزيجا متشامخا من الإباء والشهامة العربية المختلطة بالعقلية البطولية والاعتزاز الفرنسي، (...) إنه لم يستطع أن يصمد أمام حبه للإطلاع وتوقه للعلم المشروع و للذوق من ثمار حدائق البلاغة الفرنسية. (...)

بطريقة سرية، تعلمت بما يستحق الثناء، وبفضل كتب تحصلت عليهم خفية، هذه اللغة، التي هي لغتك و للأسف الشديد لن تكون أبدا لغتي. (...) إني أظن أن الدم الفرنسي يسري في عروقي ليغذي عقلي بالطعام السخي الذي يحتوي عليه الإسلام".¹ يشكل مسار برنارد لوديو وفشله تصويرا لما ترفضه مجموع الطبقة المثقفة الجزائرية لفترة ما بين الحربين لما يعتبرونه إدماجا ثقافيا ودينيا على المستوى الشخصي، التعلق بالإسلام وبالنظام الإسلامي الشخصي تبقى حقيقة يستحيل التخلي عنها وهي القناعة نفسها حتى بالنسبة للمثقفين الأكثر غوصا في الفرنسية، الإدماج المطالب به يركز على المساواة على المستويين السياسي والاقتصادي ومن ثم إمكانية الدخول في الحداثة عن طريق اللغة وبواسطة العلوم والفنون، بالنسبة ليوسف لوديو، مسألة الانتماء إلى الإسلام لا يشوبها أدنى شك، إنه لا يعاني من مرض في الهوية مثل أبيه. يشكل ومساره هكذا رسما متكاملا للصورة التي كانت لدى المثقفين الجزائريين المفرنسين حيال توجهات وحدود الإدماج، ولكن هذا التقارب لم يكن ليتجاوز بعض الحدود. إن الذي يذهب بعيدا في طريق فقدان هويته الطبيعية يهوى في غياهب الجنون.

¹ Idem P. 167.

المبحث الثالث

3- طريق السعادة: مريم بين النخيل.

أو الرواية التي احتفظنا بها إلى النهاية، لتقديم المسار القصصي لمحمد ولد الشيخ. الخاتمة الإيجابية لهذه الرواية، العقدة الأكثر تداخلا، الشخصيات بأكثر عدد والانسجام الواضح ما بين الخطاب والسرد القصصي، لتجعل منها واحدة من الأعمال الأكثر شهرة في الإنتاج الروائي لتلك الفترة. وليس وليد الصدفة إذا كانت هذه هي الرواية الأولى لتلك المرحلة التي يعاد نشرها في الجزائر المستقلة، إنها بحق رواية مغامرات حيث أن أبطالها يتمكنون من الرجوع إلى الهوية الأصلية ورفضهم في نهاية المطاف للإدماج القسري في ثقافة وديانة الأب. ومع ذلك فإن إعادة نشرها سنة 1985 في الجزائر تطلب تقديمًا مطولا لأحمد الأنصاري الذي أوضح للقراء الأقل اطلاعا (وأصحاب الرقابة المفرطين في الدقة) الرسالة الحقيقية لهذا العمل بحسب ناقد الوقت الحاضر.

"إعادة إدماج مريم، بإيعاز من أمها، في الهوية العربية الإسلامية لم يكن ممكنا إلا بعد موت القبطان دي بوسي. وبإبعاد القبطان، يبعد وينهي الكاتب رمزيا الاستعمار.

هنا تكمن وكما يبدو لنا، الرسالة الخفية التي تحملها رواية ولد الشيخ "1

- تنحدر مريم، بطلة الرواية، من زواج مزدوج. أبوها نقيب فرنسي تزوج من مسلمة، خديجة، برغم ميلاد طفلين، ولد وبنت، إلا أن زواج الفرنسي من العربية كان مصدرا للكثير من المشاكل: الاختلافات بين الوالدين، إذ أن احتقار الأب للأُم قد ميز هذه العلاقة. وفي كل روايات مدونتتنا، نرى تمثيلا لأزواج مزدوجين ولكن كل هذه العلاقات لا تتجح أبدا وتنتهي على المدى الطويل بالفشل لا محالة. لدينا تمثيلين لأزواج، حيث الزوج الفرنسي والزوجة العربية أو بربرية: يتعلق الأمر بالزوج روبامبيار، وخديجة مع النقيب دي بوسي. في كلتا الحالتين، نجد تصرف الزوج ناحية زوجته، إن افتقاره للرقّة والرهافة، وعدم الاهتمام بزوجته وإبدائه الحنان تجاهها،

¹ OULD CHEIKH, Mohammed, "Myriam dans les palmes", OPU Alger 1986, p.40.

يعدان السبب الرئيسي في فشل الحياة المشتركة. من جانب النساء، إذا كانت السيدة روبامبيار لا تقوم بأي دور إيديولوجي ولا تحمل أيا من القيم الروحية، خديجة تقدّم على أنها كافلة للتقاليد وترمز للهوية العربية المسلمة الأصيلة.

- في عائلة دي بوسي، إن الأب هو الذي يحتفظ لنفسه بحق تربية الأطفال. وبحسب رغبته فإن مريم وجان حفيظ يزاولان تعليمهما في المدرسة الفرنسية، ولا يتلقيا أي تعليم ديني. لا يريد الأب "تعصب" أبنائه وبهذا فلا يعلمهم" لا المسيحية ولا القرآن "لأنه" مفكر حر" وبناء على هذه التربية، فإن الشابين يصنفان من وجهة نظر ثقافية في محيط أوربي، ومن وجهة نظر دينية في فضاء محايد ما بين الإسلام والمسيحية. وبعد موت الوالد في معركة الريف في المغرب، قررت الأم توجيه ولديها نحو التجمع الديني والثقافي الذي تنتمي إليه، أي نحو الإسلام والعروبة إنها المرحلة من الرواية حيث يبدأ السرد القصصي، وحيث يتعرف القارئ على جميع أصحاب الأدوار الرئيسية.

- مريم فتاة "عصرية" تلبس وتتصرف تماما مثل معاصراتها من الفرنسيات اللاتي يعشن معها في البيئة نفسها. تمارس حتى الطيران وهي مخطوبة لإيباطوف، مغامر شاب ينحدر من أصول روسية. أما الابن فقد تبع خطى أبيه وتطوع في الجيش. تُفتتح الرواية بمشهد رمزي رفيع حيث تتلقى مريم درسا في العربية على يد شاب مسلم "متعلم ومثقف". تفرح الأم لخبر تعلم إبنتها للغة أجدادها وتتمنى في قرارة نفسها أن العلاقات ما بين التلميذة وأستاذ اللغة العربية، أحمد، تتطور لتصل إلى درجة الحب المتبادل. أحس إيباطوف أن وضعيته كخطيب أضحت في خطر، إذ يعبر عن عدم رضاه برؤية مريم إلى جانب العربي. ولكن كلماته المتعجرفة والجارحة باتجاه أحمد ما فتئت أن أيقضت لدى مريم مشاعر كانت لحد الساعة مطمورة في أعماقها لتدفع بها باتجاه أستاذ اللغة العربية ونحو البحث عن هوية جديدة. من الواضح أنها لا تريد أن تقع في "الخطأ" الذي اقترفته أمها حين تزوجت من فرنسي. إنها لا تريد أن تجد نفسها في نفس وضعية والدتها. بدأت مريم في الابتعاد تدريجيا عن إيباطوف لتقترب من

أحمد. إنه ومن خلال مغامرات الحب وما تحمله من مفاجآت وصدف يتمكن ابنا خديجة من الوصول وبصورة طبيعية إلى تحليل تربيتهم الفرنسية وثقافتهم العربية المسلمة التي اختارها طواعية عبر أطوار الرواية. تقوم مريم برحلة بواسطة الطائرة، تقود أبطال الرواية إلى "تافيلالت". تشكل هذه الرحلة مشاهدة فضائية للتغير الذي يحصل على إسنادات الهوية للأشخاص الذين ينتقلون.

إنها مغامرة خارقة تقود الشخصيات الرئيسية إلى تافيلالت في نفس الوقت الذي تقرر فيه فرنسا مهاجمة هذه الواحة المتمردة لوضع حد لحالة عدم الاستقرار التي تسود المنطقة. تسقط مريم أسيرة عند حاكم الواحة، الطاغية بلقاسم، الذي يشكل نواة العقدة الروائية. يذهب أخوها لنجدتها فيقع بدوره في الأسر. ويأتي فارس مجهول لنصرتها ليحصل بعد معركة طويلة على يد مريم. هذا المنقذ ما هو إلا أحمد مختفي وراء قناع. وما إن كشف هويته حتى سقط الشابان في أحضان بعضهما البعض – تأتي نهاية القصة غاية في التمجيد، تتخلص الواحة، ليحتلها الفرنسيون ولكن أمنية خديجة تتحقق في نفس الوقت، بحيث أن مريم تتزوج من أحمد وجان حفيظ يقترن بدوره من بربرية التقى بها في تافيلالت. الطفلان اللذان تربيا في أحضان المدرسة الفرنسية اختارا نهائيا، بزواجهما طريق العودة إلى تجمع الأم. في جدلية الذات والآخر، قام الأبطال بإنجاز مسيرة هامة. ثقافيا قاما بتحليل لتربيتهم الفرنسية ولانتمائهما العربي من خلال تأثير الأم. ومن وجهة نظر دينية، لقد انتقلا من فضاء حيادي إلى الإسلام.

وعلى نقيض الروايات الأخرى الواردة في المدونة، لا يطرح الأبطال أسئلة كثيرة بخصوص هويتهم. يتلخص موضوع البحث أساسا في تحري السعادة، أما الخطابات المتعلقة بالانتماءات الثقافية والدينية فإنها لا تشغل حيزا مهما في الواجهة. تختلف الوضعية الابتدائية للأبطال أيضا عن تلك الخاصة بالأبطال الذين سبقت دراستهم إلى حد الساعة. بولادتهم يجدون أنفسهم جينيا عند نقطة تقاطع ثقافتين. إذا حصرنا دراسة بحث الشخصيات.

عند المعاينة البسيطة للتقارب/الابتعاد من تجمعهم الأصلي نحو مجتمع الآخر، نجد في الحالات الأخرى، ابتعادا عن التجمع العربي البربري بالاقتراب من التجمع الفرنسي. في مريم، تتجسد هذه الحركة في الاتجاه المعاكس، وتدعو إلى التفكير في أن موضوع بحث مريم وجان حفيظ يكون العكس تماما لما يبحث ملياني وبولنوار.

موضوع بحث البطل الآخرين الذين سبقت دراستهم إلى حد الساعة، كان نوعا ما الإدماج في عالم الآخر، في عالم فرنسيي الجزائر، والهدف كان اكتساب لغته، معرفته والوصل إلى ظروف حياته. الأمر يختلف بالنسبة لمريم وجان حفيظ، اللذان ترعرعا بصورة طبيعية في محيط، كان الآخرون يطمحون إليه دون جدوى. إنهما يتحريان السعادة في العيش والحرية في أعمالهما التي يتوصلان إليها بعد وقوعهما في الأسر، بفضل تدخل أحمد. من المهم الإشارة إلى أن أبطالنا تحرروا بواسطة عربي، بيد أن سكان الواحة استعادوا حريتهم بانتصار الجيش الفرنسي على يد المتمردين. المعارضون لمريم في بحثها عن الحرية، وسكان الواحة هم نفس الأشخاص: أولا إيباطوف الذي يقوم بأسر مريم ويجبر سكان الواحة على العيش في البؤس. المساعدون وعلى العكس ليسوا هم أنفسهم. بحث الشابين دي بوسي عن الحرية يتم بمساعدة أحمد، بينما تحصل سكان تافيلالت على حريتهم بفضل التدخل الظافر للفرنسيين.

منذ بدايات الحركة الروائية، نجد تعارضا يستدعي الذكر بين إيباطوف وأحمد، تمثيل تعارضي بين الخير والشر، حيث الأول لا يملك إلا المساوى والثاني لا يجسد إلا المحاسن. يجمع المغامر الروسي كل المساوى التي يمكن للأوروبي في الجزائر أن يكتسبها بحسب نظرة الكاتب، مستهتر بالمسلمين، من دون أي تردد أمام الوصول إلى تحقيق نزواته، يتاجر بالسلاح، يتعاطى ملذات الخمر ويتردد على النساء ذوات السمعة السيئة... في المقابل نجد أحمد، وديع ولكن باسل وشجاع، الحارس الحقيقي للتقاليد والثقافة العربية. بحسب التمثيل الروائي للقصة، إنه ليس المساعد الرئيسي في موضوع البحث، ولكنه في نفس الوقت المعني به بحيث أن مسار مريم ينتهي بين ذراعيه.

والممثل الرئيسي الثاني أو الثالث في القصة هو خديجة، الأم المسلمة للأطفال دي بوسي، التي تفعل كل ما في وسعها لتقود ابنها نحو الدين ونحو قيم أجدادهم. إنها الوحيدة من بين جميع الأمهات أو النساء لمدونتنا التي تتجح في الاحتفاظ في فضاء الذات كل الذين أكلوا إليها. زهرة، زوجة ملياني، فشلت وبقيت تنفرج على زوجها وهو يغوص في الخمر. فاطمة، أم بولنوار، تشاهد مكتوفة الأيدي ابنها وهو يبتعد تدريجيا عن محيطه الأصلي، وأخيرا، أم بمهودات وصلوات لا تذهب سدى، بحسب أمنياتها الأكثر صدقا يتزوج ابنها من مسلمات ويعودا "إلى الطريق الحق"، طريق السعادة التي وجدته مريم وأخوها جان حفيظ، وهو أيضا طريق العودة إلى تجمع الأم وإلى ديانة وإلى ثقافة الأجداد. لقد تمكنا من التوفيق بحياتيهما وبقوة الحب بجميع الاختلافات التي كانت ما بين المجتمعين. وبهذا يمكن القول أن مساره يعد استثناء في جميع الروايات المدروسة.

خلاصة التحليل:

بعد هذه المقاربة الأولية في وصف مسار الأبطال، قد حان الوقت لتوضيح وضع القضية واستخراج التشابهات البليغة ما بين المسارات القصصية التي قدمناها. في بداية هذا الجزء، تساءلنا عن وجود "نقص نموذجي" الذي يمكن مصادفته في مجمل الأعمال، أو على الأقل في أغلب الروايات المطروحة للدراسة، وإذا كان الأمر كذلك، ما هي خصوصياته. لقد تم تفحص كل قصة على مستوى تطور من وضعية نقص نحو وضعية بحيث يتم إغداق وسد هذا النقص، أو على الأقل نحو محاولة لإغداق هذا النقص. ومن خلال هذا التقديم الوصفي للمسار القصصي، استعملنا وفي مناسبات عدة، وبطريقة متحررة نوعا ما، ألفاظا تقنية مستعارة من النموذج الرمزي (نظرية الرموز) لقريماس. هذه المقاربة الأولى كانت تتحدث عنها الروايات غير المعروفة على نطاق واسع، ومن جهة أخرى محاولة استخراج، بواسطة النموذج الرمزي، العناصر المكررة التي تميز الأبحاث التي يقوم بها الأبطال.

وباستثناء مريم، يبدأ أبطال رواياتنا مساراتهم في فضاء ثقافي وديني متناسق ومتوازن، توازن البداية هذا ينكسر عند الالتقاء بفضاء ثقافي، لغوي أو ديني مختلف عن ذلك الذي ترعرع فيه الأبطال. يتم هذا اللقاء بطرق مختلفة بحسب الأعمال الأدبية، ولكن من الأكيد أن هذا اللقاء يؤدي إلى فقدان التوازن المبدئي مما يؤدي إلى وضعية نقص تحرك البحث الذي تقوم به الشخصيات. ويتم تقديم اللقاء بهذا العالم المختلف على أنه تم بصفة إرادية من طرف أصحاب الأدوار الرئيسية، كما هو الحال بالنسبة لأحمد بن مصطفى وبولنوار، ولكن في أغلب الحالات، يكون الأمر خارجا عن إرادة المعنيين كما هو الحال بالنسبة لزهرة، ملياني، ونوعا ما لمريم. يحمل في غالب الأمر اللقاء الأول بصمات العنف، مثل الحرب التي يشارك فيها القوميون إلى جانب الجيش الفرنسي ضد المغاربة في أحمد بن مصطفى قومي. هذا العنف الذي يميز اللقاءات الأولى يعني في نفس الوقت أن الأمر يتعلق بتدخل خارج عن إرادة الأبطال، يتحملون تبعاته ويجدون أنفسهم مقحمين في مغامرات لم يختاروها. الشيء الأكيد، وهنا كل الروايات تجتمع على هذا الأمر، إن هذا اللقاء بين العالمين يحدث خلافا في توازن حياة الأبطال ويحرك لديهم الرغبة في البحث الذي يسعون من أجله. ومن جهة النظر هذه، فإن الروايات الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية لفترة ما بين الحربين تقدم تجانسا ملحوظا للأسباب التي تنجر عنها وضعية النقص التي تحرك موضوع بحث الأبطال.

- النقص المبدئي، وبالتالي البحث الذي ينجر عنه، يتميزان بثوابت عديدة ومتناقضة على ما يبدو، في اللقاءات ما بين البشر: الانجذاب نحو الآخر، النفور من الآخر، الرغبة في الظهور أمام الآخر، الرغبة في توضيح علاقة القوى ما بين الغالب والمغلوب. ولا يمكننا تجاهل انجذاب أول أبطال الروايات الجزائرية باللغة الفرنسية بعالم الآخر، حيث وجودهم بالقرب منه يذهلهم ويدفع بهم إلى الحلم في آن واحد. يتم التعبير عن هذه الجاذبية بانتظام من خلال موضوع بحث الأبطال.

ويتمثل ذلك في التحصيل المعرفي في المدرسة، الانبهار أمام التقدم التقني والعلمي، الطموح في الوصول إلى مستوى معيشة الآخر والأمل في الحصول على

جميع الحقوق التي يتمتع بها. ولكن العامل الروائي الذي يعبر بصدق عن هذه الجاذبية هو من دون شك الحبكة الغرامية التي تتطور في كل واحدة من روايات المدونة بين أشخاص ينحدرون من العالم المقابل. أحمد بن مصطفى مفتون بالسيدة الباريسية المجهولة التي يواصل معها تبادلًا للرسائل في نهاية حياته، ملياني مغرم بتيريز، زوجة صديقه، بولنوار بجورجيت البورغيونية وحتى مريم وأخوها جان حفيظ يجسدان هذه الجاذبية العاطفية نحو الآخر، بحيث أنهما يجدان السعادة في أحضان أناس لا ينتمون إلى نفس المحيط المصطبغ بالثقافة مثلهما، ولكن من محيط بلدي أصيل ومسلم. هذه الرغبة العاطفية هي دائما واضحة ومحسوسة في موضوع بحث الأبطال، ولكن القيام بها غالبا ما يطرح إشكالية ويتطلب من البطل التنازل عن جزء من هويته. يتجلى هذا بالخصوص في حالة "بولنوار"، ولكن الاصطباغ الذي ينجر عن مثل هذه العلاقة لا ينجو منه أحد من المدونة قيد الدرس.

- هذا النفور من الآخر يؤثر على مسار الأبطال بطريقة أقل وضوحا، ولكنه حاضر في التفاصيل الدقيقة عند السرد القصصي. و يعبر عنه "ملياني" كما عند "أحمد بن مصطفى بن أحمد" عند لقائه بالضابط الفرنسي الذي ينعته ب"بن كوسكوس" وعن طريق القاص نصادف كثيرا عبارات الحكم ورفض هذا الآخر المتعطرس والقوي جدا الذي يأتي ليحتل عالم الذات، غير مبال إن كان سيستقبل أم لا. التعبير عن هذا الرفض وعن هذا النفور يكون دائما بطريقة غير مباشرة وغير واضحة من الانبهار والجاذبية، وإن وجد فإنه يأتي كنتيجة طبيعية لهذين الشعورين المعبر عنهما بوضوح. ولكن يجب علينا الاعتراف بالغريزة الأدبية الحقيقية لكتابنا الذين لم يترددوا، برغم الرقابة المفروضة على أعمالهم في تلك الفترة وبرغم تعهدهم في طريق الإدماج، أن يسمحوا لأنفسهم، خفية بالطبع، بتقديم سلبي لتدخل الآخر. بإمكاننا القول بأن الخيال الأدبي يحد من تقديم أكثر مثالية وتبجيل للآخر، وتسمح بتفادي الانزلاق الأيديولوجي لتقديم تحت رحمة كلية للأطروحة التي ننوي تفسيرها.

لقد سبق لنا وأن أشرنا في مقدمة هذا العمل أن الروايات تتوجه بخاصة للفرنسيين وليس للقوى المسلمة الأمية في الجزائر. الرغبة في الاستظهار، لتصوير النفس، وإعطاء صورة لشخصه أقل سطحية وأقل سلبية من تلك التي تقدمها الرواية الاستعمارية، هي بالطبع إحدى انشغالات كتابنا، هذا التصوير الذاتي يتميز بداية بالتحفظ والحشمة والوقار الطبيعي الذي يتفادى وصف الفقر أو بعض الميزات الخاصة بالمجتمع المسلم والتي من شأنها أن تصدم القارئ الأوروبي. يتجلى هذا الحياء على مستوى الأحداث التي تصنع البحث، كما تميز القاص (من موقعه الخارجي وغير المنسجم) في وصفه لفضاء الذات، بحيث أن البحث من شأنه تحري إمكانات الإدماج. لا يبدي الأبطال والقاصون من خصوصياتهم ومن محيطهم ما يظنون أنه غير أهل وغير صالح للإدماج، بحيث يتقبله الآخر دون حكم سلبي. لا يدعو ملياني صاحبه للدخول إلى بيته: أحاديثهما تنتهي عند عتبة البيت البسيط الذي يخفي زوجته وظروف حياته المزرية عن أنظار الزائر. وبالطبع تتجلى كثير من التفاصيل من خلال السرد القصصي والوصف أما أنظار القارئ، ولكن هنا أيضا، نحترس من عدم صدم الأشخاص ذوي المشاعر المرهفة. هذه الرغبة في الظهور أمام الآخر يحددها بشدة ويطلبها الإحساس بالنقص الذي يميز كل محاولة في الإدماج. ينظر إلى الآخر بأعين مفتونة ومنبهة، ولكن الوثبة التي تقرب العالمين تبقى باتجاه واحد. الذي يحاول الاندماج، البطل يباشر البحث عن التفهم وعن الاعتراف المتبادل ما بين العالمين يكون دائما في وضع تبعية وارتباط أي نقص بالنسبة للآخر. لا يعتمد نجاح مساره على مهارته ولكن وبخاصة في القبول الذي سيحظى به في العالم الذي يريد الالتحاق به.

والبرنامج السردي نفسه:

المعالجة: إيصال إرادة الفعل وواجب الفعل.

الشخصية المركزية مكلفة بشرح إمكانية الإدماج.

الكفاءة: تحصيل قدرة الفعل والبراعة.

تحصيل لغة وطباع سوسيوثقافية ضرورية للإدماج، بالموازاة، فقدان جزء من الهوية.

المهارة: استكمال الفعل.

محاولة الاندماج بالآخر.

النتيجة: إنهاء الفعل، تقييم واستخلاص نتائج.

فشل المحاولة

نجاح المحاولة

- متابعة هذا البيان، يمكننا تقسيم الروايات المدروسة في هذه الأطروحة إلى مجموعتين كبيرتين: مجموعة أولى بحيث أن النتيجة بمعنى التقييم والاستخلاص الذي يأتي لغلق البرنامج القصصي تعد سلبية. والمجموعة الثانية بحيث يكون نفس هذا التقييم إيجابيا. وأول خلاصة لهذا الجزء من عملنا تبدو واضحة بالقدر الكافي الذي يقسم البرامج القصصية للممثلين بحسب هذا المعيار الثنائي التفرع. لقد سمينا مسالك الوحدة، الفسق والجنون، المسارات الروائية، التي تنتهي بفشل واضح من دون التباس. هنا وحيث إنجاز المهارة التي ينتظرها الفاعل تبقى مستحيلة، النتيجة التي تختتم فعله تكون سلبية. نقول إذا الروايات التي يبقى فيها موضوع البحث بعيد المنال تقدم مسارات مستحيلة. فمن بين سبع مسارات قصصية(بالنسبة لزهرة، زوجة عامل المنجم، مسارين: الأول لزهرة والثاني لملياني) التي قدمناها في هذا الجزء الأول، ستة تنتهي بفشل واضح، واحد ينتهي بنجاح: هو المتعلق بمريم (والمتعلق بأخيها جان حفيظ) التي تصل إلى موضوع بحثها وتنجز بها مسارا قصصيا الذي بإمكاننا تمييزه بمسار الممكن. ولكن علينا أن نأخذ بكثير من الحذر هذا الإثبات، لأن التباسا بقي يساور هذا البرنامج القصصي منذ الوهلة الأولى. بالفعل فإن الشخصية الرئيسية تكلف بالقيام بمهمتين متناقضتين منذ المعالجة الأولى ولا يمكنها تحقيق إلا واحدة منها. ولكن مشكل الالتباس هذا يطبع أيضا، وبدرجة أقل حدة، المسارات القصصية في المدونة. فيما يلي هذا العمل، سنحاول معرفة أسباب هذا الالتباس الذي يميز

المبحث الرابع

الرواية الأطروحة:

قبل القيام بدراسة معمقة لابد لنا من قراءة أولية لمجمل محتوى المدونة، تسمح لنا بتقديم فرضية كون كل هذه الأعمال تشتمل على الميزات العامة لروايات الأطروحة.

لكن يبدو لنا أن هذا الإثبات، الذي سبق وأن تقدم به آخرون أصبح حقيقة جلية في نظر الباحثين الذين اهتموا بهذا الإنتاج الأدبي، ولم يكن موضوع إيضاح هام في الماضي⁹⁷، إن واحد من الأسباب التي دفعت نقاد الأدب المغاربي بالعزوف وعدم الاهتمام بهذه الأعمال هو بالضرورة افتقارها للمنهاج الأدبي عدم الاهتمام الشمولي هذا يفسر لم كل المختارات أو التأريخات المتعلقة بالأدب الجزائري باللغة الفرنسية تفضل وبسرعة التصنيف الشمولي الذي استعمله أسلافهم ويصرون على ابقاء روايات الحقبة الولي في عزلة غير متناهية، في أغلب المقاربات، يصرح الناقد وبكل بساطة أن هذا الإنتاج الفني لا يدعو للاهتمام مادام الأمر يتعلق بروايات أطروحة، لينتقل إلى تقديم أعمال كتاب جيل الخمسينات ومن دون مناقشة القيمة الأدبية لهذا العمل أو ذلك، يبدو لنا مهما التأكد إن كانت هذه الأعمال تتطابق فعلا مع معايير روايات الأطروحة، كما صنفها النقد الأدبي للقرن العشرين، يبدو لنا هذا التحقيق بأهمية مماثلة أكثر من مقارنة أولية ومدركة بالحدس من هذه الروايات التي تبقينا في شك بما يخص صدقية هذا الإثبات.

قبل كل شيء، إنه لمن المهم إدراج تعريف أنواع رواية الأطروحة ثم التدقيق في هذه الروايات بناء على المعايير التي يوحى بها هذا التعريف. نبدأ هذه المقاربة انطلاقا من التعريف " الحدسي" الذي تعطيه س.ر سليمان (S.R Suleiman) لرواية الأطروحة:

⁹⁷ Lanasri Ahmed, « la littérature algérienne de l'entre deux guerre » publisud 1995.

" أعرف كل عمل أدبي على أنه رواية أطروحة تلك الرواية " الواقعية" (التي ترتكز على جمالية المعقول والتقديم). الذي يترآى للقارئ أساسا على أنه يحمل في ثناياه تدريسا يتجه نحو تفسير لحقيقة مذهب سياسي، فلسفي، علمي أو عقائدي "98. يمكن هذا التعريف من التأكيد على العلاقة الخاصة التي تتوطد بين النص والقارئ، المحتوى القصصي أو الموضوعي للرواية، أسلوبها وتنظيمها الاستدلالي لا يشكلون موضوع هذا التعريف، يكتفي هذا التعريف فقط بالقول أن الرواية ذات الأطروحة تهتم بكيفية استلامها، كون هذا النوع من الروايات يحاول التأثير على الطريقة التي يقرأ بها، التأكيد يخص الفعل " فسر " الذي يشير إلى الرغبة الواضحة لدى الكاتب في تدريس وإثبات حقيقة سبقت وجود قصة الرواية.

يريد الكاتب توضيح الشيء لذا يجب عليه إقناع والحمل على الاعتقاد بحقيقة هذا الشيء، الهدف النهائي من هذا التفسير هو الدفع بالقارئ القبول بهذه الحقيقة، وحمله على التصرف وفقا لقوانينه الحقيقة، وفي نهاية الأمر إن الرواية ذات الأطروحة هي نوع من البلاغة والبيان بالمعنى الأدبي للكلمة (بلاغة. فن الإقناع) والعلاقة التي تربط الكاتب بالقارئ هي شبيهة بتلك التي تحصل بين الخطيب والداعية والمعلم والجمهور الذي يستمع إليه، هذا يفسر، جزئيا، التشابه العميق للخطاب الذي يطوره كتاب مدونتنا من خلال مقالاتهم الصحفية المختلفة مع الخطاب الذي تتناوله كتاباتهم الخيالية، تتجلى هذه الملاحظة خصوصا في الحالات المتعلقة بالحاج حمو عبد القادر ورايح زناتي.

ولكن النقيض من الحديث الخطابي أو الدرس البيداغوجي فإن رواية الأطروحة، أو أي رواية كانت، ليست نسا منهجيا يقدم بطريقة منطقية ومنظمة حجما وإثباتا من أجل البرهنة، ولكن كيف التفكير بجدية في أن قصة خيالية ذات علاقات مع الواقع لا يمكن التحقق منها، يمكن أن يكون لها تأثيرا على الحياة الحقيقية للمقصود بالخطاب ؟ وبحسب مفهوم س.ر سليمان فإن رواية الأطروحة تقترب أساسا من

⁹⁸ SULEIMAN Susan Rubin, « le roman à thèse » Paris PUF, 1983 , P.14

(l'exemplum) البلاغة الكلاسيكية، يفرق أرسطو بين فئتين كبيرتين من الإقناع. الإقناع بالتحريض أو الحجة بالتمائل والإقناع بالاستنتاج (enthymème)99، في الحالة الأولى التي تهمن، يقدم الخطيب لجمهوره مثالا، في غالب الأمر على شكل مقارنة تاريخية بنتائج تتطابق مع الحاضر. تنقسم فئة الحجة بالتمائل بدورها إلى قسمين: الأمثلة (exemple) الواقعية المأخوذة من التاريخ أو من الأسطورة مع تلك المستوحاة من الخيال. في نطاق هذا القسم الأخير، يفرق أرسطو ما بين الأقوال ذات مغزى (حكم) التي هي من مقارنات قصيرة والقصص التي تحكى على لسان الحيوانات (Fables) المطولة والتي هي جمع للأفعال والإجراءات، أي قصة. حوافز كاتب رواية الأطروحة هي نفسها التي يستعملها الخطيب حين التحجج بالمثالية وبمتطلبات شكلية كتلك التي يواجهها الكاتب حين وضع القصة على لسان الحيوان في قالبها الحكائي.

في كتابها الذي سبق التطرق إليه، أبانت س.ر سليمان100 سلسلة من المعايير المميزة لرواية الأطروحة. منطلقة من التعريف الحدسي الذي تحدثنا عنه تقترح مجموعة من السمات المهيمنة على نوع "رواية الأطروحة" نتائج مقاربتها التي تهتم بعلاقات الإدماج والإقصاء التي تربط الرواية الواقعية برواية الأطروحة، بإمكانها أن تكون (أي النتائج) وسيلة عمل ملائمة لدراستنا. من مجموع السمات المهيمنة في روايات الأطروحة المستخرجة من طرف سليمان نحتفظ بثلاث لنضع فيما بعد روايتنا تحت الاختبار لفحص منهجي بحسب السمات المميزة لهذا النوع.

المعايير الثلاث التي اخترناها، حتى وإن كانت رئيسية في التعريف، إلا أنها ليست هي وحدها التي أوضحها سليمان في كتابه أما بالنسبة لنا فإنها تشكل وسيلة بمدلول ذهني التي بواسطتها يمكننا التقرير إن كنا فعلا أمام روايات تتطابق مع قوانين هذا النوع، المكسب الآخر الذي نحصل عليه من استعمال هذه المعايير هو التوجه

⁹⁹ ARISTOT, "rhétorique", Livre II, Chap. 20 ;

¹⁰⁰ Suleiman Susan Rubin, « Le roman à thèse », page .14.

بتحليلنا المبني على المفاهيم لروايات المدونة بعيدا عن إنتمائها أم لا لزمرة رواية الأطروحة. وهكذا فإنه و بواسطة هذه المفاهيم التحليلية يمكننا فهم أكثر لخصوصيات هذا الإنتاج الأدبي الناشئ.

المعايير الأساسية الثلاث لرواية الأطروحة التي احتفظنا بها في دراستنا هي إذن كما يلي.

بطبيعتها التي تمكنها من الاتضاح جليا على المستوى الخارجي للنص كونها تحمل رسالة إيديولوجية.

خاصيتها في وضع نظام قصصي يرتبط بنظام التعلم المثالي. تفضيلها لدرجة عالية من الإطناب من جهة، وإيثارها لبعض أنواع الإطناب والحشو من جهة أخرى.

سنفصل بدقة في كل هاته السمات المميزة في حين استعمالها، وعند العرض المفصل للأطروحة لاحقا، أما بالنسبة للعنصرين الاثنين الأخيرين يبدو لنا مشروعاً أن نتحدث باقتضاب عن محتواها منذ الآن التقديم النظري لنظام التعلم وفحصه التحليلي يشغلان مكانة مركزية في مؤلف س. ر سليمان¹⁰¹. انطلاقاً من تعريف شمولي لمحتوى الرواية الذي وضعه لوكاش (Lukacs) 102،)، الذي يقبله جزئياً، يستنبط نموذجاً نظامياً قصصياً الذي يقرب رواية الأطروحة من (Bildungsroman) يتعلق الأمر بنظام التمرن المثالي الذي يمكن تعريفه، وبطريقة ممنهجة كما يلي: تحولان متوازيان يؤثران على الفاعل: من جهة، التحول جهل (الذات)



معرفة (الذات)، من جهة أخرى، التحول السلبي.



الفعل "103"

¹⁰¹ Suleiman Susan Rubin, « Le roman à thèse », p. 14.

¹⁰² LUKACS , George, "la théorie du roman ", Paris, Gallimard, Collection Tell, 1989, P. 76 .

¹⁰³ Suleiman S., Rubin.

نظام التمرن المثالي هذا ينقسم إلى فئتين بحسب وجهة التمرن التي قام بها فاعل
القصة: "مثالي ايجابي"

التمرن الذي يقوم البطل نحو القيم الملازمة للنظام الإيديولوجي الذي يؤسس
للرواية. "مثالي سلبي"

كل تمرن الذي يبعد الفعال من قيم هذا النظام ليقربه من القيم المعاكسة.
بالنسبة لوارتنا، وجب علينا إذن دراسة التمرن المثالي كما أنجزه
الفاعلون، والعلاقة بين التمرن عليهم والنظام الإيديولوجي الذي تقول الرواية أنها حاملة
له.

لقد سبق لنا القول بأن إحدى السمات الرئيسية لرواية الأطروحة وإهتمامها في
تلقي الرسالة التي تحاول أن تسوقها باتجاه المقصود (المرسل إليه)، من أجل تمييز
القاص في رواية الأطروحة وشغفه بالإطناب ن. س. ر سليمان يستعيد صيغا سبق
لرولان بارت (**Roland Barthes**) أن تقدم بها فيما يتعلق بالإطناب، بحسب
عبارته، الخطاب المطنّب هو خطاب بحيث "الإسهاب في تسمية المعنى"
القاص في رواية الأطروحة يعمل ب:

" الخوف من إنقاص الاتصال من المعنى" وهو ما يفسر اللجوء المستمر
للإطناب "الثرثرة اللفظية"104.

مفهوم الإطناب المستعار من علم اللسانيات، ليس بالظاهرة الحصرية في رواية
الأطروحة ولكنه سمة مميزة لكل نص يراد له أن يكون "مقروءاً" والذي يرغب في
تعطيل "أصوات" الإيصال، انسجام أي نص أدبيا كان أم لا، يتعلق بمستوى الإطناب
الموجود في النص، أي بمعنى عدم التناقض الداخلي كلما كان النص يقدم تناقضات ما
بين أقواله، كلما كان الاستيعاب متعلقا بالتفسير الذي يضيفه غليه القراء. إذا كانت
العناصر المتناقضة كثيرة، يصير النص غير مقروء ويصبح حاملا لخطاب متميز

¹⁰⁴ BARTHES, Roland, S/Z, Paris, seuil, 1970, pp 85 – 86.

بالانفصام. مع أن نصا أدبيا خاليا من أي تناقض ينجز إطنابا كاملا، ليفقد كل الاهتمام به ويخطئ أيضا في إيصال المعنى"

ولكي يتمكن الإيصال من العمل بطريقة صحيحة، يجب الاحتفاظ في آن واحد بالمعلومات المعروفة سلفا وإدراج أخرى جديدة، قاص رواية الأطروحة يمكن أن يتميز بمستوى عال من الاهتمام الذي يحمله من أجل استيعاب عمله. و عليه إيجاد المقدار المحدد بدقة ما بين استعمال الإطناب والتناقض، الذي يسوق معلومات جديدة داخل الخطاب، يشكل بالنسبة له أحد النقاط الرئيسية في النجاح. تضع س. ر سليمان جردا للأنواع الرئيسية من الإطناب الممكنة في الرواية الواقعية، ثم تتفحص أنواع الإطناب التي تفضلها رواية الأطروحة. وأخيرا فإنها توضح أن خاصية رواية الأطروحة هي القيام ب: " استثمار المدلول اللفظي للإطنابات الحاسمة"105.

إننا نظن أن مفهوم الإطناب ودراسته في الحالة التي تقدمها مدونتنا هي ناجعة خصوصا بالنسبة للذي يريد فهم أسباب الالتباس العميق الذي يميز الإنتاج الروائي الجزائري لفترة ما بين الحربين.

أما فيما يتعلق بروايات مدونتنا، مقاربتنا الأولى لها تكشف لنا بأنها تتميز بتوضيح لإيديولوجية خارجية ومستقلة عن مستوى القصة، هذه الإيديولوجية التي سبق وجودها في الخيال الأبوي هي من شك متعلقة بالإدماج كما كان يفهم في الجزائر فترة ما بين الحربين. فمن وجهة النظر هاته يمكننا القول بأن روايات مدونتنا تحاول إيضاح إمكانية الإدماج والتعايش السلمي والبناء في الجزائر ما بين السكان الأصليين بنظرائهم من الأوروبيين، في كل حالة، الخيال الروائي مطالب بتسويق خطاب أيديولوجي معين بالاستعانة بأبطال الذين يجب عليهم القيام بمسارات تطابق التمرن المثالي، ايجابي أو سلبي بحسب معايير الإيديولوجية التي تحدثنا عنها. ابتداء من محيط النص الخارجي (عنوان، مقدمة، إهداء...) تشير أعمالنا على أنها تحمل تعاليم: ابتداء من المقدمة أو مستهل الكتاب يقترح على القارئ ميثاقا للقراءة. من خلال هذا الميثاق، يتعهد صاحب

¹⁰⁵ "Suleim "S.,Rubin P 209

التقديم أو القاص على وضع في الرواية التي تلي مذهباً سياسياً واجتماعياً خارجاً عن الخيال الأدبي، يرتكز هذا المذهب الاجتماعي على فكرة التعايش بين المسلمين وغير المسلمين في الجزائر وفي الرغبة في تقارب التجمعين بحسب الروايات، أو بحسب هذا النص أو ذاك من كل رواية، تتعرض هذه الفكرة لتغيرات مختلفة ولكن في العمق، يبقى الشيء الرئيسي نفسه دائماً وعليه يمكننا من الآن الحديث عن الملاحظة التالية: الإشكالية الرئيسية في روايات مدونتنا هي الإدماج، النظرة التي لدى هؤلاء الكتاب عن الهوية الجزائرية وعلاقتهم مع هذا "الأخر" الذي يتواجد بقوة في عالمهم، التعاليم التي تركز عليها الروايات تفترض وتتمنى أن يتبنى المقصود (الموجهة إليه) هذه الأفكار التي طوروها ويحرص على تطبيقها، نتعرف هنا على آليات عمل كل نص الذي يهدف جلب انتباه والتأثير على تصرف القارئ.

و من هنا فإن تحديد مراحل بحثنا يتم إذن بناء على المنطق الذي تصبو إليه بلاغة روايات الأطروحة. ينبغي بداية معرفة الأطروحة التي يرجى لهذه الأعمال تفسيرها، نعمل إذن على تقديم سريع لخطاب الإدماج بالشكل الذي يتطور به في جزائر ما بين الحربين. ثم نرى كيف أن هذه الأعمال الخيالية هي صور توضيحية لهذه الأطروحات الموضوعية سلفاً، وتطبيق للمواضيع الكبرى لخطاب الإدماج لبداية القرن، في التعريف الذي تبنيه سابقاً لرواية الأطروحة، لقد قبلنا بالميزة الرئيسية لهذا النوع كونه ينشغل بالاستقبال الذي يخصه به القارئ. من خلال دراسة ما هو حول النص و متعلق به، سنحاول استخراج الخطوط الكبيرة لهذه المحاولة في تكيف الاستقبال الذي يشرع فيه كتاب روايتنا. ومن دون استثناء، تقترح كل روايات المدونة ميثاق قراءة لا تحترمه إلا بصعوبة فيما بعد. يمكننا من الآن الحديث عن ميثاق للقراءة ملغى و متلف من خلال العناصر المختلفة المركبة للنص الأدبي، ولكن هو موضوع القسم الآتي من عملنا.

1. خطاب الإدماج:

تشكل الرواية الجزائرية باللغة الفرنسية لفترة ما بين الحربين محاولة لرسم على مستوى الخيال للأمال السياسية، الاجتماعية والثقافية للمفكرين المسلمين

المتفرنسين. هذه الآمال المتنوعة والمتطورة بثبات والتي تتبلور وتنمو حول مشكلة الإدماج.

سنقدم ولو بسرعة نمو هذا المفهوم، بداية في فرنسا البلد الأم، ثم عند فرنسي الجزائر، وأخيرا سنرى كيف ينظر المسلمون وعلى الخصوص المثقفون منهم باللغة الفرنسية، الذي ينتمي إليهم كتابنا، إلى هذه القضية، لكي نفهم ظروف ظهور ومن ثم تطور مفهوم الإدماج في الجزائر المستعمرة، يجب العودة إلى الماضي والاهتمام قليلا بتاريخ هذا المجتمع الاستيطاني.

هناك طريقتان لغزو بلد ما، الأولى وضع سكانه تحت السيطرة وحكمهم مباشرة أو بطريقة غير مباشرة، إنه أسلوب الإنكليز في الهند، والثانية هي استبدال السكان القدامى بالجنس الغازي¹⁰⁶.

اختارت فرنسا الطريقة الثانية، نجاح سياستها الاستيطانية في الجزائر كان خاضعا لشرطين. تدفق ثابت وهام بما يكفي للمغتربين، ومن جهة أخرى الاختفاء البطيء والشاق للأهالي (السكان الأصليين)، وأيا من الشرطين لم يتم إنجازهما كلية. عند نهاية القرن التاسع عشر بدأ تدفق المغتربين يتناقص، ورغم نقص محسوس خلال العشرينات الأولى للاحتلال، عاد الأهالي بنسبة نمو ديمغرافي تفوق نسبة الشرائح المنحدرة من أصول أوروبية للبلد.¹⁰⁷

الاستعمال الأول لمفهوم الإدماج بدأ من الفترة حيث أن أمل النمو الديمغرافي كان ينظر إليه كونه قضية وقت لا غير. وعليه فإن الحديث عن إدماج الأشخاص لم يكن له وجود لأنهم مرشحون إلى الاندثار ولكن إدماج الممتلكات، بمعنى الأراضي في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر حيث بدأ يتشكل الحديث عنه أساسا بواسطة قنوات سياسية قادمة من فرنسا.

¹⁰⁶ TOQUEVILLE, Alexis « Travail sur l'Algérie », in œuvres incompleted, Paris, 1962, P.127.

¹⁰⁷ AGERON, Charles-Robert, « Histoire de l'Algérie contemporaine ».

"الحديث الأكيد هو النمو الديمغرافي الكبير للأهالي في الجزائر، إذ نشدد على هذه الأرقام لأنه من واجبها أن تملي علينا طريقة الحكم. لم يعد التردد مسموحاً له، من الواجب وكما أنني أنادي به منذ العشرين سنة أن نربح العرب إلى جانبنا ومادام الوقت يسمح بذلك..."¹⁰⁸.

و بسرعة أصبح ينظر لقضية إدماج الأشخاص في الضفة الشمالية للبحر الأبيض المتوسط على أنها ضرورة حتمية إذا كان يراد الإحتفاظ بمصالح فرنسا في المستعمرة وبناءً على هذا المفهوم، كان على الإدماج أن يبدأ إلى درجة الحصول على الجنسية الفرنسية مع الإحتفاظ بالوضع الإسلامي، على الجيش والمدرسة أن تكون الأماكن المضلة للبدء في تطوير التقارب وخلق نخبة من الأهالي قابلة لأن تندمج في صفوف المواطنين من الدرجة الأولى.

بإمكان جموع الفرنسيين المسلمين الإدلاء بأصواتهم في دائرة إنتخابية خاصة بهم، بينما المجموعة الضيقة من "المنتخبين المحظوظين" تحصل المواطنة الفرنسية الكاملة، وتمنح حق الانتخاب في الدائرة الأولى، التي تخص مجموع الساكنة الأوروبية، التطبيق القانوني لهذا التصور لم يتم إلا بصفة متأخرة في المشروع الشهير لقانون بلوم/فيوليت (**Blum violette**) الذي قدم لمجلس الشيوخ في مارس 1935 ليتم نشره في الجريدة الرسمية ل 30 ديسمبر 1936.¹⁰⁹

ولكن مشروع القانون هذا لم ينجح في حشد مؤيدين بالقدر الذي يسمح بالمصادقة عليه ثم إنه لم يطرح للمناقشة في الجمعية الوطنية. تصدرت الأغلبية الساحقة للمعمرين الأوروبيين في الجزائر بشدة لأي تغيير يمس الوضع القانوني للأهالي. فبغض النظر عن المساندة التي أبدتها بعض العقول المتحررة حتى داخل فرنسا لم يكن هناك إجماع سياسي قوي إلى درجة تفويت مشروع القانون.

¹⁰⁸ LEROY BEAULIEU, « l'Algérie et la Tunisie » Paris 1897.

¹⁰⁹ STORA Benjamin, « Histoire de l'Algérie coloniale (1830/1945), Paris, Edition la Découverte, 1991, P.118.

كان فرنسيو الجزائر ينظرون إلى فكرة الإدماج هذه على أنها ايديولوجية مستوردة. مع أن المفهوم أصبح حاضرا أكثر فأكثر في الخطاب الرسمي للمستعمرة، وفي العمل الحضاري للاستعمار في الجزائر يبرر الوجود الفرنسي على الأرض الإفريقية بأن فرنسا لها التأهيل الحضاري ولأنها ترغب في الإدماج وبالموازاة مع تصور الإدماج بحسب العقول المتحررة في فرنسا، تتطور في داخل المستعمرة نظرة مغايرة لنفس هذا المفهوم تستعمل في صفتي المتوسط نفس الكلمة ولكن تنقل بمعنى مختلف. تركز إستراتيجية ممثلي المستعمرة على التشديد على خصوصيات المجتمع المسلم، وعلى الميزات المرتبطة بالحق الشخصي، في ممارسة التعددية الزوجية، في أهمية الدين داخل المجتمع الخ، في إطار هذه النظرة، يصبح الإدماج أمرا مستحيلا، بحيث أن الآخر مختلف جدا، ولا يمكننا إدماج إلا ما هو متشابه، وهكذا فإن الإدماج ليس ضمن مجال العمل السياسي، ولكنه هدف نصبو إليه، ننظر إليه دائما من دون الوصول إليه أبدا. بحسب هذا التصور، التحصيل على المواطنة الفرنسية يبقى خاضعا لشرط التنازل عن المقومات الشخصية، إذا تنازل المستعمر عن خصوصياته الدينية، القانونية والثقافية هنا يمكننا القبول به والتصريح بأنه قابل للإدماج، في واقع الأمر، إمكانية التجنس موجودة منذ القانون الصادر عن مجلس الشيوخ لسنة 1865¹¹⁰.

ولكن الذين يختارون هذا الحل ينظر إليهم من طرف الأغلبية الساحقة من المسلمين على أنهم "خونة" لأنهم تنازلوا على مقوماتهم الشخصية ويكونون بهذا قد انقطعوا على الأقل قانونيا وسياسيا، عن باقي السكان المسلمين، وزيادة على ذلك، فإن السلطات الإدارية والقضائية الجزائرية تمارس انتقاءً كبيرا ما بين المرشحين للتجنيس، حتى لا يؤثر هذا على الهيمنة الاستعمارية، وهكذا يمكن فهم العدد المحدود جدا لطلبات التجنس للمسلمين الجزائريين لفترة ما بين الحربين¹¹¹.

¹¹⁰ GOURDON, Hubert, « Roman colonial et idéologie coloniale en Algérie », P 50.

¹¹¹ AGERON, Charles-Robert, « Histoire de l'Algérie contemporaine ». Paris, PUF, 1979, PP. 161-162

من وجهة نظر قانونية وسياسية، إدماج الأشخاص كان فشلا بحسب التصور الاستعماري وكذا بحسب النظرة التي صنعتها العقول المتحررة في فرنسا.

لننظر الآن إلى الطريقة التي انتهجها المثقفون المسلمون لفترة ما بين الحربين في حديثهم عن الإدماج وبخاصة الخطاب المهيمن بخصوص هذه المسائل في دوائر الشبان الجزائريين. ما يشد الانتباه أول مرة عند قراءة مختلف الكتابات المنسوبة للمسلمين المفرنسين لتلك الفترة، هي الظهور النادر نسبيا لكلمة "الإدماج". إحساسنا أنه في الجانب المسلم، فضل الحديث عن "التعاون" أو عن "قضية الأهالي" عن "عدم الفهم" بين الجهات المتواجدة على أرض الجزائر أو "التفاهم المرغوب فيه" أو "فرنسة الأهالي" أو "الشراكة" أو "الإصلاحات المتعلقة بالأهالي" أو "الإصلاحات الإدارية". الخ112. ما هو أكيد، أن استعمال المصطلح لم يتم في نفس الاتجاه الذي يستعمله ممثلو الاستيطان في الجزائر. ولكنه يفهم بحسب التصور الخاص بالعقول المتحررة في فرنسا. إذا كان هناك نوع من التوافق عند جميع المثقفين المسلمين فيما يخص العديد من المسائل الثقافية والدينية، يختلف الأمر بالنسبة للمسائل السياسية. الكل يتفق على ما يبدو على الإصرار على تعميم التعليم العصري بالفرنسية المفتوح أمام جميع شرائح المجتمع هذا ما طالب إسماعيل هامات منذ بداية القرن113، وهو ما ألح عليه شريف بن حبيلس في كتابه الذي يعبر ملخصا لمطالب حركة الشباب الجزائري114.

وأياضا عن التربية يتحدث رابح زناتي سنة 1938¹¹⁵. الكل يتفق على التطور الحاصل في مجال الأمن، ومزايا التطور التقني والمادي، وتحسن ظروف الحياة العامة

¹¹² RABAH, Zenati « *Le problème algérien vu par un indigène* », Paris , Publication du comité de l'Afrique française, 1938, pp .181-182.

¹¹³ HAMET, Ismaïl, « *les Musulmans Français du Nord de l'Afrique* », Paris ,Armand Colin, 1906, P.259.

¹¹⁴ Benhabiles Cherif « *l'Algérie Française vu par un indigène* » conférences, à constantine, 1914, PP .21 – 34.

¹¹⁵ Zenati Rabeh, « *l'enseignement des indigènes* », PP .103 – 111.

لكافة السكان، التقدم في مجال الصحة.. الخ، إجماع واسع على أهمية الإسلامي ودوره الاجتماعي. وفي مواجهة الأحكام المسبقة التي يعبر عنها المعمرون فيما يخص التعصب وعدم التسامح وتصلب الديانة الإسلامية، حاولت الدوائر المثقفة للأهالي مقابلة هذا التصور بصورة عن الدين الإسلامي، النقي المتخلص من الأوهام والخرافات وممارسات العصور الوسطى التي يحملون المسؤولية عنها للمرابطين وبعض الطرائق الدينية نقدم صورة لإسلام متفتح ومعطاء، يساير التطور والحضارة، والذي بإمكانه التحول والتقدم على طريق العصرية بالاحتكاك بفرنسا والفرنسيين.

"كان رابع الخلفاء، الإمام علي يقول: "الإسلام ديانة عظيمة وجميلة ولكم الحق أن تظنوا به ما تشاءون". أحد مقوماتهم الحضارية لأمة ما تكمن في احترامها التام لكل العقليات ولكل الضمائر"116.

هذه الصورة لإسلام متفتح على التطور، ساندها العلماء في جزء منها، نجد دليلا ملموسا على ذلك في كتاب شريف بن حبيلس، حيث يقدم الكاتب ترجمة لسلسلة من الخطابات والمحاضرات باللغة العربية في منتدى صالح بأي بقسنطينة الكلمة الأمر للخطيب، أستاذ في الفقه الإسلامي في المدرسة العليا ومفتي مالكي في المدينة هي " محاربة الجهل" هذا هو أيضا عنوان هذه السلسلة من الخطابات أين يتم الاستدلال بآيات من القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة وأمثلة من السنة تباعا لحث المسلمين الجزائريين على فعل كل ما في وسعهم لمحاربة الجهل " يقول النبي - صلى الله عليه وسلم:- { طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، أطلبوا العلم ولو بالصين}.

العلامة الأخرى التي يؤخذ بها عن وعي وبصفة منتظمة في الخطاب الاستعماري الجزائري على المثقفين المسلمين لتلك الفترة معربين كانوا أو مفر نسين، تعلقهم واهتمامهم بباقي دول العالم الإسلامي، ظهور في الخطاب الفرنسي لفترة ما بين

¹¹⁶ BENHABILES, Cherif « l'Algérie française... », P. 180.

الحريين لتخوف وهواجس من الأفكار السياسية الداعية إلى وحدة الدول الإسلامية وتنامي النزعة القومية الإسلامية التي تعتبر نتيجة مباشرة لهذه الأفكار. نشاهد مجموع المثقفين المسلمين يصبحون احتجاجا أمام هذا الاتهام. يعترفون بارتباطهم ووفائهم للإسلام و بالشعوب التي تدين به ولكنهم يسارعون في التعبير عن وفائهم لفرنسا وحبهم للتطور والحضارة الفرنسية، كما بالنسبة للتعليم، يلجأ شريف بن حبيلس إلى مثقف مسلم لتفسير مدى ملائمة موقفه وللإظهار الإجماع العام الذي يسوده فيما يخص هذه المسألة.

"الإسلاموية (الأفكار الداعية إلى توحيد العالم الإسلامي والنزعة القومية نحو الإسلام قال السيد بن رحال أني لا أعرف لهما مكان في الجزائر. وإذا وجدنا في يوم ما تكونون أنتم من خلقها).

وحتى في سنة 1938، يواصل رابح زناتي في إنكار العلاقات والتطابقات بين مصالح البلدان ذات الأغلبية المسلمة، وهكذا فإن أحد العنوانين الثانوية لمقالته السياسية كان. اختلاف مطلق في وجهات النظر لمجموع سكان الشمال الإفريقي وباقي الشعوب في بلدان المشرق الإسلامي."117.

يجب الاعتراف بقوة بان الخطاب الأيديولوجي الواضع لحركة الشباب الجزائري ترفض مع الاحتجاج أي شبهة بالإسلاموية، وإجابة على ذلك تصرح بوضوح عن عزمها الوفاء لفرنسا ولجملة المصالح التي تربطها بها، يمكننا ملاحظة تذبذبا ثابتا في خطابهم، من جهة، التعبير عن المطالبة بتعميم التعليم ومن أجل الاعتراف بالحقوق السياسية للأهالي ومن أجل ليونة في نظام الاضطهاد الاستعماري، ومن جهة أخرى ولاء غير مشوب نحو مصالح فرنسا. إذا كانوا يسمحون لأنفسهم باختلاف في وجهات النظر ومعارضات تزداد وضوحا يوما بعد يوم والتي يصعب تجنبها مع ممثلي النظام الاستعماري، فإنهم لا يشككون أبدا في عظمة فرنسا الصانعة للحضارة ولا ينتهون من التعبير عن ولائهم لها.

¹¹⁷ "Rabah Zenati", op.cité, pp.60-71.

ولكن الامتحان المفصل للخطاب الإيديولوجي للمتقنين المفرنسين هو النقاش الذي يتطور حول مسألة التجنس بالنظر إلى العدد الضئيل من التجنسات الفعلية خلال هذه الفترة كان يمكننا القول بأنه نقاش من دون موضوع، ولكن المسألة كانت تقتضي الحصول على تغييرات في نظام الارتقاء إلى المواطنة الفرنسية. من مجموع خمسة كتاب درسناهم (3) في إطار مدونتنا، إثنان منهم فقط اختارا الجنسية الفرنسية: عبد القادر حاج حمو ورايح زناتي إلى جانب تشابه محسوس في الخطاب الإيديولوجي المطور عبر أعمالهم الأدبية، هذا الاختلاف في السيرة الشخصية ما بين الكتب يشهد على حدة النقاش والنتائج الشخصية والوجودية لكل موقف. لقد تم تكوين كل هؤلاء المتقنين على مقاعد مدرسة الجمهورية وفهموا جيدا شعار الثورة الفرنسية: حرية، مساواة، إخاء كيف كان لهم أن يقبلوا المساواة أمام الخدمة العسكرية، ولكن عدم المساواة في الحقوق السياسية؟ كيف كان أن يقبلوا بالحرية في التفكير ولكن الرقابة تسلط على الصحافة؟ كان من الواجب التسليم بالأمر الواقع، هذه هي المفاهيم التي تعلموها في المدرسة لا تنطبق على الجميع. كان هناك مواطنون من الدرجة الأولى وآخرون من الدرجة الثانية، هذا التناقض في النظام السياسي للجزائر المستعمرة والقيم الإيديولوجية للجمهورية هو أساس هذا الالتباس المتكرر الذي يميز كلا من الخطاب الاستعماري في الجزائر وخطاب الأهالي المفرنسين، ولكن إذا كان هذا الالتباس هو أساس نظام إيديولوجي ويهمس إلى مجموع الخطاب الداعي للإدماج، فإنه لا يصمد أمام امتحان الواقع، ومن غير الممكن أن يبقى في حال الالتباس في الوقت الذي يجب فيه الاختيار بين القانون الخاص بالمسلم وبين حصوله على الحقوق والمزايا التي يتمتع بها مواطنو الدرجة الأولى. قبول أو رفض التجنس بحسب القوانين السارية هو ساعة الحسم لكل خطاب يتبجح بفضائل الإدماج وعن هذا يتحدث أحد رموز هذا الجيل:

" يقولون لنا. تجنسوا ! ماذا سيكلفكم؟ إجراء شكلي، تصريح بسيط" ولكن كيف يراد لنا القيام بذلك؟ كل أمواتنا ينظرون إلينا من أعماق مقابرهم. هل بإمكاننا خيانتهم؟ أفهمونا، الإسلام صار باليا حاصرته أفكار الغرب من كل الجوانب، لا تطلبوا

منا التنازل عنه (...).دعونا نأتي إليكم كما نحن عليه، نستعيد عملنا بالشراكة معكم"118.

يشهد كل خطاب لهذه النخبة الفكرية المفرنسة عن رغبة حقيقية في بلوغ نفس المواطنة كأصدقائهم في المدرسة أو زملائهم في العمل من الفرنسيين، من الواضح أنهم يحلمون بجزائر متعددة الثقافات حيث تحترم ديانات مختلفة وحيث تعيش شعوب على تنوعها في وئام واحترام شامل، ويستفيدون من نفس الحقوق السياسية والقانونية. ولكن الحقائق الاستعمارية لا تسمح بمثل هاته الأحلام: يعمل النظام بطريقة لا تمكن الأهالي من الارتقاء إلى مستوى المواطنين من الدرجة الأولى إلا بدفع ثمن الخيانة. في غالبية الحالات، كل الذين اجتازوا هذه العتبة طردوا من محيطهم الأصلي ولا تستقبلهم عائلاتهم الجديدة إلا بمزايا مكنونة وأفكار مبيتة119.

ليس فقط النظرة المعاتبة للأباء في كل المجتمع المسلم هي التي تمنع الاستغناء عن الوضع الشخصي، ولكن منعاً قاطعاً تطالب به شخصيات دينية تحظى باحترام شديد.

نظرتي الحاسمة إلى التجنس والمتجنس؟ أعبّر عنها بوعي وباسمي الخاص وليس باسم العلماء، وبالطريقة التي نتصورها، التجنس، في إفريقيا الشمالية، يشكل إجراء ممنوعاً (حرام)، لا يسمح البحث عنه، إن الذي يستبدل القوانين الشرعية للإسلام بقوانين وضعية يقترف، طبقاً لسنن الإجماع، بدعة مشينة وردة عن الإسلام"120.

إذا كانت هذه الأقوال تنتمي إلى القسم الثاني من ثلاثينيات القرن، إلا أنها تعبر بوضوح عن معارضة المفكرين المسلمين في جمعية العلماء القاطعة لهذا الحل. وكل من لا يأخذ بهذه التوصيات، ينبذ نهائياً ويلقب بـ (متورني) إلى الأبد، أمام هذه الوضعية الحرجة، الأغلبية الساحقة للسكان لا ترتئي تغيير أي شيء من وضعها الأصلي. في

¹¹⁸ AGERON, Charles-Robert, « *l'Algérie des Français* », Paris, seuil, 1993, P. 164.

¹¹⁹ BENHABILES, Cherif « *l'Algérie française...* », PP. 112 – 113.

¹²⁰ "Cheikh Tayeb El Okbi", cité par Rabah Zenati, op.cité, p.96.

دوائر المثقفين المفرنسين تختار فئة قليلة التجنس لتبتعد هكذا طواعية عن إخوانهم في الدين، بينما تغوص الأغلبية في تعرجات التزام ذي حدين ليبقوا عاجزين عن إيجاد حل لذلك. وبناءً على هذا، فإن فشل الأبطال الأوائل للرواية الجزائرية باللغة الفرنسية يأخذ مغزى معبرا عن الحقيقة اليومية للكتاب المعنيين، يرافع رابح زناتي لفرنسا كلية التي من شأنها أن تجعل من " الجزائر امتداد لفرنسا" وجميع سكانها " فرنسيون من دون قيود، (...) جنود للجمهورية"121.

يعترف شريف بن حبيلس من دون أن يحكم لصالح أو ضد التجنس، بأن الأمر يتعلق باختيار شخصي وأن لكل واحد الحق في القيام به طبقا لقتاعاته ووعيه. وأخيرا فإن البعض أحسوا من الآن بأن المستقبل سيفتح طرقا ومسالكا أخرى لجميع شعوب الجزائر.

هذه إذن، ملخصة باقتضاب الخطوط العريضة لمفهوم الإدماج في الجزائر ما بين الحربين وموقف مثقفي الأهالي المفرنسين من هذه المسألة يمكننا من الآن الوقوف على حقيقة أن رواياتنا لا تتطرق أبدا وبطريقة مباشرة للنقطة الحساسة من القضية، ألا وهي التجنس، كما يمكننا ملاحظة أن الالتباس كان منذ تلك اللحظة عنصرا مكونا للخطاب الإيديولوجي الذي تدعي أعمالنا تصويره، لماذا التحير إذن من الالتباس الذي تنجز في إطار الروايات ؟ نعرف من قبل الآن أن خطاب الإدماج لم يصمد أمام اختيار الواقع التاريخي، سنحاول لاحقا معرفة إذا كان بإمكانه مقومة الخيال الأدبي.

2. العناوين الناطقة

المعلومات الخارجية التي تحيط بالعمل الأدبي وتمدده هي كثيرة وذات مشارب متنوعة وهذه بعض الأمثلة: العنوان، اسم الكاتب، المقدمة، الإهداء، الرسوم البيانية،

¹²¹ Op.cité,p.180.

الملاحظات، عنوانين الفصل وحتى اسم الناشر. يميز جينات بين نوعين من المعلومات بحسب معيار تواجدتها داخل النص أو خارجه¹²².

وعلى العموم، ومن خلال هذه العناصر يقوم كاتب الرواية بنجدة القارئ بالإشارة إلى طريقة القراءة المواتية لاستيعاب عمله. كما بإمكانه أيضا، وعكس ما سبق، أن يخلط الأوراق ويوجه القارئ نحو مسالك يناقضا فيما بعد النص الأدبي نفسه أو بينهما " معاهدة المطالعة" التي تساعد القارئ في التمرکز في المنظور المناسب لاستقبال عمل أدبي، في هذا القسم من دراستنا، سنولي اهتماما بالجانب الخارجي، وبالتحديد بالعنصرين اللذان يلعبان دورا أساسيا في معاهدة المطالعة الروائية: العنوان والمقدمة أو التوطئة.

ومن المناسب التحقق فيما بعد إذا كانت معاهدة المطالعة التي تتطور من خلال العناصر المختلفة لمحيط النص الخارجي قد تم احترامها في الرواية، أو هل شابهها تشوه أو حادث عن إثباتاتها أولية من الواضح أنه على مستوى المقدمة والتوطئات تكون حرية الكاتب أكثر عرضة للعرقلة بواسطة الرقابة الفعلية أو المفترضة. إنه وعلى هذا المستوى بالذات يؤدي الكاتب العربي أو البربري قسم الولاء للسلطة الاستعمارية المحلية، فضاء الرواية، مكان السرد الأدبي في حد ذاته، هو من الآن أكثر حرية وأقل خضوعا للمراقبة المباشرة للناشرين، ولكنه يحتفظ مع هذا وبصفة مستمرة بطابع ما يمكننا أن نسميه بالرقابة الذاتية لأوائل الكتاب الجزائريين باللغة الفرنسية، هذا الاختلاف في ظروف السرد، تفسر، جزئيا، الالتباسات والتناقضات التي نسجلها بين الخطاب المطور في المقدمات وذلك الذي يضم النص الأدبي تحديدا.

عموما يستعمل عنوان رواية للتعريف بها، لتسميتها ولتمييزها عن باقي الانتاجات المشابهة. ولكن وبالإضافة لهذه الوظيفة التعريفية، فإن العنوان يحمل في ثناياه جملة مهمة من المعلومات الموجهة للقارئ من طرف الكاتب، والتي تبرمج في قسم كبير استقبال النص، ينتمي العنوان إلى هذه المجموعة من العناصر ذات المدلول

¹²² GENETTE, Gérard, « *Seuils* », Paris, Editions du seuil, collection poétique, 1987.

التي توأكب وترافق النص الأدبي، أهمية العنوان في علاقة القارئ بالنص واضحة وأكيدة، لا يستدعي الأمر تبيانها، بالنسبة لأوائل الكتاب الجزائريين باللغة الفرنسية، اختيار العنوان كان يكتسي أهمية خاصة لأن حسن اختيار العنوان يجلب انتباه القراء المحتمل وجودهم بقوة وحثهم على القراءة، بالمقابل، إذا كان العنوان أرعنا يواجه الكتاب خطر رفض مؤلفه من طرف الناشر أو أن يتجاهله الجمهور المراد بالكتابة، كان كتاب مدونتنا إذن مرغمين على اختيار عنوان يسترعي انتباه وإعجاب الفرنسيين القاطنين في فرنسا وحتى أولئك الذين يعيشون في الجزائر والذين يظنون أن الحوار معهم ممكنا، إذا كان العنوان منفرا ويلغي هكذا عقد القراءة، لا تصل الرسالة إلى المقصود بها (المرسل إليه)، وبهذا يفقد عقد القراءة علة وجوده، وبالفعل فبالنسبة لكاتب رواية الأطروحة الذي يهتم قبل كل شيء هو التمكن من إيصال الرسالة إلى القراء الذين يعاصرونه، عند كتاب مدونتنا الاعتبار المتعلقة بالجانب الجمالي تكون ثانوية، في عقد القراءة، الوظيفة الشعرية للنص تبقى رهينة دوما بالوظيفة الإعلامية، الوظيفة الإغرائية للعنوان ستكون إذن ذات أهمية أساسية في أولى الروايات لهذا النوع من الأدب الذي يريد أن له فضاء في السياق الأدبي في الجزائر سنوات ما بين الحربين.

يتبع كل واحد من عناوين روايات مدونتنا حرفيا هذا الرسم نفسه والذي يشمل على قسمين: اسم يشير إلى بطل العمل الروائي متبوع بجملة اسمية التي تميزه وتعطي معلومة عن مساره، يتعلق الأمر وفي كل الحالات، بعنوانين موضوعيه التي تشير إلى محتوى النص الذي يتبع، إنهم أيضا، باستثناء وحيد، عنوانين بمعنى حرفي، يعيدنا إلى الموضوع الجوهرية أي إلى البطل الرئيسي للحبكة الروائية الاستثناء تشكله زهرة، زوجة عامل المنجم حيث أن المسماة في العنوان لا يمكن التعرف عليها بوضوح في مايلي على أنها الفاعل الجوهري للفعل.

وعلى العموم فإن الفاعل الرئيسي يوضع في المقدمة منذ الوهلات الأولى، يتجه انتباه القارئ طبيعيا نحو البطل ونحو المسار الذي يأخذه في هذه الروايات ذات التوجه البيداغوجي القوي، نحاول أن نصنع صورة ومسارا للذي تكون له القدرة في انجاز

تقارب بين الشعبين الذين يعيشان على أرض الجزائر، الاسم الذي نعطيه لهذه الشخصية الرمزية يكون ذا معنى بليغ وينتمي إلى مجموع الرسالة التي نريد إيصالها، الاسم الذي يؤخذ يكون ذا دلالة قوية فيما يتعلق بهويته، أو على الأقل عن الهوية التي يريد الكاتب إبرازها في الحياة الطبيعية، عندما يريد الآباء اختيار اسم لابنهما فإنهما لا يعرفان بعد الشخصية التي سيكون عليها، وعلى الأقل تكون لهما فكرة عن التربية التي يريدان توفيرها له، وعن الحياة التي يتمنيانها له. الأمر مغير تماما فيما يتعلق بالروايات، حيث أن الكاتب الذي يختار الأسماء هو في نفس الوقت السيد الفعلي للمسار وللشخصيات، إذن فإن الاسم هو العنصر الأول الذي يتم التفكير فيه وبنائه للبطل وعن الهوية التي يحاول الكاتب إظهارها من خلال عمله.

في الرواية الاستعمارية، لا تشغل الشخصية المنحدرة من الأهالي إلا دورا ثانويا ولا يستعان به إلا من أجل إصباغ قليلا من اللون على الأحداث، بداية لا يظهر أبدا في عنوان الروايات ليبقى دوره ثانويا وإلى الأبد، إنه و بداية من السنوات العشرين فقط بدأت تنشر روايات بعنوانين تحمل اسما لبطل عربي أو بربري، بداية في الأعمال التي تكتب بالتعاون، ومن ثم في غيرها أيضا¹²³.

تشهد هذه العناوين بداية بالاهتمام و حتى الانبهار الأدبي أحيانا الذي كان موضوعه الإنسان الأصلي للبلد والذي كان متجاهلا ومهملا إلى حد الساعة ولكن نتيجة نوع من التفتح لدى قسم من المفكرين في الجزائر الفرنسية.

بعد هذا الوصف الممزوج في الغالب بمسحة غربية (*exotisme*) الذي يصبغه المستعمر على الإنسان المنحدر من الأهالي، بدأ المستعمر من التحدث عن أنفسهم بلغة الآخر ولكن بكلماتهم الخاصة.

تبدأ روايات مدونتنا ومن دون استثناء باسم أو لقب عربي. للروايات الأربع لدينا اسمين مؤنثين. "زهرة ومريم" واثنان تذكير: "أحمد بن مصطفى" "العلاج"، دراسة الألقاب يجب أن تتزامن أساسا مع فحص مسارات الشخصيات التي تحملها

¹²³ Exemple. DINET Etienne et BAAMER, Ben Ibrahim, « *Khadra, la danseuse des Ouled Naïl* » Paris, Piazza, 1926 (Roman de 263 pages).

ولكن بعض الملاحظات تبدو لنا منطقية في هذا المستوى من المقاربة، بداية، وجود بطلتين من بين الستة أبطال تبدو لنا مذهلة نوعا ما بالنسبة لثقافة متأثرة بقوة بشرائع الإسلام المالكي حيث حقوق وواجبات النساء تتناقض واتجاه هاته الأخيرات نحو التظاهر والتفاخر والتباهي. تبقى "زهرة" مختفية نوعا ما طيلة أطوار الرواية ليطباق تصرفها ما ننتظره من امرأة متزوجة في العالم الإسلامي في المغرب، إنها تجسد المرأة العربية، مطيعة ورزينة دوما، محافظة على التقاليد ووفية لزوجها ولثقافتها. في القصة، يمكننا القول بأنها ليست هي التي تشغل مقدمة الأحداث إنه زوجها "ملياني" الشخصية المركزية التي تبني حولها العقدة الروائية، إذا كان القاص قد اختارها ليعطي اسمها لعنوان الرواية لسبب وهو أن مسارها يتميز بالإيجابية على النقيض من زوجها الذي يتعاطى شرب الخمر، والانحراف الأخلاقي، اتخاذ موقف غير مصرح للكاتب الذي من خلاله يحكم على مسار ملياني ليضع في المقدمة وينوه بمسار زهرة وبالرغم من أنها تموت عند نهاية القصة إلا أنها هي، في نظر القاص التي تستحق احتراما وثناءنا.

"من كان لا يعرف في مليانة، صبر زهرة، استغافها وشجاعتها!"¹²⁴.

وعلى النقيض من زهرة، بطلة رواية محمد ولد الشيخ، تتمرد "مريم" على المحرمات وتوصيات التقاليد وعلى أمها المسلمة، إنها من الآن ثمرة هذا الاختلاط بين الأجناس الذي ينوه به الكاتب والذي يريد أن يظهره من خلال عمله. إذا كان العنوان زهرة زوجة المنجمي" لا يستحضر، ومن الوهلة الأولى إلا "جرمينال" جزائري، "مريم بين النخيل"، يسوق من جانبه وعلى مستوى ضمني جرعة جيدة من الأغربة ممزوجة بمسحة من الحسية الجسدية. يستهوي هذا العنوان انتباه الجمهور المتعطش لمغامرات جديدة ومتفتحة على الفضاءات السرية لعالم المشرق ولكن اهتمام القارئ العارف بحقائق الإسلام سينتبه بواسطة هذا العنوان الذي يحيل عن غير قصد ربما إلى مقطع من القرآن الكريم، بالنسبة للمسلمين مريم هي أم المسيح عيسى عليه السلام، أحد

¹²⁴ "Zohra, la femme du mineur," P.241.

رسل الله وتتطابق مع "ماري" عند المسيحيين، اختيار هذا الاسم للشخصية الرئيسية في الرواية يصور بوضوح إرادة الكاتب في إيجاد أماكن التقاء بين الغالمين المتواجدين على أرض الجزائر، وإيجاد شخصيات تكون مقبولة من الطرفين والتي تصور التعايش الممكن ما بين الشعبين.

يمكن ترجمة هذا الاختيار على أنه رغبة في إيجاد ما هو مشترك بين التقاليد الموجودين على أرض الجزائر: المسلمة والمسيحية، ولكن وعكس التقاليد المسيحية التي بموجبها يرى المسيح النور في إسطنبول، يضع القرآن هذا الميلاد تحت نخلة¹²⁵.

هذا القسم الثاني من العنوان لا يدع مجالاً للشك: "مريام" التي تتحدث عنها الرواية ليست تلك التي نصادفها في الأناجيل بل تلك التي يتحدث عنها القرآن، هنا يكون مسار البطلة واضحاً: برغم تربيتها الفرنسية واللائكية، تختار مريم زوجاً لها من أستاذها للغة العربية لتعود هكذا إلى عالمها المسلم، الاسم العربي لأخيها، الشخصية الثانية في الرواية، له دلالاته أيضاً. كما يشير إلى ذلك أحمد الأنصاري¹²⁶.

حفيظ اسم شكل من الفعل الذي يعني باللغة العربية " يحرس يحتفظ، يصون" نكتشف هنا رغبة الم، ورغبة القاص أيضاً في المحافظة على الشخصية المسماة هكذا داخل هوية الأم.

نجد هذه الحاجة لتسمية الأبطال الرموز ومنذ البداية كذلك في الروايات التي أبطالها ذكور. أحمد، العليج، وفي هذا الصدد أشار جان ديغو بخصوص رواية " العليج أسير البربر" إلى توضيح حول دلالة اللفظ " عليج" بالعربية والذي يعني " حمار الوحش" حيوان قوي البنية أو فظ وخشن عندما يتعلق الأمر بالمعاملة عند الإنسان¹²⁷.

¹²⁵ تفسير القرطبي، سورة مريم (19) الآية 23-261، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الرغاية، الجزائر، 1991 الجزء 2، ص 24، 26.

¹²⁶ LANASRI, Ahmed « Mohamed Ould Cheikh », un romancier algérien des années 30 face à l'assimilation , Lille 3, André Billaz, 1985, P. 121.

¹²⁷ DEJEUX , Jean « Le double désir du même et de l'autre chez les romancier de langue française de 1920 à 1945, In actes du congrès mondial des littératures de langue française », Padove, Mai 1983.

أما في اللهجة المغربية المتداولة آنذاك، فإن اللفظ كان ينعت به كل شخص لا ينتمي إلى الأصول العربية وإلى غير المسلم أي من كان في حالة (بر بر) أي دون أي ديانة، وتلك هي مشكلة "برنار لوديو" (Bernard Ledieux) الشخصية الرئيسية للرواية بحيث أنه من أجل الحصول على حريته وتحسين وضعه المادي ليعود ويرتد بعدما عاش مدة طويلة في صراع وعذاب دائمين مع ضميره كونه لم يعتنق الإسلام إلا ظاهرا لينتهي مساره بالجنون ثم الموت فالبطل العليج إذا هو الشخصية المنبوذة من طرف الراوي الذي يدفع به في مسار نموذجي سلبي بداية من اختيار الاسم (عليج) أي كل من يتخلى عن ديانته فهو بربر متوحش. للإشارة، فهذه الرواية الوحيدة ضمن مدونتنا التي نتكلم مباشرة عن إشكالية الإندماج الديني لكن الرفض القوي للتخلي عن الدين هو السمة المميزة والثابتة في عناصر الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية.

عنوان الرواية الجزائرية الأولى باللغة الفرنسية، أحمد بن مصطفى، يتبع نفس هذه الرغبة في تقديم بطل رمز. في هذه الرواية التي تحكي السيرة الذاتية لمحمد بن شريف، لا يحمل البطل نفس اسم صاحب العمل الأدبي. ولكن الاسم المختار يبقى قريبا من اسم الكاتب، بالفعل يتعلق الأمر في كل مرة، في الواقع وفي الخيال بأسماء مختلفة للرسول الكريم، مصطفى هو أيضا اسم من أسماء محمد -صلى الله عليه وسلم- ويعني "المختار" الذي أصطفي من بين الجميع على أنه الأحسن، كل مسار البطل مليء بهذه القناعة على أنه مستدعي إلى شيء استثنائي إلى هذا الإحساس بالتفوق على باقي الشخصيات المحيطة به وزيادة على ذلك فإن كتابة العنوان الرئيسي للرواية يحتوي على عنصر آخر محير يستلفت انتباه القارئ بأنه يمسك بين يديه رواية تحكي مغامرات فريدة من نوعها، كتبها شخص فريد من نوعه، ومن جهة أخرى، يلمح "بن مصطفى" إلى سلالة تنحدر من النبي ليشير من جهة أخرى أن الأمر يتعلق بقياد للقياد، فعلا، فإن الكاتب كان "قياد" لأولاد سي امحمد، ولكن وبحسب معرفتنا فإن هذه التسمية "قائد للقياد" لا تتطابق مع أي منصب من المناصب المعروفة لتلك الفترة، وللصمود أمام اختبار الخيال ولشد انتباه القارئ المحتمل يفعل الكاتب كل ما في وسعه ليضفي على روايته صبغة الجاذبية، لتبدأ عملية الإغراء من الصفحة الأولى.

يبدأ الروائي الجزائري باللغة الفرنسية ومنذ الكتابة الأولى ومنذ العنوان الأول تقديم شعبه واثبات خصوصيته الثقافية والدينية، الرواية الاستعمارية وبخاصة عمل لويس برتراند على وضع صورة للمعمر المصلح، للشعب الجديد الذي يولد في البوادي الجزائرية، تشكل روايات مدونتنا إجابة غير واعية في بدايتها ومن ثم لتزداد وعيا يوما بعد يوم بالأغلبية العربية أو البربرية بالإهمال وحتى الإنكار الذي تواجه به في التصوير الروائي الاستعماري تعبر هذه العنوانين وهاته الروايات عن الحاجة التي يصعب تجنبها لكل شعب ليصنع لنفسه أبطالاً من خلال الخيال الأدبي، ونتيجة لذلك، فإن إحدى الحوافز الأولى لكتابنا هي قولهم للمستعمر ما هي حقيقة الرجل العربي أو البربري، يتعلق الأمر بتقديمنا للآخر بالشكل الذي نصنع به أنفسنا من خلال وصف يتم من الآن و صاعداً من الداخل وليس من الخارج كما كان عليه الأمر لحد الساعة، وفي نفس الوقت الرفع من قيمة الرجل والمرأة العربيين والبربريين الذين لهم المقدرة على القيام بالمهام والوظائف المنوطة بالشخصيات المعتادة في الروايات، ممثلو الفعل الروائي، يمتلكون جذورا وهوية خاصة، يتوجهون نحو مثل أعلى ملموس نوعا ما ويناضلون عن وعي من أجل الوصول إلى أهدافهم، تتجذر أسماؤهم في العالم العربي والبربري للجزائر، أنهم الأبناء الحقيقيون لشمال إفريقيا.

3.المقدمات

تعد المقدمة بالإضافة إلى عنوان الرواية، عنصرا مصاحبا للنص ذي أهمية قصوى. لقد أولى أوائل الروائيين الجزائريين باللغة الفرنسية أهمية خاصة عند استلام أعمالهم وهذا ما يفسر الكم الهائل للمقدمات التي تصاحب روايات المدونة، يتعلق الأمر بتقديم تحفيزات التي تقف وراء الإجراء الكتابي، التعقيب على اختيارات الكاتب وتوجيه استلام العمل الأدبي، كما نظن أنه من الواجب الشرح للقارئ لم وكيف عليه قراءة العمل الذي يلي، فمن بين الروايات موضوع دراستنا واحدة فقط لم يسبقها نص توضيحي أو تمهيدي محرر من طرف المؤلف نفسه، يتعلق الأمر بالعلاج أسير

البرابرة. ثم التقديم للأخر بواسطة مقدمات أصلية من تحرير أصحاب الروايات أنفسهم حين الإصدار الأول للرواية، روايتان مسبوقتان بمقدمات من تحرير أشخاص آخرين حين صدور الرواية والهدف الرئيسي من ورائها التقديم والتوصية باقتناء الكتاب، سنبدأ بدراسة المقدمات (**Auctoriales**) التي حررها الكتاب أنفسهم يتعلق الأمر بـ: أحمد بم مصطفى قوسي، مريم بين النخيل، وبولنوار الشاب الجزائري. وصف " جينات" الذي يلي سيكون بمثابة قاعدة لدراسة المقدمات الأصلية " المقدمة الأصلية التصاعدية والمحركة من طرف الروائي نفسه (...). دورها الأساسي ضمان قراءة جيدة للنص، هذه الصيغة المبسطة هي في الواقع أكثر تعقيدا مما يبدو بحيث أنها تدرس بحسب إجراءات: الإجراءات الأولى يشترطها من دون ضمانها، والثاني كشرط ضروري وغير كافٍ، 1 الحصول على قراءة و2 الحصول على قراءة جيدة."128

المهمة الأولى للمقدمة تفترض نوعا من طرف الروائي. بالفعل، فكيف يمكن تقييم النص والحصول على قراءة للعمل الروائي، مع الاحتفاظ بنوع من التواضع حتى لا ينزعج القارئ من خلال تقييم فاضح لشخصيته؟ عند كتابنا، يكون هذا التواضع طبيعيا مصحوب بحاجة لشرح الدوافع التي تقف وراء الكتابة. نطلب العفو لأخذ الجراءة والتحدث بلغة الآخر أو الأخطاء الواردة في الكتابة. نظام تبرير شخصي للكتاب الذين يشكون في الترحيب الذي ستلاقيه أعمالهم والمتخوفون من رفض دور النشر عند كتابة المقدمات خصوصا ومجمل أعمالهم الأدبية عموما تبقى هيئة الكتاب محددة في جزء كبير منها بالشك والخوف من الرفض، نظن أن الالتباسات والتناقضات التي تكثر في روايات المدونة تدرج بعمق في الحالة النفسية التي يكتسبها الخوف عند كتابة الرواية.

"...أريد وبكل بساطة أن أدخل الفرحة في قلوب رواد التقارب الفرنسي مع المسلمين بإهدائهم هذا العمل المتواضع، (...). ولذا أعتذر لدى القارئ للأخطاء والمساوئ التي قد يجدها وأستجدي عفوهِ ورحمته"129

¹²⁸ GENETTE, Gérard, Seuil, Paris, Editions du seuil, "collection poétique", 1987, P. 183.

¹²⁹ "Myriem dans les palmes", avant-propos de l'auteur.

الشك الذي يساور الخطاب المساق بالفعل الروائي، وكذا الشك الذي يحيط بالحكم الذي من المحتمل أن يوقع على الكتابة والأسلوب و حتى التأليف، هذه الحالة النفسية المصبوغة بالخوف كان لها تأثيرها على الإبداع الأدبي باللغة الفرنسية لهذا الجيل. نحس من خلال الكتابة بحاجة ماسة للرغبة في توضيح وتبرير المواقف وفي طلب العفو بعد الجرأة بالإباحة لنفسه بأخذ الكلمة.

ودائما وفي إطار الدفع نحو القراءة ولكن بمنظور أكثر ايجابية، نوضح الأسباب التي تدفع نحو الكتابة، بالتأكيد غالبا نحو الجدوى من الإنتاج الأدبي.

" كتبت من أجل تمجيد أمة عرفت كيف توقظ الحمية البطولية لشعب كان يغوص قبلها في نوم عميق." 130

نجد نفس الحاجة الماسة في التبرير وشرح الأسباب والدوافع التي تقف وراء الكتابة في مقدمة عمل سابق لنفس الكاتب، يتعلق الأمر بسرد لسفر طويل، حج إلى البقاع المقدسة، من المهم رؤية في هذه المقدمة التي لا تمهد لعمل "روائي خيالي، كيف أن بن شريف يستعمل نفس الصيغة في التبرير بالضبط. نجد نفس التطور تحديدا، الحاجة في التعبير عن الذات من الوهلة الأولى وضرورة تحديد الجمهور المقصود بالكتابة.

"كتبت هذا العمل إلى أولئك الذين مثلي قاموا بهذه الرحلة الشعائرية والذين اقشعرت أبدانهم وارتجت قلوبهم بأسرار مدننا المقدسة. (...) كتبت للذين لم يرتووا بعد من الينابيع الحية من حيث يأتي إيماننا، والذين من دون شك سيلتحقون بها في يوم ما. (...) ولكني كتبت على وجه الخصوص لأولئك الذين ورغم أنهم غرباء عن ديننا ونبينا المعظم، إلا أنهم مولعين وشغوفين بالإسلام." 131

هذا هو المقصود بأوائل الروائيين الجزائريين الذين كتبوا باللغة الفرنسية قراء مفتونون بسحر الشرق، الذين يجرؤون على القيام بسفر في عالم الآخر وليس مع

¹³⁰ "Ahmed Ben Moustapha goumier ", préface par l'auteur.

¹³¹ BENCHERIF, Mohamed, "Aux villes saintes de l'Islam ", cité par Charles Bonn..

مرشد يمتلك نفس المعالم ولكن مع شخص من الضفة الأخرى، لو أننا حاولنا القيام بالمغامرة، يؤكد كاتبوا المقدمات بأننا سنقوم باكتشافات غير مسبوقة، " بولنوار ليست رواية للتسلية والمرح، إنها أيضا دراسة للعادات العائلية في المجتمع الإسلامي الجزائري"132

قراءة المقدمات، إنه من الواضح أن البحث عن الهدف الرئيسي من هذه الإبداعات الأدبية لن يكون في الجانب المسلي ولكن في الجانب التعليمي أهمية الوظيفة التعليمية لهذه الروايات بالذات تظهر منذ الأسطر الأولى. الجدوى من هذه الروايات تكمن بحسب الروائيين في قدرتها في النقل إلى المستوى الخيالي، مميزات المجتمع المسلم، العربي والمسلم، نريد بهذا أن نظهر لفرنسيي الجزائر وفرنسا على حد سواء صورة أكثر صدق عن الواقع الجزائري والتي لم تقدم لحد الآن إلى الجمهور من وجهة نظر أحادية، فبالإضافة إلى الإظهار الصادق لهذا العالم الغريب للقراء باللغة الفرنسية، يريد الكتاب أن يوضحوا إمكانية وضرورة تعاون أكثر تنسيقا بين المستعمرين والمستعمرين، الهدف النهائي، الفائدة للأعمال على المدى البعيد تقاس بمدى قدرتها على التقارب بين العالمين الحاضرين على أرض الجزائر.

مسألة الإدماج أو مسألة الأهالي شكلت جزءا من الحياة السياسية اليومية للجزائر في السنوات العشرين والثلاثين من القرن الماضي، تعمقت هذه الكتابات في اليوميات المستعجلة للمرحلة تترجم كردود للكتاب على الأسئلة المطروحة لمائة سنة من العيش المشترك في الشمال الإفريقي، وهو ما تؤكد المقدمات: الفائدة المرجوة من الرواية التي ستقرؤونها هي اقتراح حلول جديدة لمشاكل استعمار.

"إنها دراسة سوسولوجية للمشكل الجزائري الذي يدور من دون شك حول "مسألة الأهالي". (...)، هل بالإمكان تحقيق الحلول الموصوفة في هذا المؤلف؟ إن

¹³² "Bou El Nouar, le jeune Algérien ", avant-propos de l'auteur

الحلول المقترحة مهمة في المحافظة على المصالح العليا لفرنسا وبخاصة بعدم المساس
بسيادة فرنسا على هذا البلد"¹³³

خطاب الموالاة القصرية باتجاه النظام القائم يشغل وظيفة مزدوجة. يوقظ انتباه
القارئ المهتم بمستقبل الوجود الفرنسي في الجزائر من جهة، كما يحذر من المخاطر
التي تحدق بالبلد إذا لم تطبق الحلول المقترحة في الكتاب من جهة أخرى، وهكذا، فإن
هذه المقدمة تقوم بمهمتين رئيسيتين من هذا النوع. الحصول على القراءة مع إيقاظ
الانتباه، وتوجيه هذه القراءة مع النصح بانجاز الرؤى المقترحة في النص الذي يلي،
الرسالة المضمورة في الجملة الأخيرة تشهد على شجاعة الكاتب، الذي يتجرأ على
الحديث عن مسائل خطيرة للمرحلة في حين أن كثيرا من معاصريه تجنبوا الخوض
فيها.

¹³³ *Idem*

الفصل الثالث الهوية المسلوقة أو الإدماج المستحيل

- الخطاب و الرغبة في الآخر
- النداء إلى العودة.
- الفضاء
- الديانة
- الواجب المستحيل
- إشكالية التأويل

الهوية المسلووية أو الإدماج المستحيل:

لقد قمنا في الجزء الأول من عملنا بوصف مبسط ومدرسي للمسار الروائي لأبطال الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية لأن هذا التقديم الوصفي كان ضروريا بالنسبة لمؤلفات غير معروفة على الساحة الأدبية وصعبة المنال لندرتها. ثم إن خلاصة الجزء الأول كانت قد سمحت لنا بالتعرف ومن ضمن محتوى المدونة عن زمرتين وذلك حسب النجاح أو الفشل للشخصية الفاعلة في حصولها على الطلب حسب البرنامج القصصي المتبع، هذا هو الفرق بين المسارات المستحيلة والمسارات الممكنة. في الحالة الأولى ينكشف الفاعل في عدم قدرته على انجاز الكفاءة المنتظرة منه وتكون نتيجة تصرفه سلبية. أما في الحالة الثانية فإن الفاعل له القدرة على الوصول إلى الشيء المطلوب وبالتالي ينتهي مساره بنتيجة إيجابية. لكن لا بد من الاعتراف هنا بان المسار الايجابي لمريم وأخيها جان حفيظ¹³⁴ تضمن التباسا كبيرا وهو في الحقيقة تناقض، حيث البطلين مكلفين من طرف القاص كما هو الشأن بالنسبة لأبطال المدونة، بمدح مكاسب و مزايا الاندماج أو التمثل، بينما يثبت مساره عكس ما هو مقترح في عقد القراءة. أما في الجزء الثاني من عملنا فقد قدما ميزات ما يسمى بالرواية الأطروحة وأخضعنا روايات مدونة بحثنا إلى هذا الإطار النظري مع دراسة الطريقة التي أظهرت بها تلك المؤلفات بأنها حالة لخطاب إيديولوجي. وبناء على نتائج المقاربة الوصفية و الإسهام النظري المتناول في الجزء الثاني، يهدف الجزء الثالث و الأخير في بحثنا إلى دراسة الحركة التذبذبية للكتابة ما بين الخطاب الإيديولوجي و البحث عن الهوية.

1-الخطاب و الرغبة في الآخر:

تسمح البنية السردية المبسطة التي تميز روايات بحثنا بالتعرف بسهولة على الشخصية الرئيسية في النص، كما سبق وان درسنا بان القصة تركز على بطل رئيسي واحد يصبو إلى تحقيق هدف لتتحرك أحداث الرواية من حوله.

¹³⁴ "Myriem dans les palmes".

وفي روايتنا، كان التعرف على موضوع الطلب بسهولة لأن الشخصية الرئيسية حاضرة في النص منذ الصفحة الأولى حتى يعلن مسارها في نهاية الرواية، في الواقع الخارج عن عالم البطل لا يولي أي اهتمام للسرد بحيث انه غائب من الفضاء الروائي، كل شيء يُقدم عن طريق رؤية الشخصية التي تتبع الطريقة المثالية المقترحة على القارئ، وهذا من السمات الخاصة بالرواية الأطروحة التي سبق التحدث عنها. وهذا أيضا من الأسباب التي تفسر عدم الاهتمام بالشخصيات الثانوية في النص حيث أنها تبقى عبارة عن "كليشيهات" أو صور التقطها السائح المنهمك في مواصلة رحلته، فتعود بذلك إلى التمثيل التقليدي لمكانة "الأندجين" في الرواية الاستعمارية المعاصرة. فالبطل النموذج للرواية الأولى ينحدر دائما من عائلة مرموقة و يقطن في الريف ("ملياني" ابن قائد و "احمد بن مصطفى" قائد). يراد بهذه الطريقة استغلال شخصيات مقربة من الشعب لكنها تتميز عنه بشيء من الرفاهية المادية و الثقافية. فالوقت لم يحن بعد لتقديم صور البؤس والمجاعة التي كانت تغطي الأرياف الجزائرية، فهناك شيء من الحياء في وصف الوسط الأصلي، ولا بد من التحفظ إذا عند تقديم صورة تصدم القارئ المستهدف و الموجود على الضفة الأخرى. أيعتبر هذا التصرف جهل للحقائق أو رقابة دائمة تميز كتابنا لهذه الفترة؟ ومهما يكن فان دور "الفلاح" الجزائري لم يَثْمَن إلا مع ظهور رواية "ابن الفقير" لمولود فرعون 135.

ثم إن هناك شيء ملفت للانتباه ألا وهو الحضور القوي لشخصية القائد في جل هذه المؤلفات الروائية الجزائرية المتفرنسة الأولى. هذا الموظف المسلم للجزائر الفرنسية الذي يقوم بمهام عدة في أن واحد، بحيث انه هو القاضي وهو المسير الإداري ورئيس الشرطة، يكون في غالب الأحيان منبوذ من طرف السكان الأهالي. لذا وضع الروائي الجزائري هذه الشخصية المعروفة من الطرفين و التي يمكنها أن توضح إطار التعايش بين العرب و الأوروبيين. إمكانية الإدماج هذه واضحة أيضا في "مريم بين النخيل" عند توظيف شخصيتي مريم وجان حفيظ اللتان تنتميان إلى المجتمعين، فهما

¹³⁵ "Feraoun Mouloud, le fils du pauvre", , seuil. 1954.

أبناء من ضابط فرنسي وأم مسلمة، أي ثمرة محاولة إدماج يستهلها البطلان. للإشارة فان جل أبطال رواياتنا ينحدرون من وسط ثقافي موحد ومنسجم وهو في غالب الأحوال عربي مسلم، لا احد من هؤلاء يأتي من المدينة و لكن من الريف العميق والذي يعبر عن صورة التهميش و التخلف. وبذلك تكتشف بان الأسس الثلاثة الرئيسية التي تكون الهوية الأصلية لأبطالنا تركز على الانتماء إلى ارض و إلى لغة و إلى دين مشترك.

ومنذ الأسطر الأولى للمؤلفات وبالرغم من تصريح هؤلاء الأبطال عن أهدافهم المثالية التي هي الصداقة، التعايش، التعاون النزيه فان مسالة التجنس غائبة تمام في هذه المؤلفات. "نتمنى أن نصبح إخوة منفعة"136، "ترسيخ تعاون نزيه"137 كما توضحه هذه العبارات و التي يفضل فيها الكلام عن "التعاون" و لا شيء غيره.

ثم إن قراءتنا كشفت لنا بان الخطاب الإيديولوجي الذي يظهر في رواية مدونتتنا يبدو اقل مساندة إلى جانب "الإدماج" من الخطاب الذي اشتمله كتاب نفس الفترة في مقالات صحفية أو سياسية138 فالخطاب الإيديولوجي المكيف للتخيل الأدبي يبقى دائما أقل تعبير مما يحمله نفس الخطاب في النصوص الأخرى139. ويمكننا القول إننا نقف عند شكل مبسط لأطروحة الإدماج المعبر عنها بواسطة الخيال، حيث إننا نحظر تعميم هذه الأطروحة من جهة والى فقدان قوة الإقناع لديها من جهة أخرى، هذا الأسلوب الذي يقدم في بداية الأمر الأطروحة بطريقة قوية وأمرة ثم يتراجع ويضعف حتى السخرية يتكرر في كل مستويات السرد، وهذا ما يظهر في الأمثلة الآتية. "قريمسي المنجمي، من أصل ايطالي، الرجل الذي يؤمن بتعايش الأجناس، يوجد في حفل شعبي بمرافقة عشيقته اليهودية روزيت"

¹³⁶ "Ahmed Ben Mustapha, goumier," p.71.

¹³⁷ "Boul-el-nouar", p.194.

¹³⁸ "Hadj hamou, AEK, l'islam est-il immuable," pp.599-611.

¹³⁹ Hadj hamou, AEK, et Randau, robert, "les compagnons du jardin".

"أنا أقول بأن كل سكان الأرض متساوون، لذا فانا من الرجال القلة الذين لا يحتقرون اليهود(...). – نعم، لَمَّا نفكر نجد أننا على خطأ عندما نتباغض إلى حد الوصول إلى إعطاء بعضنا أسماء حيوانات للتعبير عن قوة كراهيتنا للغير. لماذا هذه الكلمات (الألقاب)"بيكو"(bicot)، "يوبين" (youpin) للعرب و اليهود، هذه حماقة!140

وتتواصل المناقشة وسط جمهور المدعوين. "أوه! هؤلاء لبيكو" يحجبون عنا كل شيء بقبعاتهم العالية! هيا احمد، اترك الممر!141

من خلال الرد، نلاحظ أن الصوت القوي الأمر الذي يركز عليه الخطاب الإيديولوجي فقد تصلبه ليتراجع الحديث ويصبح متناقضا. غياب التلاحم و الإطناب المعبر عن تقديم الأطروحة يساير كل مراحل السرد في روايات مدونتنا بحيث أصبحت إشكالية الانسجام في الخطاب مطروحة.

فلا بد لنا من الاعتراف بان موضوع الطلب والذي يبدو واضحا منذ البداية يبتعد عن تناول الأبطال حيث يتحول إلى حقيقة جامدة عند التقرب من الحقائق اليومية المعاشة، فتضعف و تنسحب أسطورة الإدماج عبر مراحل السرد لأن الحقائق الاجتماعية و السياسية و الثقافية للجزائر الفرنسية لا تمنح أمالا كبيرة لتحقيق رغبات أبطالنا في ما يخص التعاون النزيه و المنسجم بين الطرفين، المستعمر و المّستعمر.

ماذا بقي إذا عن الأطروحة التي كان السرد يريد البرهنة عنها؟ تثبيط و فشل وخيبة أمل مقارنة بما عبّر عنه في المقدمات بما بقي شيء من المثل الذي ضحى من أجلها أبطالنا الذين تركوا عائلاتهم و قراهم ومدارسهم القرآنية، إختفى ما يمثل الإيديولوجيا فكان لا بد من تعويضه بأخر يكون في متناول البطل ويحافظ بذلك على دعم استمرارية المؤلفة الروائية.

¹⁴⁰ "Zohra, la femme du mineur", p.135.

¹⁴¹ Idem, p.136.

لذلك تم البحث عن شيء آخر، يكون سهل المنال و غير نظري وإنساني حيث توأجت بكل رواياتنا عقدة عاطفية أضفت إلى إشكالية الطلب الإيديولوجي والذي قدّم على أساس انه محرك الإجراء أو الفعل المستهدف منذ البداية. فالمؤلفة تحتاج بطبيعتها لحبكة روائية و عقدة عاطفية تساعد على تقارب العالمين الحاضرين في الفضاء السردي.

و قبل كل شيء لا بد من الإشارة إلى أن اللقاء يتم بين شخصين ينتميان إلى ثقافة و ديانة مختلفتين ، أي يكون اللقاء بين الذات والآخر، و هذا في كل حالات المسارات السردية المستحيلة.

فمحاولة التقرب من الآخر تبقى ثابتة بينما يمس التغيير المكان الذي تدور فيه هذه المحاولة.

هنا، ينوب خطاب الآخر عن رغبة الآخر، فيكون الانتقال من المستوى الثقافي إلى المستوى العاطفي. هذا التغيير لا يعني الفشل في تحقيق الهدف والرغبة ولكن يدل على التعبير عنه من خلال كل جوانب شخصية الفاعل في حالة التلفظ المميز لكتابنا، تطفو الطريقة المحتشمة التي يلجأ إليها في وصف علاقة الحب التي تربط البطل المّستعمر (بالآخر) بالمّستعمر. فعلاقة، "احمد بن مصطفى مع الصديقة الفرنسية " البعيدة اختصرت في تبادل رسائل محبة جد مهذبة بحيث تخفى فيها و بمهارة كل العواطف. و تتكرر الظاهرة في العلاقات التي ربطت " ملياني و تيريزا " أين اكتفى الكاتب بترك المجال للقارئ في تأويل نهاية قصة كان لا يجرؤ على كتابتها منذ البداية، الأمثلة كثيرة و متواجدة في كل رواياتنا التي يسيطر عليها هذا الاحتشام عندما يتعلق الأمر بالتعبير عن اللقاء الغرامي بين الذات والآخر.

وما يميز هذه العلاقة العاطفية المحتشمة هو أيضا أنها تتم دائما بين رجل (ذكر) ينتمي الى الدائرة الثقافية للمّسيطر عليه وامرأة من الدرجة الثقافية للمّسيطر. ويتم هذا حتى في العلج، أسير البرابرة أين كانت الأدوار متعكسة، حيث أن المّسيطر عليه يحاول تملك المرأة ابنة الرجل الذي يسيطر عليه. ففي كل مرة تتجسد الأطروحة الإيديولوجية المرغوب فيها عبر شخص المرأة، لنحضر إلى عملية تأنيث موضوع

الطلب والذي ترافقه تأنيث صورة فرنسا. هذا ما يؤكد أهمية حضور المرأة الأجنبية في الأدب المغربي المكتوب باللغة الفرنسية¹⁴²، نريد هنا أن نقف عند الحضور القوي والمتكرر لهذه المسألة التي تسيطر كعنصر ثبات في هذه المؤلفات الأدبية لكتاب هذه الفترة حيث يكتسب أبطالنا من خلال مساراتهم عناصر جديدة تضاف لإثراء مهاراتهم التي ترمي إلى تحقيق الوصول إلى الأهداف المسطرة، فبعد تبني لغة وإيديولوجية الأجنبي، يبحث الراوي الجزائري عن فتح باب يُمْكِنه من المرأة الأجنبية وذلك من خلال الوصف الذي يخصصه لها في كتاباته.

لكن فشل هذا المشروع يبدو جليا في اغلب الحالات حتى لو أن موضوع الرغبة الجنسية تحقق في بعض الأحيان، فان هذا الاقتران المختلط لم يحل كل السائل المتعلقة بالإدماج، فاعلم هذه الحالات باءت بالفشل. صديقة احمد بن مصطفى ظلت بعيدة عنه ولم تتجح في إزالة كآبته، وما علاقة ملياني و تيريز إلا ثمرة انتقام امرأة خانها زوجها مع أخرى. أما زواج العليج من زينب فكانت نتائجه مأساوية حيث سادها الردة والجنون الذي قضى على حياة هذا الزواج.

كما طغى نفس الفضاء الحتمي على زواج بولنوار من جورجيت اليورغينية حسب السرعة المدهشة التي سادت تعاقب الأحداث حيث تم اللقاء الغرامي فالزواج فالطلاق في اقل من عشر صفحات. "هذا وذاك رجع إلى عالمه كان ذلك المكتوب.143"

فهنا تضعف إمكانية نمو الرغبة في الأخر لتبين لنا السقوط المنتظر لأبطال روايتنا ليبقى الخطاب الإيديولوجي لأطروحة الإدماج غير منسجم مع الحقائق التاريخية التي تربط هؤلاء و هؤلاء.

وخلافا للمسارات المستحيلة التي سبق وصفها فان بطل المسار الممكن (مريم وجان حفيظ) الذي هو ثمرة اقتران بين "الذات" و "الأخر" مميز شيئا عن سابقه، انه

¹⁴² Dejeux, jean. "Image de l'étrangère, union mixtes franco-magrébine ", paris la boite a documents, 1989.

¹⁴³ "Bou-El-Nouar, le jeune algerien," p.206.

يأتي من المدينة لا من الريف ولا ينحدر من وسط ثقافي منسجم، ويحمل بطبيعته ومنذ طفولته آثار الغيرية كما انه لا يرغب في الإدماج ولكنه يريد الفرار منه، فهوية بطل هذا المسار الممكن هي صورة لإشكالية الزواج المختلط بين فرنسي ومسلمة. "لقد ارتبطت بالنقيب دوبيستي" () في لحظة جنون، دون أن تفكر في المشاكل التي كانت سيسببها لها التفاوت في العواطف والأذواق والمعتقدات بينها وبينه." 144

لا يملك حفيظ و مريم أيًا من الركائز الثلاث الأساسية التي تكوّن هوية أبطال ما سميناه بالمسارات المستحيلة، فهم غير متعلقين بأرض ولا يتكلمون اللغة العربية ولا يعرفون شيئًا عن ديانتهم والديهما. فهم لا ينشغلون بمسائل الهوية عكس أبطال الروايات الأخرى، يبحث البطلان عن السعادة التي يجدها في أحضان احمد وزهرة. تختلف نقطة الانطلاق بالنسبة لمريم وأخيها حفيظ مقارنة مع نقطة الانطلاق لأحمد بن مصطفى وبولنوار ومليانى حيث تنتهي المسارات فيها بالفشل ويكفل المسار في هذه الرواية بنجاح من حيث وصول البطل إلى تحقيق هدفه إذ سميها هذا المسار بالمسار الممكن.

يوجد الغموض الذي يسود هذه المؤلفة على مستوى المسار الروائي أي على مستوى الاتجاه الذي يسلكه طلب مريم، فهي موجودة بين عالمين لتكون صورة حقيقية للأهلي المندمج بحيث أنها مرغمة على اختيار رجل من بين الاثنين الذين يمثلان العالمين المتقابلين في الفضاء الروائي. فالمقابلة أو المواجهة بين ايفان ايباطوف (Ipatoff) واحمد للظفر بمريم هي نفسها صورة عن العالمين المتقابلين على ارض الجزائر.

في هذه المؤلفة، يفقد الزوج المختلط قيمته المتمثلة في تحقيق خطاب الإدماج حيث يستبدل بالزوج الذي يناسب رغبة الفاعل وذلك عندما يساير الراوي اختيار مريم حيث يعهد وصفا سلبيا ل"ايباطوف" وآخر ايجابيا لأحمد نده في صراعهما للنيل بحب مريم. فالرغبة هنا و الخطاب متناقضان منذ البداية خلافا للروايات الأخرى أين كانت

¹⁴⁴ "Myriem dans les palmes", p.19.

الرغبة تظهر كعنصر مساعد للخطاب من اجل دفع مسار الفاعل وتمكينه من تجسيد موضوع طلبه.

عدا زهرة، مريم وجان حفيظ، يبتعد كل أبطال روايتنا عن الفضاء العائلي للتقرب من آخر أجنبي، كثيرا ما يكون فضاء المدينة وذلك من اجل اللقاء بالأخر، لكن المدن الجزائرية ومجتمعاتها كانت غير مؤهلة لتلبية رغبة هؤلاء الأبطال لذا كانت المسارات تُختتم بالنفي أو الإبعاد نحو الضفة الأخرى من البحر. احمد بن مصطفى هجر قبيلته ليقاتل بجانب الفرنسيين حتى يموت في سويسرة، بولنوار يغادر أهله ليتعلم في المدينة ثم يهاجر إلى فرنسا أملا في وجود مجتمع آخر قادر على استقبال الزوج المختلط، وأخيرا ملياني الذي تخلى عن زوجته الزهرة مقابل صداقة غريمسي ولذات الخمر يهاجر هو الآخر ليعيش بالمغرب، أما بالنسبة لبطل العليج، الفضاء الذي كان قد يستقبله يرجعه إلى خانة الانطلاق حيث ينتهي زواج برنار لوديو بالردة عن الدين مرتين ثم الضياع والجنون.

وحسبما ذكر في الجزء الأول عن ميزات الرواية الأطروحة التي تهدف إلى إحداث وتفعيل سلسلة تغيرات سلبية أو ايجابية تمس الفاعل الخيالي للقصة لتسقط على الفاعل الحقيقي، قارئ القصة الذي يسلك طريق الفاعل الخيالي في تقدمه نحو تحقيق رغباته في حالة نجاحه، أما حالة فشله فإنها تعتبر درسا يجنب القارئ الطريق الخاطئ الذي لا بد من تحاشيه.

هذا ما نجده من خلال قراءتنا لروايات المدونة حيث تنتهي فيها كل البرامج السردية التي تهدف إلى التقرب من فضاء الأخر بالفشل، المنفى، السجن، الجنون أو الموت.

فبعد قراء فشل احمد بن مصطفى و بولنوار و العليج، لا احد يفكر في نجاح خطاب الإدماج. الفرق يكمن في سعادة مريم وهو ما نلتمسه في أطروحة الجانب الاستدلالي في الخطاب أما القصة فإنها تخالف ذلك لان البطلة مريم وجدت السعادة لما ابتعدت عن فضاء الأخر وعادت إلى اللغة و الدين و الثقافة الأصلية.

ونظريا فان كانت هذه الروايات تنتمي إلى صنف الرواية الأطروحة، الحقيقية التي تدافع عن خطاب الإدماج الذي تبناه كتابنا لقدمت تعلمنا مثاليا يدعم الأطروحة بحيث يعيش بولنوار السعادة مع زوجته جورجيت في الجزائر، ويجد لوديوس الطمانينة مع زوجته زينب وأبنة المفتي وتتزوج مريم مع المغامر ايباطوف.... إذا، فعدا مريم، كل أبطالنا ينجزون مسارا يدل القارئ من خلال وظيفته العملية بان لا يسير في هذا الاتجاه وهو ما يوضح لنا بان الروايات المدروسة لا تجسد النموذج للرواية الأطروحة بمعاييرها كما يعرفها س.ر. سليمان.

فهل هذه الروايات الأطروحة من نوع آخر أم هي روايات أطروحة غير ناجحة بسبب عوامل أخرى.

بعدئذ لا يمكننا أن نؤكد ان هذه المؤلفات من نوع الرواية الأطروحة وحتى لو تواجدت بها بعض الصفات لهذا النوع إلا أن الغموض يسود العلاقة الموجودة بين الخطاب الإيديولوجي المنشود وانجازه على مستوى القصة، فالشك و التناقض يسيطران على تأويل الوظيفة العاملة للفاعلين.

2 - النداء إلى العودة:

عرفنا فيما سبق بان المسار الروائي لأبطالنا وحتى القصة في حد ذاتها تقولان عكس ما أعلن عنه في الخطاب الإيديولوجي، فرغم كل محاولة الكتاب لتبني الخطاب الإيديولوجي الأجنبي، و رغم كل محاولات الشخصيات الفاعلة في الرغبة بالزواج من الأجنبية، فان أطروحة الإدماج بقيت معرضة للفشل. هنا، يبدو جليا أن الاهتمامات بالكتابات المقدمة توجد كليا في مسار البحث عن الهوية و الذي ينجزه هؤلاء الكتاب من خلال الإبداع الأدبي، فغموض الروايات يعكس صورة الحالة الوجودية التي يعيشها مؤلفوها، فرغم جاذبية المدينة الفرنسية لهم فان تعلقهم بقيم الدين الإسلامي ومجموعة من السمات الثقافية الخاصة بالعرب و البربر الجزائريين يبقى صامدا. فالروايات المدروسة ما هي إذا إلا بواكير تعبير فعلي عن الهوية الوطنية الجزائرية.

هذه الهوية، جماعية كانت أم فردية، نقارنها بقطعة نقدية، ففي الوجه الأول نجد مجموعة من السمات التي تميز كل شخص عن الآخر: اللغة، الدين، التقاليد، الأخلاق،

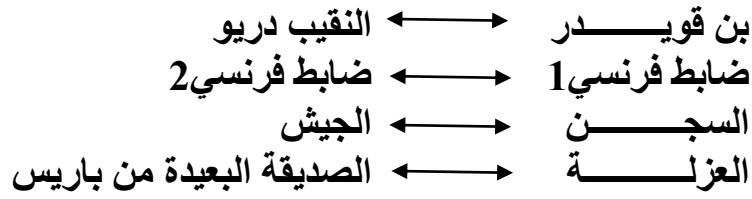
المظهر الخارجي حيث تتواجد هذه العناصر وبغض النظر عن الفوارق عند كل الأشخاص ولومن دون شعورهم بها.

أما الوجه الثاني للقطعة فهو مركب من مجموعة السمات المنسجمة نوعا ما و التي يصنع منها كل شخص هوية خاصة به. فيمكننا إذا التفريق بين هويتين لنفس الشخص أو نفس الأمة: في الوجه الأول (طرة) نجد الهوية الأصلية، وفي الثاني (نقش)، نجد الهوية المصطنعة. وما هو مؤكد أن التشابه يطغى على وجهي القطعة ولكن من الممكن أن نجد في بعض الأحيان، تناقضات تخل بتركيب عناصر هذه القطعة بحيث نرى بأنه كلما كان التشابه أكبر كلما كان نمو الشخص أو الأمة أكثر انسجاما، أما العكس فينجر عنه اختلال في حياة الشخص أو الأمة. هذا الإثبات لهوية جماعية مختلفة عن الأخرى و المكونة للمجتمع الجزائري تميز جل المؤلفات الفكرية لفترة ما بين الحربين، فمن الطبيعي أن نجد، في طيات روايات مدونتنا نفس الرغبة للتعبير عن الذات ولكن بطريقة يسودها الغموض الذي تكلمنا عنه فيما سبق، لذلك سنحاول فيما يلي الكشف عن كل العلامات المتعلقة لهذه الهوية الناشئة و التي تبحث عن وسائل تمكنها من الظهور.

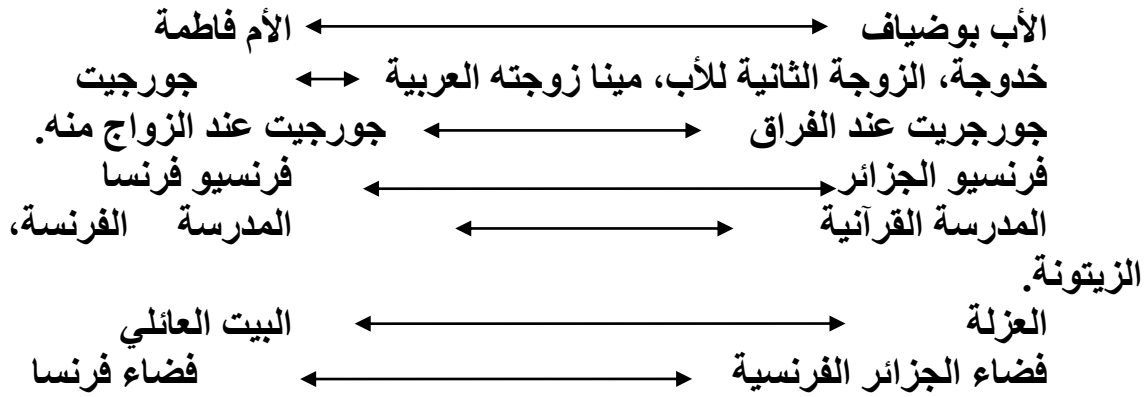
ومن أجل هذا، سنعود إلى مخطط "غريماص" لندرس التناقض الموجود بين مساعد ومعارض لمسار الأبطال، فوضعنا قائمة بيانية لكل من يقوم بوظيفة المعارض و المساعد للشخصية الرئيسية، ففي رواياتنا، يتجسد تمثل جزائر ما بين الحربين من خلال اتجاه تفرعي يظهر بوضوح الخط الفاصل بين قوى الخير و قوى الشر. فعندما نبحث عن التشابهات الدالة التي تجمع بين الممثلين المكلفين بالوظيفة العاملة نلتقي وفي كل مرة بأزواج مساعد/معارض متعارضة تعمل معا على مستوى الوظيفة العاملة و الوظيفة التأويلية.

وعمليا، قد وضعنا تطبيق المخطط العملي، على رأس القائمة ما يمثل الأشخاص ثم ما يناسب الفضاء وفي الأخير كل ما يمثل فكرة مجردة (إيديولوجيا، إحساس).

احمد بن مصطفى، القومي:

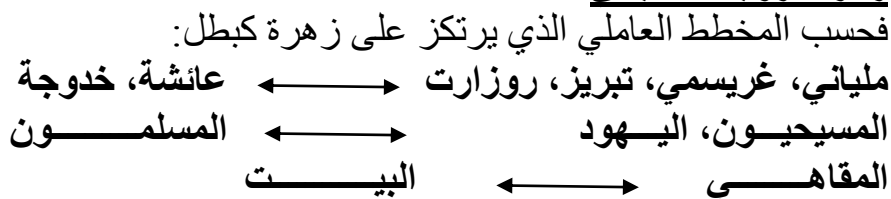


بولنوار، الفتى الجزائري:



نجد بان فضاء التقارب المقدم في المؤلفة الأول هو، وعلى غير العادة، الجيش عكس ما هو موجود في الإنتاج الأدبي الفرنكفوني أين يكون فضاء التقارب بين العالمين وفي غالب الأحيان هو المدرسة. وفي الحالتين، يمكننا القول بان الكاتب يسخر كل العناصر الضرورية، ومن خلال الخيال الأدبي، لبلوغ مبتغى كل بطل: المساعدون موجودون بقوة ولكن إرادتهم لا تكفي وحدها لنجاح مسار البطل في الظفر بما يبحث عنه. إنه يصل إلى التقرب من المجتمع الفرنسي و ثقافته عامة لكن برنامجه السردي لم يجسد أبدا، فالجزء واحد في الحالتين، عدم التفاهم و الرفض من الطرفين، فالعزلة و التخلي إذا عن المبادئ الكبرى التي تجند البطل من اجلها.

زهرة، زوجة المنجمي:



الخمرة ←→ الصلاة
اختلاط الأجناس ←→ تجانس المجتمع المسلم

نرى هنا بان المعارضين لطلب زهرة في الحفاظ على زواجهما هم أنفسهم الذين يعارضون ملياني: غريسي، تيريزا و روزات، المقاهي و الخمر كلها دمرت الحياة الزوجية بين زهرة و ملياني.

العج، أسير البرابرة:
البرابرة، الأسرى المسيحيون ←→ زينب، بابا حاجي، يوسف.

السجن ←→ منزل بابا حاجي.
الدين المسيحي ←→ الدين الإسلامي
الضمير ←→ النسيان

المسار السلبي لبرنار لوديو يشبه تماما المسارات المستحيلة لأبطال رواياتنا السابقة و الذين حاولوا التقرب من العالم الآخر و هنا تعتبر هذه الرواية الوحيدة التي التزمت فيها الشخصية الرئيسية وبارادتها أن تسلك طريقا يخالف رغباتها ووجدانها.

مريم بين النخيل

الأب الضابط دوبيسي ←→ الأم خديجة
ايبطوف ←→ احمد
المقاتلون البربر ←→ الجيش الفرنسي
واحة تافيلالت ←→ البيت العائلي

قائمة المساعدين و المعارضين هذه تتعلق بطلب مريم وهو بلوغها السعادة وتلبية رغبات أمها خديجة، أي العودة إلى المجتمع الإسلامي المؤمن.

وكملاحظة أولى نرى من خلال مجموع القوائم المدروسة بأن عدد المعارضين لطلب أبطالنا حاضرة بقوة ليسطر على الموقف فاليأس و العزلة هي ميزة كل أبطال الروايات الجزائرية المكتوبة بالفرنسية لتلك الفترة ثم أن المعنى الحقيقي سيطر على

الأطروحة إذ نجد الكاتب وظف المعارضين من الضفتين من العرب و الفرنسيين، فالخير و الشرير متواجد في المخيمين.

لكن لا بد من الإشارة إلى توضيح فيما يخص الفرنسي، ففرنسيو الجزائر يقومون عامة بدور سلبي إتجاه السكان الأصليين عكس الدور الإيجابي الذي يخص به الفرنسيون الذين يسكنون وراء البحر.

هذا التمثيل السلبي لفرنسي الجزائر (المستوطنون) في أدب هذه الفترة صادر عن جذور الحقائق الاجتماعية و التاريخية لفترة الاستعمار. وهذه ما نعتبره ثارا كرد عن التمثيل السلبي للأجبيين في الروايات الاستعمارية الأولى في الجزائر.

3-الفضاء:

الفضاء حيث تتطور الشخصيات التي تتحرى موضوع البحث يمكن أن يتوظف داخله دور حركي هام بحسب رسم غريماس وهكذا فإن فضاء مضادا للشخصية المركزية بالإمكان أن يلعب الدور الحركي المعارض أو على العكس نفس هذا الفضاء يمكن أن يكون المساعد في الحصول على موضوع بحث آخر من الملائم، إذن النظر إلى الفضاء حيث يتواجد أبطال الرواية وكيف لهذا الفضاء أن يؤثر على مساراتهم يمكننا تقسيم الفضاء حيث تتطور شخصيات الرواية إلى قسمين، القسم الأول الذي يشمل أماكن المحيط الطبيعي أو الأمومي للأبطال وقسم ثاني يشمل اللقاء بين الذات و الآخر، لقد احتفظنا بفضاءين لدراسة المجموعة الأولى: البيت العائلي و القرية. و فضاءين أيضا للقسم الثاني: المقهى والمدينة، بإمكاننا الحديث أيضا عن المسجد وضريح الولي الصالح بالنسبة للقسم الأول، والجيش وأماكن العمل بالنسبة للقسم الثاني، ولكن نتوقف عند الفضاءات الأربع المذكورة آنفا. نتصور سريعا أن العناصر المركبة للمجموعتين التي تم تعيينهما يمكن أن تقدم على أنهما تتعارضان مع بعضهما في وظائفهما. وهكذا فإن البيت العائلي و المقهى، القرية والمدينة، هي مجموعة نقائص تتعارض في وظائفهما داخل الرسم الحركي.

وعلى النقيض من الروايات الجزائرية باللغة الفرنسية لسنوات الخمسين، فإن رواياتنا تصور البيت العائلي كفضاء سلم و تناسق، ورغم بساطتها فإن بيوت الأبطال

تتسم بالترحيب وتلعب دور المساعد في تحري موضوع البحث كما تتميز بالحضور الرجعي للعنصرين المكونين للبناء التقليدي العربي الإسلامي، الماء و المرأة، منابع الحياة كلها.

"في حديقة أحد البيوت العربية الصغيرة في مليانة، اختلط ضياء القمر بأواني الأزهار وحوض النافورة بسحر يفوق الوصف، تتأمل زوجة ملياني في السماء، حيث تخنفي النجوم الواحدة تلو الأخرى." 145

"تقع مزرعة بوضياف على واحدة من الربوات العديدة (...). منبع متدفق جلب إليه في وقت ما من الحقبة التاريخية للمنطقة أوائل ملاك الأراضي الذين بنوا برجا بضع أمتار إلى الأسفل (...)" 146

سواء أكان حنفية، واد أو نبع يكون الماء دائما حاضرا بمحاذاة أو على الأفضل في وسط البيت العائلي تحديدا. كما لا يمكن بناء بيت من دون حضور المرأة أو الأم، هذان العنصران يملآن ويحددان فضاء البيت، وحيث أن الزوج هو رب البيت الفعلي ولكن حضوره يأخذ أهمية أقل من حضور المرأة. وهكذا فان ملياني في البيت إلى جانب زوجته زهرة في بداية الرواية يختفي شيئا فشيئا ليشتهر بغيابه عند نهاية الرواية خصوصا كما هو الحال بالنسبة لمريم التي تتواجد وحيدة مع ولديها في البيت العائلي حيث أن الأب قد وافته المنية منذ سنوات عدة، بالنسبة لموضوعي البحث في الروايات المدروسة يبقى البيت العائلي المساعد دوما بغض النظر عن الوجة وعن نجاح أو فشل موضوع البحث.

وهكذا وعلى سبيل المثال فيما يخص زهرة، البيت الذي تسكنه يصلح مساعدا سواء بالنسبة لها أو بالنسبة لزوجها السكير الذي يعد البيت العائلي بالنسبة له الملاذ الوحيد و الحقيقي في مواجهة الوادي السحيق الذي يتمثل في شرب الخمر و تأثير المقاهي والحانات وكان بإمكان ملياني أن يكون أكثر حظا في الوصول إلى موضوع

¹⁴⁵ "Zohra , La femme du mineur ", p. 47.

¹⁴⁶ "Bou-El-Nouar ",p.29.

البحث و لو كان يقضي اقل وقت في المقاهي وأكثر منه في البيت مع زوجته. المقهى هو مكان اللقاء بالأحر وهو في نفس الوقت المكان الذي يبدأ منه انهيار وانحطاط البطل. التقديم السلبي للمقاهي وتأثيرها المشؤوم على مسار الأبطال هو بمثابة عنصر بأثر رجعي في روايات المدونة. يبدأ ايباطوف في التحضير للانتقام من مريم لنرى بعض الأوصاف المعبرة.

"في المقهى، تنبعث من المشروبات الكحولية روائح مقرزة بحكم نتانتها: كانت الأعين محمرة، والأنوف أيضاً، كان الجميع يتحدث، كان الجميع يتبله وهكذا ينسى الجميع العذاب كما كان من السهل على الجميع أن يقادوا من أنوفهم، أن يسرقوا، أن يتعرضوا للضرب، وان يتعرضوا حتى للقتل عند السكر، عند الغياب عن الوعي نتحول إلى شيء جامد، أبله"147

"هذا التعارض بمفعول رجعي بين البيت العائلي و المقهى يتم عن تعبير ناجم عن حالة لا وعي سبق و أن سميها الهوية الأصلية، بحسب أطروحة الإدماج، فإن فضاء الالتقاء بين العالمين، بمعنى المقهى أو الحانة، عليه أن يشغل وظيفة مساعد على النقيض من البيت العائلي الذي يشكل فضاء عدم اللقاء بامتياز. الخطاب المتعلق بالإدماج يتحدد في نسقه وفي بعده بالتعبير عن الهوية الأصلية. يحدث نفس التعارض في العلاقة التنافرية ما بين القرية والمدينة. الغالبية القصوى من الأهالي في الجزائر الفرنسية كانت تعيش في البوادي في "البلاد" بحسب اللفظ المحلي. لقد سبق لنا التحدث عن مدى ارتباط المسلمين بأرض أجدادهم، بأرض القبائل التي ينتمون إليها، ومن الطبيعي جداً أن نجد سمات هذا الارتباط عند أبطال الروايات المدروسة، وكذلك عند القاصين الذين يبوحن بميولهم من خلال الأوصاف التي يصبغونها على هذين الفضائين.

من خلال هذا التقديم السلبي للمدينة وتأثيرها المشؤوم على الأهالي يقوم القاص بالقيام بوظيفته في التفسير التي تمكنه من التدقيق وإصدار الأحكام على كل معارض أو

¹⁴⁷ "Zohra la femme du mineur", p.130.

مساعد. في هذا الوصف للجزائر العاصمة، التقليل من قيمة العرب يتم بواسطة مقارنة كسلهم بحماس البريتونيين الذين يغنون بقوة وهم يعملون. في الواقع ليس فضاء المدينة هو السلبي في حد ذاته ولكن تأثيره على البطل الذي يفقد معالمه الثقافية، الأخلاقية و الدينية في هذا الفضاء الغريب. في أي من الروايات المدروسة لم نجد تصويرا لإدماج ناجح لشخص من الأهالي في فضاء المدينة. يموت أحمد بن مصطفى وحيدا في المدينة السويسرية حيث يقبع في احد سجونها. في الضيق الذي يعيشه ما بين أودية بلد الغربية، يحلم دائما بالهضاب اللامتناهية و النزعات على ظهور الخيل مع أقرانه من أبناء قبيلته أولاد نايل. المدينة الصغيرة المنجمية المعروفة بمليانة و الخليط البشري الذي يميزها هو في الحقيقة سبب فشل ملياني و زهرة اللذان جاءا كلاهما من البادية أي من فضاء متجانس وبهذا فهما غير قادرين على الحفاظ على استقامتهما على المحافظة على زواجهما، وبالتالي على سعادتهما في غليان المدينة. و الفضاء الغريب للمدينة يواصل في إغرائه أبطال روايتنا و الغوص بهم في التعاسة و الفوضى، وحتى اليأس ومن ثم الرذيلة. تختلف حالة مريم وأخيها جان حفيظ عن باقي الشخصيات بحكم أنهما كبيرا في الفضاء العالمي في المدينة الساحلية وإطار حياتهما الطبيعي هو المدينة ومع هذا فأنهما لا يحبان السعادة في هذا الفضاء المتعدد الثقافات الذي يقابل طفولتهما و تربيتهما ولكن فضاء رمزي آخر لهويتهما العربية المعبر عنها منذ الوهلة الأولى أي بعنوان الرواية الواحة.

هذا التعارض في الخيال الروائي ما بين فضاء المدينة و البادية هو صورة لحقيقة سوسيو تاريخية قدمت لنا في بداية هذا العمل. ولكن لماذا يصرح لنا الكتاب بالمحاولة في توضيح مزايا وإمكانيات الإدماج و يصورون دائما بطريقة سلبية الفضاء المميز للإدماج؟

و لماذا تكون الوظيفة الحركية لهذا الفضاء متعارضة دوما مع موضوع الشخصية التي تحاول الإدماج؟

أم هل لنا في أن نشك في مصداقية خطاب الكتاب في نفس الوقت الذي يتبنون فيه الخطاب الإيديولوجي للآخر؟

يمكن التقديم لحقيقتين أولهما: أن الأبطال الذين يريدون مواجهة الفضاء العدائي للمدينة لا يمتلكون الإمكانيات والمعرفة الضرورية لتخطي العقبات التي تنتظرهم في هذا الفضاء الغريب. الثانية وهي وانه رغم الجاذبية و الانبهار الذي يمارسه هذا الفضاء على الشخصيات فأنهم يحملون في أعماقهم الرغبة الشديدة في العودة إلى الأرض التي شهدت ميلادهم إلى فضاء الطفولة ومنابع الحياة.

ينهي مصطفى مساره عن رغبته في العودة في إحدى رسائله إلى "صديقه الكبيرة".

"الأمل في الذهاب هناك، تأتين أليس كذلك؟ سنعيش بعض الوقت، تحت الخيمة، حياة الذين يحسنون النظر وفهم الطبيعة في كل رعشاتها، الذين يحسنون الصلاة و الموت ببساطة بعيدا عن البلبلة والصراخ الذي يخترعه الناس بدعوى الحضارة".¹⁴⁸

نظرة أسطورية إلى جنة مفقودة مع الزمن والمسافة اللذان يبعدان عن هذا الفضاء. أليس هذا هو موضوع البحث الحقيقي لهذا القومي؟ هذه الرغبة في العودة إلى الأصل والشوق لهذا الفضاء المنسي والمهمل يأتیان للتشويش على الخطاب الإيديولوجي للإدماج ثم إن التعبير عن الرغبة في العودة لا يكون نحو فضاء الطفولة فقط: في فترة ما من تطور أحداث القصة، نعيش في كل رواية تقييما للشوق للحياة المعاشة قبل البدء في التحري عن موضوع البحث. تظهر هذه الدعوة المعبر عنها بالإمكان أن يتغير من مسار إلى آخر. هذه الرغبة في العودة يتم التعبير عنها من خلال تقييم مختلف العناصر لما سبق لنا أن سميناهها الهوية الأصلية وتجلب إنتباه القارئ بكثرتها و الإسهاب فيها وهكذا فإن ملياني يحلم بالفترة التي كان فيها متحررا من سلطة الخمر.

"الآن، انه الخريف! لقد كان الموسم المفضل عند ملياني، عندما كان هذا مسلما، حالما، محبا للتأمل، رجلا عاقلا ومحبا للخير، كان يميل للوحدة و الإكثار من

¹⁴⁸ "Ahmed Ben Mostapha, goumier", p. 179.

الصلاة، وهكذا! (...) كان بأخذ المسالك (...) ليستنشق هواء الجبل، ليدخل الغابات، ويشرب من نفس النبع الذي يهرب منه ابن أوى أو حجلة عند اقترابه، يدعو الله الآن أن يجعل من الرجال أختيارا، (...) و الآن، عندما يكون صدفة وحيدا يفكر في هذا الماضي المشوق ويبكي لكونه لا يستطيع العودة إليه ما دام أن الخمر قد (...) يبكي بشدة (...) يلعن اليوم الذي بدأ فيه العمل في المناجم و اليوم المشؤوم الذي أصبح فيه صديقا له ولا يفارقه طوال الوقت"149

بالنسبة لبعض من أبطالنا تبدو الرغبة في العودة أكثر وضوحا وتشكل المحور المركزي في البحث وهكذا فإن زهرة تعيش في انتظار عودة زوجها، وهكذا فإن الرغبة الشديدة "لبرنارد لوديو" في العودة إلى نويه تطفو إلى السطح بقسوة، وحتى مريم وجان حفيظ اللذان يعودان إلى الديانة و اللغة التي كانت الأم تريد أن تلقنها لهما منذ البداية.

وحياة بولنوار هي أيضا بمثابة عودة دائمة إلى المزرعة أبويه. فضاء الطفولة وما يحيط به يأخذ بعدا مغايرا من خلال موضوع البحث المباشر فيه. نظرة الأطفال إلى فضاء طفولتهم في الوقت الذي يدركون فيه فشلهم في الوصول إلى موضوع البحث في الوقت الذي تفشل فيه محاولتهم في الإدماج. نعيش إذن تقييما روائيا لهذا الفضاء، تقييم تصاحبه طبيعيا وفي غالب الوقت رغبة في الوصول إليه تحت واجهة الهوية المبنية والتي من الواجب أن تقابل الخطاب الأيديولوجي الذي يتم تحريكه من خلال الخيال الأدبي تطفو إلى السطح دائما ومن جديد ومن دون مقاومة الهوية الأصلية بمختلف مركباتها.

4- الديانة.

يتم التعبير عن مسألة العودة من دون شك وبإلحاح أكثر وبأكثر وضوح على مستوى الديانة من دون استثناء، ينتهي مسار الأبطال بالتأكيد على الطابع الخفي للعلاقة التي تربط الإنسان بديانته. في تطور تكوين الهوية الجزائرية، تشكل الديانة

¹⁴⁹ "Zohra la femme du mineur", pp.156-157.

ومنذ الخطوات الأولى، القاعدة المشتركة التي لا يمكن لأي كان إن يشكك فيها، المبدأ الأساسي للمصلحين المسلمين و المناضلين الثوريين منذ السنوات الأولى للقرن العشرين يرتكز على ثلاث حقائق من اجل التعريف بالقومية الجزائرية: الإسلام ديني، العربية لغتي، الجزائر وطني.

" من الواضح أنه من بين الحقائق الثلاثة تعد الأولى هي الأكثر رسوخا، الأقدم و الأكثر طبيعية في الهوية الجماعية لمجموع الأهالي. هل ينبغي التذكير بأن حلم جزائر مستقلة عن فرنسا ظهر للوجود مع التوجه الانفصالي لأوروبيي الجزائر الذين كانوا السابقين في إطلاق كلمة الأمر هاته: "الجزائر للجزائريين".

خلال أزمة معاداة اليهود عند نهاية القرن التاسع عشر 150 حيث يجب التذكير بأن أول بطل في الرواية الأدبية يصيح باعتزاز! "نحن جزائريون!" هو "كقايو"، البطل الممثل للشعب البسيط في الجزائر العاصمة. كما هي محاولة روبرت راندو للتمثيل الأدبي لـ "الشعب الفرنسي البربري الناشئ" بتصوير بطله كوسار البربري والتهئي النظري لهذا "الجنس الجديد" الذي سبق بسنوات قليلة تعبير عن الهوية الوطنية الجزائرية 151، من دون شك أنه في هذه الفترة كان المسلمون في الجزائر يشعرون بانتمائهم إلى الأمة المحمدية وأن مصادر القومية الجزائرية تغوص بجذورها في وحدة العالم الإسلامي. إذا كان هناك شكل للتعبير عن الوطنية في أوساط جموع الأهالي منذ الغزو، كان بكل تأكيد من خلال الديانة و الأغاني و الأشعار الشعبية التي تعلن أن مشعل الإسلام سيرفع وان المسيحيين المرابطين على أرض الأجداد سيتردون. ولكن لنعد إلى أدبنا.

بالرغم من أن استبدال الديانة بمعتقد آخر، بمعنى مسألة الردة، لا تظهر مباشرة إلا مرة واحدة في مجموع المدونة (العلاج)، لدينا العديد من المسارات بحيث أن البطل يبتعد عن التطبيق المنتظم لديانته الأصلية. ولكن في كل مرة، وبعد هذا الابتعاد، نعيش

¹⁵⁰ Ageron, Charles-robert, "Naissance d'une nation, in l'algérie des Français ", Paris,Seuil, 1993. Pp.185-204.

¹⁵¹ Randau, Robert, article, "l'algérianisme, In Afrique ", bulletin de l'association des écrivains algériens.

في فترة ما من المسار وغالبا عند العودة إلى النهاية والتعبير عن التوبة. لنرى بعض الأمثلة عن هذه الرغبة في التوبة و العودة إلى مبادئ الديانة و التعارض ما بين الديانات كما هو معبر عنها في روايات المدونة.

في هذه المدونة، حيث يبقى الموضوع الأساسي متعلق بمسألة الإدماج، نستغرب لوجود في كثير من الروايات تفصيلا للإسلام على حساب الديانة المسيحية. يعبر القاص لروايتنا وفي الكثير من المناسبات، و النبرة السلوطية التي يتميز بها، عن التأثير المشؤوم لمعاشرة المسيحيين للمسلمين. كما أن هذا التقارب يحكم على المسلمين ومن دون شك بالانحطاط والخفض من قيمتهم الشخصية، وفقدانهم للنزاهة و الاستقامة الأخلاقية و الدينية. وهكذا فإن ملياني ولمرات عديدة يلعب من طرف زوجته و المؤمنين المقربين منه "بالمسيحي" وبطريقة تحقيرية وذلك بسبب تصرفه لأنه يشرب الخمر ولأنه يعاشر المسيحيين الخ... إن الشخصية التي تبتعد عن الإسلام تنزلق لا محالة في منحدر الرذيلة، يلعب أولا بالعاصي ثم بالمرتد(المتورني، المتورنية للمؤنث) وأخيرا بالرومي(المسيحي). هذه الكليشيهات المقولبة للمسيحي السكير، الكافر و الزاني بدأت تتطور في صمت، ولكنها تشكل الرد المحتشم على التصوير السلبي للسكان الأصلي (انديجان) بأنه كسول متعصب وظلامي الخ... في الرواية الاستعمارية في كتاب عبد القادر حاج حمو أكليشيهات سلبية حقيقة عن مختلف الشعوب، اليهود¹⁵²، البربر، المغاربة، الأسبان، الايطاليين الفرنسيين و المتفرنسين، كلهم لديهم مساوئ لا يتورع القاص في تسليط الضوء عليها.

زهرة هي الوحيدة التي تحتفظ بنزاهتها ولا تتعرض للخفض من قيمتها من طرف القاص أو إحدى شخصيات الرواية. تكمل مسار المسلم المثالي في القصة وتطلق حكما قاسيا على المسيحيين وعلى تأثيرهم المشؤوم على الأهالي:

¹⁵² "Zohra ,la femme du mineur".

"آه!... الروميون!... لقد أفسدوا رجالنا، لقد رموا بهم في برائن الجهل، لقد أفقروهم وجعلوا منهم مسيحيين مثلهم، أشخاصا منحطين يعتقدون أنهم لا يموتون أبدا!"¹⁵³.
إذا كانت رواية عبد القادر الحاج حمو تتميز خصوصا بهذا التعارض ما بين الشعوب و الديانات التي تلتقي في الجزائر، أعمال أخرى تقلد نفس هذا الرسم المبسط لهذه المسألة، وهكذا فإننا نجد نفس النهج بحيث يفقد البطل هويته الإسلامية بسبب اتصالاته بالمسيحيين.

هنا الابتعاد عن الإسلام(أو عن الديانة الأصلية) وقيمها تتبعه دائما التوبة و الرغبة في العودة وبطريقة معبرة نسبيا، يتم التوق لهذه الرغبة حتى في الفترات التي يكون فيها الابتعاد غير فعلي خلال المسار المكتمل. ولكن فشل محاولة الإدماج تولد تطورا بحيث أن الدعوة العودة إلى الأصل ترتسم متعارضة مع المحاولة الفاشلة. ننظر إلى أمثلة ملموسة. عند نهاية مساره، يقضي ملياني مدة 05 سنوات في السجن ثم يتحول من جديد إلى مسلم مواظب: يستقر في المغرب حيث يسمي نفسه "المنسي"، يدير مطعما مسلما، لا يقترب من الخمر ويصلي بانتظام "ليتوسل للحكم العادل (الله) تكفيرا غير مستحق لذنوبه"¹⁵⁴، وزهرة المسلمة المثالية التي تتفوه بالشهادتين عند الموت، الإقرار بالإيمان في الديانة الإسلامية¹⁵⁵. وهكذا فانه في رواية العليج أسير البرابرة حيث تنقلب الأدوار. يعيش القارئ تغيرا مفاجئا أكثر دلالة بسبب المسافة التي يقطعها البطل برنار لوديو الذي يحاول مغامرة الردة عن دينه لا يستعيد أبدا الاطمئنان الروحي و ينتهي به المطاف بالجنون عند نهاية المسار: يكفر بالإسلام علنا أمام جمع بهت لما صدر منه في المسجد ليواصل بصلاة مسيحية تعبيراً عن عودته لديانته الأصلية. وحتى بالنسبة لأحمد بن مصطفى، الذي لا يبتعد خلال مساره عن ديانته، لا ينسى القاص بالتعبير عن تعلقه بديانته عند الموت.

¹⁵³ "Zohra la femme du mineur". P.109.

¹⁵⁴ "Zohra", p.262.

¹⁵⁵ "Zohra," p.255.

"لقد قبل بالنهاية المحتملة باعتزاز الجندي الذي يموت من أجل وطنه مؤمنا

بالقضاء و القدر"156.

وأخيرا لدينا مسار مريم وجان حفيظ نتاج التربية اللائكية لأبيهما الذي كان يعارض أي فكرة عن التربية الدينية لأبنائه في بداية القصة، بحسب ألفاظ القاص، فأنهم يتواجدون في المجال المحايد "للعصرية التي هي عدو كل دين...157" ولكن الأم خديجة التي تحس بالمسؤولية أمام هذا الوضع المشؤوم بالنسبة لأبنائهما تراقب مسارهما ولا تحلم إلا بشيء: أن تعيدهما إلى ديانة وتقاليد أجدادهما وعلى العكس من أبطال المدونة، كل المسار الذي يقومان به يوضع تحت تأثير العودة منذ الصفحات الأولى، خديجة التي تبدو فيه قلقة على مستقبل ابنيهما تذهب إلى الشيخ تطلب النصح منه. في هذا اللقاء، توكل إليها مهمة (على مستوى التحريك) لإعادة الأبناء إلى الطريق السوي "علمي إبنك القرآن الكريم، أجب الرجل التقي، سيعودان حتما إلى الصواب. القرآن هو نور البشرية في هذا العالم المتحلل الذي هو بمثابة مركب مشرف على الغرق... عبادة الخالق هي الخلاص بالنسبة لهما"158.

و بالفعل تتابع أحداث القصة بهذه العودة المنطقية لهذين الشابين اللذان يبدأن التعلم المثالي تماما كباقي أبطال المدونة، مع تعلم اللغة العربية (تعلم المهارة). الفرق الوحيد، أنه يتعلق الأمر هنا، ليس بتعلم لغة المحتل التي يتقناها بما فيه كفاية، ولكن يقتضي الأمر تملك لغة الديانة، إدراك هذه اللغة يمكن البطلين من العودة إلى الديانة الأصلية و النجاح في مسارهما بالعودة إلى قيم المجتمع العربي وإنجاز بهذا التعلم الوحيد المثالي والايجابي لمدونتنا كلها.

يتم التعبير عن العودة إلى الديانة في مستويات مختلفة من القراءة للروايات المدروسة. لقد رأينا أن نداء الديانة الأصلية يرافق الأبطال خلال مسارهم وحتى إذا

¹⁵⁶ "Ahmed ben Mostapha", p.182.

¹⁵⁷ "Myriem dans les palmes", p.23.

¹⁵⁸ Idem pp.23-24.

ابتعدوا عنه في فترة معينة من القصة، إلا أن التعبير عن التوبة التي تعيدهم إلى الأمة المحمدية أساس هوية الأهالي في الجزائر تزخر به جميع الروايات.

نود أن نقدم مثالا آخر على مدى أهمية وتأثير الديانة التقليدية على مسار أبطال الروايات. يتعلق الأمر بتشخيص المرابطين في الخيال الروائي، وإبراز على نحو محسوس تأثيرهم على مسار أبطالنا، أصل كلمة "مرابط" هي تحوير لكلمة "مرابط" باللغة الفصحى التي تعني الرجل الذي يعيش في رباط، أي دير حصين. تطور الإسلام في إفريقيا الشمالية نتج عنه عبادة شعبية أكثر حيوية حول المرابطين و الزوايا التي تعد الأماكن التي تسكن بها الطرائق الدينية ومراكز تعليم علوم الدين، في المغرب العربي كلمة "مرابط" أخذت معنى مطابق مع مختلف المظاهر الدينية الشعبية: الرجل التقى الذي نطلب النصيحة منه، لضريح الولي الصالح، للذين ينحدرون من هذا الولي، لمختلف الأغراض المقدسة التي تحيط به، وأخيرا إلى المقدسات بجميع فئاتها. في الجزائر، ومنذ سنوات الأولى للقرن العشرين، حاولت حركة العلماء المصلحين محاربة التأثير المشؤوم و الضار للطرقيين و المرابطين باتهامهم بأنهم يجربون الوجه الحقيقي للإسلام الطاهر و المساهمة هكذا بالإبقاء بالشعب المسلم في ممارسات دينية مصبوغة بالخرافات و المعتقدات الباطلة و التطير ومخالفة التطور في هذا المستوى، تلتحق حركة الشباب الجزائري العلماء وتقتسم آراءهم. يجب محاربة أفكار وتأثير الطرقيين بسبب الجهل و الانسلاخ الثقافي و العلمي الذي يساهمون به لإبقاء الجماهير المسلمة منغمسة فيه، لهذا فانه من المهم دراسة صورة المرابطين و الزوايا بالنحو الذي تظهر به في روايات مدونتنا.

نجد في رواية "زهرة زوجة عامل المنجم" وصفا مفصلا لمرابط و المعتقد الشعبي الذي يحيط به. يتعلق الأمر بما سمي بسيدي احمد بن يوسف الولي الصالح لمليانة حيث لا يزال ضريحه يجلب إليه الكثير من الزوار على مدار السنة، إسم الولي المحلي يذكر بانتظام في كل الأحاديث ولكن وعند منتصف القصة، لدينا وصف مطول نسبيا لحادثة سنوية التي تشكل الوقت الأكثر تعبيراً عن المعتقد الشعبي للمسلمين في مليانة، يتعلق الأمر بالوصول إلى المدينة لحج منظم وهام.

"أخيرا وصل الحجيج، ذهب الموسيقيون المسلمون لملاقاتهم، أعلام سيدي بن يوسف مرفوعة، كنا ننادي نصرخ من جميع الاتجاهات، كنا نتحرك، كنا نجري، كنا نذهب ونأتي، الضحكات، الزغاريد، الصراخ، النداءات، بكاء الأطفال، ركض الأحصنة، صوت البارود هناك كلها تعلن عن البدء في حفل بهيج الشرطة تراقب رشق البارود يقترب، لا أحد يمشي على الطريق يقترب الحجيج بهدوء كان عددهم الستمائة تقريبا"159

هذا الوصف الملون بمسحة دخيلة لوصول الحجيج بطابع مميز لكتابة تدعو للإدماج، حيث أن القاص يحاكي وينقل أسلوبا للأدب الخاص بدراسة الأجناس. وصف من وجهة نظر خارجية خاص بالنظرة الموجهة إلى البلدان البعيدة من طرف السياح القادمين من فرنسا، وحيث أن كل شيء وضع لجلب إنتباه هذا المسافر. الخطاب الذي يلمح لهذا الوصف يستمد مجموع آرائه من القيم الإيديولوجية التي تصب في اتجاه الإدماج؛ يوجه خصوصا إلى فرنسا البلد الأم وينتج ثقافة المحاكاة. الحفل الشعبي يحرك المدينة برمتها. من بين الجموع يختلط المسلمون باليهود وحتى بالمسيحيين، عمال المناجم بالقياد الأطفال الشيوخ وحتى النساء، نشاهد حاكم المدينة يمر، يليه نائبه، قياد المحكمة الإسلامية، فرسان عرب وحتى مصور جاء مباشرة من باريس، بإختصار ينتهز القاص الفرصة ليعرض في رتل متتابع كل الذين يشكلون مجتمع هذه المدينة المنجمية الصغيرة من الجزائر المستعمرة. في الواقع الوظيفة الرئيسية لهذا المشهد هي تحريك على نحو عرض جذاب، أطروحة التعايش الممكن و الهادئ بين مختلف مركبات المجتمع الجزائري. مع المصور /النحات الباريسي، وحتى فرنسا البلد الأم حاضرة تنتهي هكذا اللوحة التي تظهر الجانب الأروع في الإيديولوجية الداعية للإدماج ليتمكن غريميسي من التصريح بحقيقته المتعلقة بالأخوة بين الشعوب.

¹⁵⁹ "Zohra "p.177.

"أنا اقول أن كل سكان الأرض متساوون (...)وأظن، أنا، أن الديانات هي التي

فاقت من الكراهية ما بين البشر عندما لا يقتسمون نفس الاعتقاد. 160 "

وهكذا إذن الاحتفال بالمرابط المحلي يحول إلى فسحة من الوقت المميز للالتقاء الأخوي بين جميع سكان مليانة: تختفي الاختلافات الثقافية و الدينية و تنسى الأحكام المسبقة المتعلقة بالأجناس في الاحتفال المشترك حول ضريح الولي الصالح من خلال النداء الموحد و التأثير الإيجابي للحدث على المشاركين وعلى المتفرجين، نعيش محاولة من القاص للرفع من قيمة الإسلام. وبطريقة متعارضة مع محاولة تقييم ديانة المستعمر باتجاه القارئ المتفرنس تتشكل في فضاء (فضاء المرابطين) أن النظام القيم لدى الكاتب يرفض ويبيدي أحكاما سلبية، الخطاب الإيديولوجي يحاول تقديم وبصورة إيجابية أحداث هذا الحج ولكن الالتباس العميق للمحاولة لا تتأخر في الظهور في القصة بالرغم من بعض التعاليق الإيجابية للقاص، يفقد الاحتفال تدريجيا كل قدسيته ليتطور الوصف وبنفس الوتيرة من تقديم للوصف للحدث الديني إلى محاكاة الاعتقاد الشعبي بصورة سلبية لنذكر جملة فقط للبرهنة عن الطابع الكاريكاتوري لهذا التقديم "نشرب هنا ماء مباركا ولنبتعد هكذا عن عبادة المرابط" 161

وعلى النقيض من المقاهي، فضاء آخر حيث تلتقي مختلف الشعوب، وحيث لا نحتسي خمرا يحولنا إلى بلهاء و لكن ماء مباركا يجنبنا الفساد يصل الخطاب الداعي إلى الإدماج إلى حدوده عند المبالغة فيه. إنه لا يحاكي بسخرية الاعتقاد بالمرابطين ولكنه يسخر حتى من خطابه الشخصي. ينتهي بكلام مبتذل ومخيّب للأمال مع دعوة تيريزا لملياني لتناول فنجان قهوة في بيتها وإجابة هذا الأخير الذي يتمنى الحصول لا على قهوة بل على كأس من الكحول المعطر بالأفسينين، نصل هنا إلى الحد الملموس لكل رواية ذات أطروحة التي تلاحظ بصفة خاصة في الرواية الجزائرية باللغة الفرنسية للمرحلة والتي يسميها الحاج ملياني الطرق المسدودة للإيمائية. 162

¹⁶⁰ *idem* p.176.

¹⁶¹ *idem* p.181.

¹⁶² "Meliani, Hadj, *compromis discursif et impasses du mimétisme polycopie du CRIDSS* ", 1983, p.37.

ومع أن زهرة التي تعيش هي الأخرى هذا المشهد تحتفظ بكل هدوءها. تلاحظ وتحكم على أفعال المشاركين الآخرين خصوصا أفعال زوجها. فصل هام في دراستنا لمسار الأبطال، إنها الفقرة الوحيدة من النص التي تظهر فيها الشخصيات الأربع الأساسية في نفس الفضاء: غريمسي الإيطالي يوجد هنا مع زوجته اليهودية روزات ملياني المسلم المنحرف هنا في أحضان تيريزا زوجة صديقه، وحتى زهرة المسلمة المستقيمة حاضرة تشاهد مكتوفة الأيدي زوجها مع هذه الغريبة وهما في مشهد مهين.

" غريمسي كان هنا مع روزات وحتى تيريزا التي لا تريد التخلي عن ملياني، وزهرة المسكينة تنظر من أعلى الشرفة إلى زوجها مع هذه الأوروبية. هذا ما قالتها لها عجوز يهودية، تبيع الملابس القديمة وقارئة للحظ في بيتها، لتعيده لها في الحمام" 163

زهرة، فضلا عن وضعيتها المتميزة، تنظر إلى كل هذا العالم الذي يدب و يغوص في التناقضات ومظاهر البؤس أمام أعينها. إنها تسيطر على المشهد بكل ما تحمله الكلمة من معنى. إنها الوحيدة التي تحافظ على تكاملها الأخلاقي برفضها النزول إلى المستوى الذي تختلط فيه القيم و برفضها لعب دور الكومبارس في الخطاب الداعي إلى الإدماج. لقد سبق لنا الحديث في الجزء الأول من هذا العمل عن هذه الوضعية المميزة لزهرة التي تحكم وتشجب من خلال نظراتها ومن خلال زوجها ملياني كل خطاب إيديولوجي يسعى إلى الإدماج. دراسة هذا المشهد عن وصول الجميع إلى المرابط تؤكد نظرتنا التي قلنا بموجبها أن زهرة هي البطلة الإيجابية في الرواية، الوحيدة التي تحافظ على شموخها وعزتها وتكاملها على طول النص الروائي. وهذا بالرغم من فشلها في محاولة إنقاذ زوجها من الهاوية السحيقة التي يغوص فيها وحتى بالرغم من وفاتها. إنها تجسد المقاومة الرفض من خلال مسارها بينما لا يحقق زوجها إلا محاكاة سخيفة لما يعرف بالمقاومة التحاور.

لا يعد عبد القادر الحاج حمو الروائي الوحيد من مدونتنا الذي يتحدث ويصور المعتقد الشعبي من خلال الخيال الروائي. روايتان تمكننا من اكتشاف مدى أهمية

¹⁶³ "Zohra ", p. 182.

المرابطين و الأولياء الصالحين المحليين بالنسبة للأهالي. يتعلق الأمر بـ: مريم بين النخيل وبولنوار الشاب الجزائري. وفي كل هاته الحالات لا يتعلق الأمر بوصف مطول ومفصل كالذي جئنا على دراسته في زهرة زوجة عامل المنجم، ولكن تكرار هذا العنصر له دلالاته من دون شك. كل رواية تصور مشهداً لزيارة في فضاء مقدس و اللقاء بشخص ذي طاقة وسلطة خاصة (مرابط، عرافة، شيخ عالم)، ليأخذ مكاناً في نفس الوقت خلال السرد القصصي ليتقمص في كل مرة نفس الدور في المسار الروائي للشخصية المركزية. لننظر باختصار إلى تفاصيل ودور هذا اللقاء في الروايتين المذكورة آنفاً.

لا يستطيع والدا بولنوار من أن يقررا هل بالإمكان السماح أم لا لابنيها بالالتحاق بالمدرسة الفرنسية. وكما في الحالة السابقة، تقترح الأم كذلك بالذهاب لطلب النصيحة لامرأة صالحة، تنحدر من عائلة مرابطين، يسافر الزوجان صحبة، تستقبلها العرافة بحديث مطول مليء بالرموز لتعطيها في الأخير موافقتها على أن يبدأ الطفل دراسته في المدرسة المسيحية.

"هذا الطفل المسكين... أن أحس بالشفقة عليه يريدون منعه من تعلم كيفية امتطاء الخيل إنهم لا يريدون منه أن يصبح فارساً..."

أغمضت عينيها، استلقت على فراشها ونامت مرعدة في هدوء "هذا مسموح به... مسموح به" كانت هذه هي إشارة الذهاب وإشارة النصر بالنسبة لبولنوار. 164

يتكرر نفس السيناريو للمرة الثانية في المدونة مع قصة مريم وجان حفيظ حيث أن الأم اليائسة من رؤية أبنائها يترعرعون في كنف الإسلام تذهب لاستشارة الشيخ عالم كبير معروف بعلمه وطيبته وحياته المستقيمة و الكريمة. 165

تماماً مثل والدا بولنوار، تقلق خديجة على مستقبل أبنائها، تتبع نفس الطريقة التي تطلب بموجبها النصح من شخصية ذات سلطة مميزة، يختلف تركيب المشهد قليلاً

¹⁶⁴ "Bou-El-Nouar," p.59.

¹⁶⁵ "Myriem dans les palmes," p.29.

ليشبهه في الواقع إقرار بالذنب عند الكاثوليك حيث تتعرف خديجة بالخطأ حين تزوجت مسيحياً وترجو من الله أن يغفر لها. الشيخ "شريف و رحيم" يواسي المرأة المسكينة المنحرفة عن الطريق، ويؤكد لها أن رحمة الله وسعت كل شيء ليقدّم لها النصائح.

"علمي أبنائك القرآن الكريم، أجاب الرجل الصالح، سيعدون حتماً إلى الصواب، أن القرآن هو الدليل والسراج المنير لكل الناس في هذا العالم المنحل الذي هو مركب في مهب الريح... عبادة الله الواحد هي السبيل الوحيد للنجاح. 166"

يختلف هذا المشهد وقليلاً عن تلك التي نصادفها في الروايات السابقة، ولكن وظيفتها في تسلسل الحكمة الروائية يبقى نفسه يتعلق الأمر هنا بوظيفة في نفس السياق الذي يتحدث عنه "بروب" والذي بإمكاننا تسميته مانح شيء سحري. 167

في جميع الحالات يتم تحريك الإجراء بواسطة الأم وفي كل مرة يقوم الشخص ذو سلطة روحية خاصة بتوجيه النصح للآباء لتوجيه أبنائهم نحو الدراسة، الفرق الوحيد أنه في هذه الحالة يتعلق الأمر بتوجيه الأولاد نحو اللغة العربية ومن خلالها نحو الإسلام.

هذه المقاربة المختصرة لوظيفة المرابطين و الرجال الصالحين المحليين في التسلسل الروائي تؤكد لنا أنه عند البدء في الإنتاج النصي نجد حتماً الالتباس كمبدأ محدد للإنتاج الأدبي لكتاب المدونة.

كيف يمكن ترجمة التناقض الذي ينجر عن التنديد من جهة بالسلطة و الممارسات التي يقوم بها المرابطين وتوكيلهم من جهة أخرى بوظيفة ذات تأثير إيجابي على مسار البطل؟

التباس عميق يميز وظيفة هذا الشخص ويظهر على مستوى هذا الوصف كما على مستوى الأفعال.

¹⁶⁶ *Idem* pp.23-24.

¹⁶⁷ PROPP, Vladimir, " *morphologie des contes* ", production française, Paris Seuil, collection Points, 1970, p.256.

كما هي الحال في وصف وصول الحجيج في رواية زهرة زوجة المنجمي المدروسة سابقا، نعيش إيمائية في الوصف التقليدي للرواية الكولونيلية أو في الأعمال المتعلقة بدراسة الأجناس وحيث نفضل التقديم للخصوصية الفاتنة وجمال المنظر الطبيعي ليتواصل ببؤس الأهالي الذي يسكنونه، يصور المستعمر عالمه لا من الخارج كلية ولا من الداخل كلية، والنتيجة رسم كاريكاتوري للتقاليد الدينية المتعلقة بالمرابطين ومن هنا أيضا الحط من قيمة الأحداث التي تؤثر على مسار البطل، بحيث تطفو السخرية من جديد على مسار الشخصية، نجد هذه الظاهرة في رواية بولنوار الشاب الجزائري خلال الزيارة عند العرافة التي سبق لنا التقديم لها سابقا. ردود أفعال الأب بوضياف للخطاب المرمز للعرافة والتعبير عن ارتياحه من حقيقة قدرة هذه المرأة بيبين نفس النموذج المميز للأوصاف لدى المهتمين بدراسة الأجناس، ومع هذا فإنه وفي هاته الرواية أيضا يتم تحريك موضوع البحث بموافقة العرافة التي يقلل من قيمتها في السرد الروائي، هذا البحث الذي يراد من ورائه التأكيد على إمكانية الإدماج، وعليه، فإن المسار الكلي للبطل يتم انجازه في إطار نفس هذا الالتباس الذي تم تحديده منذ بداية البحث إيمائية القاص تؤدي إلى طريق مسدود على مستوى تناسق الخطاب يؤكد الالتباس الذي يميز هذا الأدب الناشئ.

لقد بدأنا هذا الفصل بالتأكيد على أن الدعوة للعودة إلى الديانة الأصلية تحدد بعمق وبطريقة جوهرية مسارات أبطال رواياتنا، و الملاحظات التي قمنا بها تؤكد مدى وثاقة الصلة بهذا التأكيد، التباس الروايات الأولى للأدب الجزائري باللغة الفرنسية مرده في غالب الأمر إلى هذا الضغط الذي يصعب تجاوزه ما بين خطاب الإدماج الذي تبناه الكتاب والدعوة إلى العودة التي تسكن أعماق النفس البشرية، الحركة التذبذبية للكتابة ما بين تطور الخطاب الإيديولوجي وتصوير البحث عن الهوية هي نتاج هذا الضغط أيضا.

وعلى النقيض من الروايات ذات الأطروحة التي تفرض بطريقة سلطوية تعبيراً عن الخطاب باتجاه وحيد، نلاحظ أن الروايات الجزائرية باللغة الفرنسية لفترة ما بين

الحربين تؤسس من خلال ضعفها وتناقضاتها، لإمكانية تعدد المعاني وهذا برغم المحاولة الجلية للكتاب في التأثير وتحديد استقبال أعمالهم.

5-الواجب المستحيل: غياب المقصود بالخطاب:

نصل إلى المحور الأخير من الرسم التمثيلي وهو الذي يجسد العلاقة ما بين المرسل والمرسل إليه (المقصود).

الدراسات التي تهتم بالأفعال باستثناء القائمين بها تبدأ منطقيا بدراسة وتقديم هذين الفاعلين اللذين يتواجدان، أولهما عند المنبع و الآخر عند مشارف موضوع بحث البطل.

لقد قررنا معتمدين قلب نظام التقديم التقليدي لندع دراسة هذا المحور إلى آخر المطاف لاعتقادنا بأنه يمثل الإشكالية الأكثر تعقيدا في لمدونة، كلما بدا لنا من السهل تحديد الفاعل وكذا موضوع البحث بالإضافة إلى المعارضين والمساعدين في روايات المدونة، كلما كان من الصعب الإحاطة بدقة بالمرسلين وبالمقصودين بالرسالة النصية لموضوع البحث الروائي.

على مستوى خارج النص، يكون تحديد الهوية هذا اقل إشكالية و الدراسات السابقة بهذا الإنتاج الأدبي تصل بنا إلى خاتمات متشابهة تقريبا، يمكننا التقدير بان: "الإيديولوجية الداعية للإدماج التي توكل لفاعل. المرشح للإدماج- للبحث عن الموضوع تحصيل المعرفة من اجل الإدماج." 168

دراسة المقدمات و الإرادة التي تبديها الروايات لمحاولة تسويق أطروحة الإدماج و الطابع التعليمي والإرشادي للأعمال تؤكد مدى ملائمة هذا التأييد لقد رأينا أن التصور الذهني للإدماج لم يكن مبلورا بنفس الطريقة عند ممثلي السلطة الاستعمارية في الجزائر وعند العقول النيرة من الليبراليين في فرنسا البلد الأم.

نفس هذا التصور الذهني، كما يبدو من خلال مختلف الكتابات عند المثقفين الجزائريين لفترة ما بين الحربين، يختلف أيضا بحسب قراءتنا إذا كان من الممكن التأكيد أن المرسل الذي يتواجد خارج النصوص الأدبية لروايتنا هي الإيديولوجية الرامية للإدماج، إنه و بالعودة إلى مفهوم الإدماج بحسب تصور للمثقفين من الأهالي

¹⁶⁸ Achour, Christiane, « le regard assimilé », In cahiers de LG et comparée, N°5, 1981, p.47.

للفترة ذاتها بصفة عامة ولحركة الشباب الجزائري بوجه خاص، لقد سبق وان رأينا أنهم يريدون من وراء كلمة " الإدماج " المساواة في الحقوق السياسية و الاقتصادية، الحق في التعليم والتطور التكنولوجي وفي الأخير التعاون العادل مع الفرنسيين داخل الجزائر ولكن، وبغض النظر عن بعض الحالات المنعزلة لم يكونوا يفكرون في التخلي عن الوضع الاجتماعي المحدد بالإسلام أو التخلي عن الدين أو الثقافة التي ورثوها عن الآباء، هذا التصور عن الإدماج يختلف بوضوح عن ذلك الذي يراد له من طرف ممثلي السلطة الاستعمارية التي لا تعتبر "قابلا للإدماج" غلا ذلك الذي " يتطابق " مع الذات، بمعنى ذلك الذي يستغني عن هويته الأصلية. على مستوى المرسل، بمعنى في الحالة التي بين أيدينا وعلى مستوى الخطاب الداعي للإدماج، تصنع رواياتنا منذ الآن فرقا محسوسا مع الرواية الاستعمارية في الجزائر.

وبالبقاء دائما في مستوى خارج النصوص الأدبية، تحديد المقصود بالرسالة في الروايات الجزائرية يشكل إشكالية بنحو أكثر. بحسب كريستيان عاشور فإنه ما من شك بأن التوكيل مرسل إليه من جمهور القراء المتمدن في جزائر جديدة حيث أن المستعمر والمستعمر يصنعان معا وجه الوفاق بين الشعوب بمعنى الامتداد لفرنسا 169

التوجه بهذا الإنتاج الأدبي إلى فرنسا البلد الأم كان إذن مقبولا بأغلبية الدراسات المختصة للرواية الجزائرية باللغة الفرنسية لفترة ما بين الحربين. بحسب هذا التصور يتوجه الخطاب الروائي الجزائري إلى مخاطب يقع في أعلى التشابك التي أوكل لها بالمناسبة دور الحكم في الصراع القائم بين المستعمر و الذي يظلمه مباشرة أي الفرنسي الذي يعيش في أرض الجزائر. المخاطب المثالي بالنسبة لكتابتنا هو الذي يمثل فرنسا أسطورية بمقومات إنسانية التي أيقظت التعطش للحرية والمساواة في قلوب الذين يرتادون مدارسها، إنغلقت الحلقة، رسالة الإدماج الصادرة بداية من فرنسا نحو الجزائر المستعمرة تعود ثانية إلى المتفوه بها بداية في طبعة مغايرة ومؤلمة بحسب نظرة الأهالي المسلمين. هذه النظرة للمرسل إليه المرجو من الروائيين الجزائريين

¹⁶⁹ *Idem* pp.47-48.

باللغة الفرنسية الأوائل هي مقبولة من طرف الجميع ومع هذا فإن بعض النقاد يجدون بأنه من الضروري ملاحظة الطابع الإشكالي لهذا التوجه.

(المفارقة لهذه الرواية كونها إنتاجا جزائريا تكمن اقل إذن في محتواها) الداعي للإدماج)، منه في توجيهها الاجتماعي. المرسل إليه (المقصود بالخطاب) سواء أكان وهميا أو حقيقيا الذي نلتمسه بالطلب (170

بالفعل فإنه من الصعب علينا معرفة وتقدير حجم الاهتمام بهؤلاء الروائيين في كل من الجزائر وفرنسا. الوثائق التي تمكننا من الإطلاع عليها لا تتحدث كثيرا عن الواقع الحقيقي لهذا النوع من الأدب. نعرف جيدا أن بعض الجرائد في المستعمرة، خاصة القريبة من التيار الجزائري قد فتحت أعمدتها للكتاب المنحدرين من الأهالي. نعرف أيضا أن بعضا من كتابنا كانت لهم علاقات صداقة مع كتاب وناشرين من المعمرين. عبد القادر الحاج حمو مع راندو ومحمد ولد الشيخ مع مدير جريدة وهران، مبدأ كان يستلزم على أعمالهم أن تكون سهلة البلوغ بالنسبة للقارئ المتفرنس في المستعمرة، أكان من أصول أروبية أو الشريحة الرقيقة من الأهالي التي تستحسن قراءة الفرنسية. من جانبنا نظن أنه بالتوازي مع أهدافهم اتجاه فرنسا البلد الأم، فإن هذه الروايات الأولى ساهمت في الحوار حتى وأن كان ضئيلا وغير محسوس والذي بدأ يتطور داخل دوائر المثقفين في الجزائر المستعمرة.

الأجزاء المختلفة من دراستنا برهنت بما فيه الكفاية وانه ورغم ضعفه، فإن هذا الإنتاج هو أكثر من تكرار مدرسي للخطاب الإيديولوجي الذي وضعه النظام الاستعماري، تلاحظ نجاة خدة هي الأخرى أيضا التوجه المزدوج لهذا الأدب الناشئ.

"... تبدو الرواية الجزائرية على أنها إجابة مزدوجة إجابة من جهة للرواية الاستعمارية التي ترفع في وجهها صورة للمواطن الفرنسي الطيب في مكان صورة

¹⁷⁰ "Belkaid, Naget Khadda, (en) jeux culturelle dans le roman algérien de langue française ", paris, 1987, p.106. (thèse)

العاصي الأبدى المناهض لكل عمل من شأنه التحضر، ومن جهة ثانية للخطاب القادم من فرنسا ليأخذ عنه شكليا الاستصواب والمبادئ " 171

وهكذا فإن الروائي الجزائري باللغة الفرنسية لفترة ما بين الحربين، يبين وحتى بطريقة لا شعورية، الفضاء الأدبي حيث بالإمكان أن تطفو منه الكلمة المطالبة بالحق وبوضوح خلفه في سنوات الخمسينات.

وبالإضافة إلى ذلك يبدو لنا جليا من خلال الكتابات، التأسيس لنقاش ما بين المثقفين المنحدرين من الأهالي حول مختلف المواقف التي تبناها كل واحد منهم بخصوص وضعيتهم الوجودية الملموسة.

من الأكيد انه وبكتابة نصه، كان الروائي يفكر في الانتقاد الذي سيأتيه من طرف المتمرسين في الأدب الروائي، ولكن وفي نفس الوقت كان أكيد أنه لم يكن بإمكانه نسيان إخوانه في المعتقد عند (عبارة كانت متداولة في تلك الفترة)، وما كان بالإمكان أن يظنوا ويقولوا عند قراءاتهم لهاته الأعمال. إذا كانت طلبات التجنس ضئيلة بهذا الشكل، لسبب وهو رفض التنازل عن الوضع الاجتماعي الشخصي والخوف من العزلة والاحتقار من طرف الغالبية القسوى من المسلمين. وعليه، فإنه من الواضح جليا وفي الوقت الذي يعبر فيه كتابنا عن وجهة نظرهم بخصوص الإدماج، يأخذون بعين الاعتبار أو على الأقل يفكرون في استقبال أعمالهم من طرف إخوانهم في المعتقد. هؤلاء هم إذن، بحسب تصورنا المقصودون خارج النصوص بروايتنا: بداية القارئ المثالي، ممثل فرنسا الأسطورية والعادلة، ثم مجموع الطبقة المثقفة في الجزائر من بين هؤلاء المذكورين أخيرا، يجب الأخذ في الحسبان الذين ينتمون إلى الأقلية من أصول أوروبية التي نحن مرغمون في تقبل هيمنتها من جهة، والذين ينتمون إلى الأغلبية من الأهالي بحيث لا يمكن تجاهل أرائهم ووجهات نظرهم. إذا قبلنا بوجهة نظر الروائي الجزائري باللغة الفرنسية الممزق بين عالمين يجب الاعتراف بأن اهتمامه يبقى مرتبطا بذويه أيضا. هذه المحاولة في تحديد القراء المفترضين المهتمين

¹⁷¹ Idem p.109.

بهذا الأدب الناشئ، يجب أن تكون متبوعة بمسعى من شأنه أن يفرق بين الفاعلين الذين يتكفلون بوظيفة المرسل والمرسل إليه على مستوى النص الأدبي. فعل تحديد وحصر المرسل والمرسل إليه المفترض في روايتنا لا يجيب عن كامل تساؤلاتنا المتعلقة بمكانيزات سير هذا الأدب. بالفعل فإن خطاب الإدماج هو أساس البحث الذي يباشر فيه الأبطال ولكن يجب على هذا الخطاب أن يمكن وبطريقة ما الفاعل حتى يتمكن من الإلمام به ويصبح هكذا مرشحا للإدماج. باختصار عند طرفي محور الواجب، يتوجب علينا محاولة التفريق بين الفاعلين في النصوص، الذين يتكفلون القيام بالوظائف الفعلية من جهة، شخص أو إيديولوجية محددة بوضوح في النص و التي توكل إلى الفاعل تحصيل الشيء، ومن جهة ثانية شخصية حاضرة لإستقبال نتيجة البحث. من المهم الإشارة إلى أنه وفي حالة ما إذا كان تجسيد هاتين الهيئتين غير مضمون بطريقة ملموسة ومن دون التباس الممثل ذي المظهر الإنساني على مستوى السرد القصصي، فإن الرسم البياني للأفعال يفقد توازنه كلية، ولهذا إذن فكل رواية تمكنا من استخراج مرسل إليه بناء على الزوج مرسل/نص أدبي.

من الواجب أن ترافق هذه اللائحة تعاليق كثيرة، يجب الاعتراف بذلك، وقابلة للنقاش على مستوى نقاط مختلفة نسبيا. وبحسب بما تقدمنا به سابقا، لقد تحققنا في كل مرة بأن التعبير عن الخطاب الداعي للإدماج أو عن أي خطاب آخر أو أطروحة إيديولوجية يجب أن يتم التفوه به بوضوح في النص قصد توكيل الفاعل بموضوع البحث، إذا كان الأمر هكذا، فلقد احتفظنا بهيئة نظرية تقوم بوظيفة الفعل الناتج عن المرسل.

وكما يمكننا ملاحظته في حالتين، يمكن اعتبار خطاب الإدماج ومن دون التباس مثل هيئة إيديولوجية من شأنها تحريك موضوع البحث، ففي حالة (أحمد بن مصطفى) فإنها متغيرات بها التباس وتلف لنفس الخطاب هي أساس هذا الفعل.

وأخيرا في حالة (زهرة والعلاج). تحريك موضوع البحث لا يمت بأي صلة مع الأطروحة الإيديولوجية للإدماج لقد سبق وان تحدثنا عن الالتباس الذي يميز مشهد

التحريك في رواية مريم. بالفعل فان البطلة موكلة بمهمتين متناقضتين واللتين أشرنا إليهما سابقا.

في كل مرة أشرنا فيها إلى شخصية تقوم بالوظيفة فيها الفعلية للمرسل، بالتفوه أساسا بالخطاب الإيديولوجي باتجاه الفاعل يمكننا اعتبار الضابط المترجم، للزوج فونطان، لغريسي، ولحماب لوديوس، بابا حاجي، هو في كل مرة نفسه. تشجيع موضوع البحث عن طريق تقارب المجتمع من الآخر. ومع هذا، فإنه وفي السرد القصصي يتم تقييم دور الأول أما الباقيون فيتم التقليل من قيمتهم، يستدرج صديقه مليوني نحو المجتمع الأوروبي ولكن نحو ما هو مدان فيه بكثرة بحسب وجهة نظر القاص. الإدمان على شرب الخمر، وبابا حاجي لا يهتم إلا بالمحافظة على شرف العائلة عندما يدفع بلوديو لا اعتناق الإسلام و الزواج من ابنته، لكن ما لم نشر إليه هو أن زهرة محاطة بأشخاص كثيرين يمكننا اعتبارهم المقصودين بالبحث عن استقرار حياتها الزوجية والتقاليد الدينية. أما بالنسبة لدور خديجة، لقد سبق و أن قلنا أنه يتعارض مع الخطاب الداعي للإدماج بحيث أنها توكل لأبنائها واجب العودة إلى المجتمع الإسلامي.

كلمة أخيرة بخصوص ميزة التحريك والطريقة التي بموجبها يوكل المرسل موضوع البحث. من دون استثناء وفي جميع الروايات يمكننا ملاحظة إسهاب بليغ على مستوى هذا المشهد: يتعلق الأمر بمظهره الموجه بتصميم نحو الواجب. توكل إلى الفاعلين قهرا أو طواعية مهمة القيام بالواجب الذي تحددت معالمه مسبقا.

الضابط الذي يلعب دور احمد بن مصطفى، حتى وان كان شخصية بتقييم جيد من خلال السرد القصصي، يلقي محاضرة للقومية بخصوص قصته الشخصية ويملي له ما يجب عليه فعله إذا كان يريد استعادة عظمة وشموخ العرب، يوكل الزوج فونطان بولنوار في المدرسة، مكان الواجب بامتياز لم تكن للوديو الإمكانيات، كان عليه أن يكفر بدينه ويعتق الإسلام وإلا فإنه يعرض حياته للخطر وهكذا تباعا يمكننا القول في الختام بأن بحث أوائل الأبطال في الأدب الجزائري باللغة الفرنسية يتسم بعمق الإحساس بالواجب الذي من الصعب تجاهله والتخلي عنه.

في هذا المنظور اللوالب بانجازة الذي يتسم بميزته الإلبارية التي تنيط بالشخصية المركزية للفل ومن المهم أن يكون المرسل إليه (المقصود بالفعل) معرفا بوضوح. الممثل أو الممثلون الذي يقوم بهذه الوظيفة الفعلية يجب الإشارة إليهم بوضوح لأنه وفي الوقت الذي ينهي فيه البحث، يجب أن يكونوا حاضرين لتلقي نتائج الفوز. ولكن حضورهم يكتسي أهمية أيضا في خلال البحث لأجل أن يكون الهدف والغاية من المشروع غير غائبين عن الأنظار أثناء الرحلة.

في حالتنا هاته، فان تكيف طبيعة المرسل إليه (المقصود)، تتم منذ البداية من طرف المرسل الإفتراضي للبحث. إيدولوجية الإدماج أو المتغيرات المتعلقة بها تفترض مبدئيا وجود مجتمع أو على الأقل مجموعة اجتماعية من شأنها احتضان المرشح للإدماج.

من دون فضاء اجتماعي من شأنه احتضان البطل عند نهاية البحث، فإن منطق وتناسق النظام الفعلي (للأحداث) يتحول إلى إشكاليات. يتم التحريك المسار أحمد بن مصطفى بواسطة إحساس بالوالب لدى القومي الذي عليه أن يقوم به من أجل حماية قبيلته وفرنسا الأسطورية التي يبقى وفيها لها. ينتج عن هذا أن المرسل إليه المقصود بموضوع بحثه هو، قبيلته من جهة ومن جهة أخرى فرنسا التي يحلم بأن تحتضنه. ولكن على مستوى النص، يضمحل كل منهما ليتركا المكان للوحدة التي تحيط بالقومي إلى حين وفاته. المجتمع الذي من شأنه احتضان المرشح للاندماج غائب عن التمثيل الأدبي في رواياتنا. وهذا الغياب للمرسل إليه الاجتماعي على مستوى النص يميز كل روايات المدونة بحيث أن خطاب الإدماج يقوم بوظيفة المرسل.

المرسل إليه الاجتماعي الوحيد في مدونتنا الذي يقاوم التمثيل الأدبي هو الجالية الإسلامية. إنها حاضرة على مستوى السرد القصصي لتحتضن الأبطال الأوفياء و أولئك العائدين إليها. رأينا انه من الضروري تحديد وكتابة الأسماء ولكن في هذه الحالات، شخصيات تتحدر من الجالية الإسلامية حاضرة وتقوم بوظيفة المرسل إليه.

ولكن شخص أو شخصين لا يكفيان للقيام بوظيفة أعدت على مفا مجموعة اجتماعية ذات أهمية أكبر. تبقى الصديقة الفرنسية للقومي الفارس أحمد بن مصطفى

بعيدة وقائمة على فرضية، بغض النظر عن الصداقات السطحية في المقاهي، لا أحد داخل المجتمع الأوربي لمليانة يحتضن ملياني فعلياً. المرسل إليه الذي يقوم بتركيب الخطاب الداعي للإدماج والذي يستقبل موضوع البحث بمظهر أيديولوجي ووجودي في أن واحد هو يوسف، ابن برنارد لوديوس الذي أصبح مفتياً. يركز خطابه الذي يلقيه عند نهاية الرواية أطروحة الإدماج في نسخة مختلفة تماماً عن تلك التي يطورها القائمون بالسلطة السياسية الاستعمارية، وحتى تلك التي يروج لها المثقفون المسلمون المتفرنسون في الجزائر 172.

نصل هنا إلى الحدود الملموسة لهذا الإنتاج الأدبي الذي يدعي الجمالية و الواقعية ليحتضن في نفس الوقت أيديولوجية بإنجاز تاريخي منعدم. تقدم الرواية الجزائرية لفترة ما بين الحربين ومن أوجه عديدة تشابهات بالرواية الواقعية الاشتراكية، تأخذ كلتا الروائيتين نسفاً حول حقيقة جوهرية تريد كلا منهما ترفيقها و التشهير لها. بالنسبة لأولى، يقتضي الأمر بأطروحة الإدماج، بالنسبة للثانية يتعلق الأمر بصراع الطبقات، ولكن في الحالة التي تقدمها الرواية الواقعية الاشتراكية يسبق وجود الخطاب السياسي الخيال الروائي ويتغذى من عناصر واقعية و تاريخية وفي غالب الأحيان فإنه يتمتع بنظام رسمي مهيم داخل مجتمع حيث يأخذ نشأته. أما بالنسبة للرواية الثانية، فإن الخطاب الإيديولوجي، وبالإضافة إلى كونه لا يتمتع بأي نظام رسمي، إلا أن تجسيده المادي يبقى محدوداً. على مستوى النصوص السياسية والمقالات الصحفية. كثيرة هي الأسباب الموضوعية التي تجعل من كاتب مثل هاته الرواية غير قادرة على تمثيل، على مستوى الخيال الأدبي، نظاماً ومجتمعاً هو غير قادر على تجريبه. هذا الاختلال في التوازن للرسم الفعلي (يتعلق بالأفعال) يعكس في ذات الوقت الالتباسات التي تميز الخطاب الإدماجي. هذا الحد وعدم الانسجام الناتج عنه يشكل احتمالاً واحداً من الأسباب الرئيسية للرداءة الأدبية لهذه الأعمال.

¹⁷² "El-euldj", *Captif des Barbaresques*, pp.144-147.

6- إشكالية التأويل

مع التقديم للقاص النصي في رواياتنا أو بالأحرى لغيابه على مستوى التمثيل الأدبي نقرب من نهاية الأبحاث الغامضة التي قام بها أوائل الأبطال في الرواية الجزائرية باللغة الفرنسية. لنقرب أيضا من نهاية أحاديثنا. ننهي من هذا الجزء الثالث من دراستنا بتحرر خاص بالتأويل و العرض النقدي لموضوع البحث بالشكل الذي يظهر به على مستوى السرد القصصي، الهدف من هذه المقاربة يأخذ طابعا مزدوجا من جهة التأكد من أن العرض النقدي لموضوع البحث يرضخ لنفس الالتباس الذي يميز البحث ذاته، ومن جهة ثانية التأكد من أن الإطناب والحشو المعبر موجودين بين مختلف وظائف الشخصيات و التعليق المفسر الموجود في النص.

في بداية الجزء الثاني من عملنا، لقد سبق أن تحدثنا عن الإطناب الذي يميز روايات الأطروحة بحسب س. ر. سليمان. بناء على هذا الفهم فإن رواية الأطروحة تمتلك درجة من الإطناب عالية جدا، كما تفضل أنواعا أخرى من الإطناب. النوع الأول من الإطناب المفضل يمكن اختصاره في: أن الأحداث ومختلف مهام الشخصيات مطبنة ومطولة بصحبة التعليق المفسر الذي يقوم به القاص العالم بكل شيء، أو أي صوت آخر الذي يعمل كترجم صالح للقصة. وما يجب الاحتفاظ به في دراستنا هو: "أن رواية الأطروحة هي نوع قصصي بحيث يكون الفعل مصاحبا دوما بكلمة تأويلية" 173

هذا النوع الأول من الإطناب ينتج عنه نوع ثان: التعاليق التأويلية للقاص أو لأي صوت آخر أهل بالثقة هي مطبنة فيما بينها وفي جزء منها على الأقل وتخضع إلى أقصى الحدود التباسات القصة و التأويل الذي يمكن للقارئ أن يقوم به. تتطور هكذا "سلسلات" أو "خطوط" في روايات الأطروحة يمكن وصفها بالتأويلية التي تتكرر من مشهد إلى آخر لتطرد كل التناقضات فيما بين الأقوال الصادرة عنها. واجبنا إذا استخراج مختلف التأويلات المعبر عنها من طرف القاص أو من طرف ممثلين

¹⁷³ Suleyman, Suzan Rubin, "le roman "à thèse, p.224.

آخرين أهلين بالثقة فيما يتعلق بمجموع الأفعال والحركات في القصة. إذا أتى التعليق قبل البدء في المسار أو الحدث فإنه يرسخ المعنى ويبعد كل التأويلات الأخرى المحتملة. نحاول من جهتنا استخراج التأويلات المعبرة في نهاية المسار عن مواضيع البحث التي يقوم بها أبطال رواياتنا. تكون هذه المقاربة مفيدة خصوصا عند فهم كيفية البناء للالتباس العميق لهذا الإنتاج الروائي.

الملاحظة الأساسية الأولى التي يمكن لنا القيام بها، هي أن روايات المدونة تمارس فعليا تفسير الأفعال التي تحتوي عليها. مصدر الكلمة المفسرة هي بصفة عامة القاص نفسه، ولكن وفي بعض الأحيان، تقوم بعض الشخصيات بهذه الوظيفة. في هذه الحالة الأخيرة، يتعلق الأمر دائما بممثل ينحدر من الفلك الثقافي الذي يحاول فاعل موضوع البحث الاندماج فيه. وفي أي من الحالات لا يحكم على شخصيات الفلك الثقافي للمحكوم فيه بأنها أهل لأن يبدي القاص تعاليق على مسار أحدهم. وقد بدأ لنا من غير المفيد وممل القيام بكشف منهجي لكل التفاسير التي تعج بها روايتنا. ستكون المقاربة التي نريدها موجهة بالأساس نحو التعاليق المعبر عنها عند نهاية البحث، هذه الأنواع من "الأحكام" التي يتلفظ بها كمثل التقويم الذي يقوم به الأستاذ بخصوص نوعية الواجب الذي يقدمه التلميذ. هذه الكلمات المتلفظ بها وبطريقة دوغماتية ترسخ تفسير الفعل وتأتي لتضع نهاية لبحث الأبطال. وكما سنراه لاحقا أنها لا تعلن هكذا عن نهاية الالتباس الذي يكتنف خطاب الإدماج ومواضيع البحث التي من شأنها الترسيم له. في الرواية الأولى من مدونتنا، تفسير مسار احمد بن مصطفى يضطلع به القبطان دريو(Driot)، شخصية تظهر للمناسبة فقط و الذي يقوم بكتابة إلى صديقة القومي من أجل إعلامها بوفاة هذا الأخير. يغتنم القاص الفرصة بتكليفه بالمهمة التأويلية.

"...لقد قبل بالنهاية المحتملة برفعة و شموخ الجندي الذي يموت من اجل وطنه و بالرضا بالقدر المحتم النابع من صلب إيمان المسلم الطاهر. كانت كلمته الأخيرة إبعثوا بنياشيني الحربية إلى أصدقائي. كانوا بالنسبة لي يمثلون فرنسا قاطبة "

"أنت تعرفين تماما مثلي أنه كان يستحق أكثر من هذا" 174

يعيد هذا التأويل ويلخص في بعض الأسطر التباس الخطاب الإيديولوجي للرواية و متناقضات مسار القومي. نجد هنا نظرة اتنوغرافية مميزة لروايات الأدب الكولونيالي (الاستعماري) مع عبارة الحكم المسبق التقليدي بخصوص الاحتكام للقدري لدى المسلمين. ولكن أحمد بن مصطفى ومساره هما محل تقييم أيضا مع التركيز على خصاله الحربية وعلى "رجولته وشهامته". (إذا كنا نريد أن نبقي أوفياء للقسم الأخير من الجزء الثاني) أنه الحكم النموذجي للمعلم الذي يقلل من قيمة المسار الذي يؤديه المرشح في المسابقة: من جهة يعترف ببعض خصال الشخص، ولكنه من جهة أخرى يلفت النظر إلى اختلافه ومن هنا عن عدم قدرته في النجاح في القيام بالمهمة. تثبت كلمة من الجملة الأخيرة وترسخ محاولة القومي. "كان يستحق أكثر" و لكن و بسبب اختلافه و بسبب ظروف تاريخية فان موضوع بحثه مآله الفشل. هذا التأويل للقبطان" دريبو" ينجز إطنابا جزئيا مع أفعال البطل و الطريقة التي تقدم بها على مستوى السرد القصصي. الاعتراف وتقييم خصال ومآثر القومي هي بمثابة عناصر إطناب بمعية الأفعال التي تجري خلال الرواية ولكن، وعلى النقيض فإن التركيز على "حتمية القدر" وعلى طبيعة المعتقد لديه تشكل عنصرا مخالفا للميزة التي يفصح عنها خلال البحث. يتصرف احمد بن مصطفى دائما طبقا لإرادته، يتطوع في الجيش الفرنسي من دون أي ضغط خارجي، يرفض معاملة أسرى الحرب بما لا يناقض وضعيته حتى يحافظ على مكانته بين نويه و هكذا. تفسير شخصية القومي بحسب تعبير القبطان يتناقض جزئيا مع أفعال الجندي كما تظهر على مستوى السرد القصصي عنصر الإطناب بين هذه الجمل المذكورة وبقية الرواية هي الالتباس و تناقضات الخطاب الذي يتشكل من خلال النص الروائي.

يتلفظ القاص في بولنوار غالبا بتعاليق و شروحات بخصوص أفعال الرواية. يمكننا القول بشأنه أنه قاص دائم الحضور الذي يساهم بشكل منتظم في تفسير الأحداث.

¹⁷⁴ "Ahmed Ben Mostapha, goumier", p.182.

مع أنه يترك لأحد شخصياته الأستاذم. ديرتان (معلم هذه المرة أيضا) للتعبير عن التفسير النهائي الذي يصاحب بحث بولنوار و علاقته "بجورجيت" الفتاة البورغينية، خلال كل الرواية تراه يشغل دورا أبويا الذي يخول له المفسر الأصل للبحث عند نهايته".

"لا يمكنكم التخفي، خاطبهم قائلا: تعترفان كلاكما بأنكما أخطأتما، المهم أن لا تقعا في الخطأ ثانية. الصلح الذي قبلتما به يعني أنكما تقدران بعضكما البعض. لم يمس الشرف، و لن يجد الناس النزهاء ما يقولونه. لقد دافعتما غالبا من أجل سعادتكما الحالية، لكما الحق في الابتهاج بها. 175"

يشكل مسار بولنوار المرشح المثالي للإندماج، فشلا على المستوى الإيديولوجي. كل مشاريعه للرفع من مستلزمات حياة إخوانه في المعتقد تبوء بالفشل بسبب الظروف السياسية، الاجتماعية والتاريخية. المظهر الوحيد بحيث يمكننا إعتبار مساره ناجحا جزئيا هو المتعلق بالحب. بضع سنوات بعد الطلاق يلتقي العشيقان من جديد و تبدو سعادتهما ممكنة على شرط أن يذهبا للعيش في فرنسا. التعليق النهائي للأستاذ يكشف عن فشل البحث عن الإدماج الذي أوكلت مهمة إنجازها لبولنوار. لا يهتم إلا بموضوع البحث عن الغرام الذي بالإمكان أن ينجح و يستشرق تأويل مطنب إذن مع الأفعال والتصرفات التي تحدث في الرواية. إنه يعيد الالتباس الذي يبعد تدريجيا الرهانات الحقيقية المعبر عنها بخطاب الإدماج ويكتفي بالحلول التي يحملها البحث العاطفي. بالنسبة للأطروحة الإيديولوجية المعلن عنها في بداية الرواية، يتطابق مسار البطل مع التلقين المثالي السلبي و لكن ومن خلال البحث العاطفي يحاول القاص إعادة تسوية الحصيلة بشكل ما. و هكذا تصبح التناقضات و الالتباسات الإيديولوجية عناصر مكونة للكتابة الروائية.

تقدم رواية زهرة زوجة المنجمي مسلكين متضادين باتجاهيهما كما سبق لنا وأن قمنا باستخراجه على مستوى دراسة المسار الروائي، فان وصف القاص

¹⁷⁵ "Bou-El-Nouar," p.224.

للمسارين يبدو خاليا من أي التباس: يقيم ويجل مسار زهرة بينما يتعرض مسار ملياني للذم و القذح. ومن هذا المنطلق، يكون التأويل النهائي للقاص مطنبا و منسجما مع أفعال الرواية ومع التأويل و الشروح الأخرى المعبر عنها خلال السرد القصصي "سلك ملياني يوما طريقا من غير أزهار، ممرا قبيحا، و في منعرج منه التقى بألد أعداء الإنسان " كان يريد أن يولي على عقبه و لكن لم يكن لديه الوقت الكافي. انتزع منه العدو الغاصب عقله و أبعد عن غزاله ذي العينين الزرقاوين، التي ماتت في دغل رائع متوج بالزهور، تحت سماء مليئة بالنجوم.176"

أحداث الرواية و التأويل النهائي للقاص هي فعلا من دون التباس. ملياني الذي ينجز تلقينا مثالي سلبيا يحكم عليه بالكلمة الأخيرة بينما زهرة التي تنجز تلقينا مثاليا ايجابيا يرفع من قيمتها. كما تمكنت في هذه الرواية أيضا من تحقيق متكامل للبناء المضاد، الذي يعد عنصرا آخر مميذا لرواية الأطروحة. كل الشروط القطعية مهياة إذن حتى تتطابق مع قوانين هذا النوع. و مع أننا نجد عند بداية هذا الإنتاج تناقضا لا يمكن للسرد القصصي أن يتجاوزه، وجهة الخطاب الإيديولوجي الذي هو قيد التشكل من خلال الأحداث يتناقض ووجهة الأطروحة التي تقدم على أنها أساس النظام الإيديولوجي للرواية. قاعدة التصرف والفعل التي يستنتجها القارئ هي تجنب المقاهي حيث السقوط الحتمي في هاوية الإدمان على الكحول. في الحالة التي يكون فيها القارئ مسلما، يمكن إتمام هذه القاعدة بالأهمية التي بموجبها الاحتفاظ بالتعاليم الدينية و تجنب معاشرة المسيحيين. التناقض مع عقد القراءة المبرم على مستوى النص الجانبي و مستهل الكتاب يبدو واضحا و النتيجة عدم الانسجام في مجموع العمل الأدبي.

و هكذا فإن فهم الرواية من طرف القارئ الذي يأخذ في الحساب مجموع العناصر المكونة للعمل الأدبي يحتفظ بحرية غريبة عموما عن روايات الأطروحة الحقيقية. يجب أما الاعتراف بأن الروائي قد فشل على المستوى الإرشادي بتركه الباب

¹⁷⁶ "Zohra la femme du mineur", p.265.

مفتوحا على كل التفسير و الشروح المختلفة الممكنة، أو أننا لم نتمكن من تحديد الحوافز و التعديلات الحقيقية للكاتب.

بالنسبة لعدم تناسق و انسجام الروايات التي سبق لنا دراستها و إرادتها المتشعبة في تحديد القراءة والتلقي مهما كان الثمن، تقدم رواية العليج أسير البرابرة نظاما إيديولوجيا منسجم نسبيا وبلاغة أقل حرصا على التوجيه وبطريقة سلطوية تأويل العمل الأدبي. هذه الرواية الوحيدة من المدونة التي لا تحتوي على مقدمة ونظرا لكل الالتباسات التي تصوغها مثل هاته النصوص يمكننا إذا الاعتباط بعدم وجود النصوص المقدمة. يتم التعبير بأكثر حرية في الرواية بحيث أن القيود التاريخية غير حاضرة بكثافة و هو ما لا يلزم الخيال الأدبي. بحيث أن الفعل يحدث في القرن السادس عشر و أن محاولة الإدماج تتم في الاتجاه الآخر، من الواضح إذن أن الكاتب يجد نفسه محررا بالنسبة للخطاب الإيديولوجي المهيمن للفترة الاستعمارية. و كما في باقي الروايات الأخرى فإن محاولة التقرب من تجمع الآخر تنتهي بالفشل. و لكن و على النقيض من الروايات الأخرى، لا يوجد في هذه الحالة، خطاب إيديولوجي متناقض وملتبس بالنسبة لموضوع البحث و نتائجه. التأويل النهائي المعلن عنه من طرف الشخصيتين، المرتد وإبنة، تبدو أكثر إطنابا مع ما تعبر عنه أحداث البحث من خلال السرد القصصي. يغوص لوديوس في الجنون والجنون هذا هو في حد ذاته تعليق، وحكم حتى على محاولته بالكفر، "تشكل كلماته عند جنونه أول التأويل الذي يمكننا استخراجه.

"...وداعا يا بني، بعد ساعتين من الآن، لا يكون لي وجود. للأسف، سأحمل معي حسرة عدم الموت في أحضان المسيحية التي تهرب مني غير مشفقة لحالي!
الشقية!" 177

ينجز هذا الحديث المصبوغ بالحسرة إطنابا دون التباس مع محاولة الإدماج التي تتطابق بحسب وصفنا مع تلقين مثالي سلبي. على العكس من الروايات الأخرى، لا يستند النظام الإيديولوجي لهذا العمل على تناقضات داخلية، و لكن يتشكل بانسجام

¹⁷⁷ "El-Euldj captif des Barbaresques," p.170.

من خلال السرد القصصي. ابن لوديوس الذي يصير مفتيا وينقذ والده من موت محقق في الوقت الذي يكفر فيه هذا الأخير بالإسلام علانية، يصدر في الوقت نفسه تعليقا على مسار أبيه. يأخذ تعليقه طابعا إطنابيا جزئيا إذا ما قورن بتعليق أبيه و لا يتناقض معه في أي حال من الأحوال. صوت هذا الابن المتفتح على الحوار و على التبادل ما بين الثقافات و ما بين الأديان جدير بالثقة. فمن خلاله يثبت القاص تأويل محاولة الإدماج التي قام بها لوديوس، و لكن ومن خلال كلماته ترسم أيضا إمكانية علاقة عادلة و متوازنة ما بين المسلمين والمسيحيين. هذا ما يقوله عن مسار أبيه وكيف ينظر إلى مساره هو. "...ورث شموخي و عنفوانه عن والدي الذي ترك نفسه يتزحلق على منحدر سريع بسبب غلطة ضارة. و لكن الله هو الذي قدر هذا. لقد أراد الله أن يكون الابن المسلم من فرنسي صار مسيحيا من جديد أن يكون خليطا شموخيا من العنقوان العربي الممزوج بالإباء الفرنسي... "178

إدانة مسار الوالد من جهة يقابلها من جهة أخرى تفتح نحو إلتقاء ثقافتين ومن ثم التقاء عالمين. مسلك الابن يوسف هو بمثابة مرآة بالنسبة لمسلك القاص. لقد قال "دم فرنسي" في الشرايين التي تغذي عقله بـ"غذاء الإسلام"179.

في حين يسري دم عربي في جسد الروائي الذي يتغذى من الثقافة الفرنسية تبقى رواية شكري خوجه الوحيدة من بين الروايات المدروسة التي لا تعمل بحسب النظام الإيديولوجي الملتبس و التي تنجز هكذا انسجاما على مستوى العلاقة التي تتشكل ما بين مسار البطل و الشرح المرافق له. ينتهي العمل الكتابي إلى رفض واضح مصرح به بخصوص الإدماج بحسب الخطاب الرسمي للمرحلة، ولكن في الوقت نفسه التي تتبلور فيه شروط إمكانية تسوية تحترم فيها مصالح كل فرد.

في رواية مريم بين النخيل: تتجسد أفعال الرواية على مستويين: مستوى الأحداث التاريخية المتعلقة باحتلال "تافيلالت" من طرف الجيش الفرنسي ومستوى

¹⁷⁸ *Idem*, p.167.

¹⁷⁹ *Idem*, p.167.

الأحداث الشخصية التي تطبع بحث الأبطال. يعيد تعليقا النهاية مع بعض الاختلافات القليلة الخطاب الإيديولوجي للإدماج الذي يظهر بوضوح منذ المقدمة على أنه النظام الإيديولوجي المهيمن على العمل الأدبي. في هذا الاتجاه، فإنهما ينجزان إطنابا مع عقد القراءة و الخطاب الداعي للإدماج الذي تروج له الرواية. لننظر كيف يبنني إطناب الخطاب على المستوى التاريخي. إنه الجنرال الفرنسي الذي يتحدث في الوقت الذي يدخلون فيه منتصرين في الواحة "الآن تبدأ بالنسبة لكم حقبة جديدة من العدالة، من و السلم ومن السعادة... ستعيشون في أمن، راحة كنتم لا تعرفونها تحت النظام المستبد، تحت الرعاية الفرنسية، يمكنكم من الآن أن تتحركوا بحرية في البلد، وان تباشروا أعمالكم في التجارة" 180

بالفعل، تحسن الأمن في البوادي احد عناصر الخطاب الإيديولوجي للمتقنين الجزائريين المتفرنسين الذين يريدون تكراره كواحد من محاسن الوجود الفرنسي في الجزائر. 181

احتلال "تافيلالت" مبرر إذن من طرف الجنرال كما هو مقبول من طرف الثوار الذين وضعوا السلاح وهم يؤولون مجرى الأحداث إلا أنها إرادة إلهية. "لقد اقر الله لنا هذا الخضوع الذي كان يشغل عقولنا و الذي صار في قلوبنا الآن" 182

هذا التعليق الذي يفسر ويستبطن الهزيمة العسكرية يستدرك من جديد الخطاب الإيديولوجي الداعي للإدماج في حين نجد أنه يناقض جزئيا أحداث القصة وكذا الخطاب الغير معلن الذي تتضمنه المؤلفة بحسب احمد لناصر 183. إنه من الأكيد فيما يتعلق بهذا العمل وعلى النقيض من العالج، أن التناقضات والالتباسات تتحول إلى مقومات مستتبطة في النظام الإيديولوجي المهيمن. هذا الالتباس المستبطن يصبح مرئيا على مستوى البحث العاطفي عند مريم وجان حفيظ، من بين أبطال مدونتنا إنهما

¹⁸⁰ Meryem dans les palmes, p.248.

¹⁸¹ Benhabiles, Cherif, *l'Algérie française*, pp. 07-12.

¹⁸² Meryem dans les palmes, p.248.

¹⁸³ Lanasri, Ahmed, Mohamed Ould Cheikh, un romancier face à l'assimilation.

الوحيدين اللذين يقومان بتلقيين مثال ايجابي ولكن مسارهما لا يمكن أن يكون مثالا واقعا لأطروحة الإدماج التي يريد رسمها.

يجمع اللقاء الغرامي أشخاص من نفس الكون الثقافي والديني، إذن هو في تناقض مع الخطاب الإيديولوجي الذي يمجّد مزايا وخصال "التقارب الفرنسي-المسلم" 184، يتحمل القاص مسؤولية التفسير لمسارهم ويعيد نفس الالتباس "يتقدم الضابط نحو احمد ليأخذ يده ويحتفظ بها طويلا بين يديه."

من الآن أنت أخي وصديقي(...)

الآن مريم واحمد، الضابط ديبوسي وزهرة الذين يجمعهم مصير واحد في نفس

التعلق بيتسمون للحياة، للسعادة... 185

يحاول القاص أن يجعل القارئ يفكر بأن الأمر يتعلق بضابط فرنسي ومسلم عربي وأن الأزواج المشكلة تلد زيجات مختلطة. ولكن الخدعة واضحة جدا و المحاولة لا يغتر بها أحد. لا تظهر الرواية إلا لقاءات تحدث بين أشخاص ينتمون إلى نفس الوسط الثقافي و الديني. من المؤكد أن رواية محمد ولد الشيخ تدخل في إطار الالتباس وعدم الانسجام على كل المستويات من السرد القصصي.

كل التأويلات المختلفة التي تمكنا من استخراجها من الروايات التي درسناها لا تقدم خط سيرة منسجمة كتلك التي إستخرجناها على مستوى تقنيات المثالية أو على مستوى التقديم للخطاب الإيديولوجي في كتابة الرواية. مما بين الالتباس الواضح في التأويل لرواية مريم بين النخيل و الانسجام المثالي في رواية العليج، نجد أنواعا كثيرة للحل. أحيانا التعليق النهائي مطنبا مع الخطاب الإيديولوجي مع العمل الأدبي ولكنه متناقض مع مسار البطل، أحيانا يكون التأويل مطنبا مع تصرفات الشخصيات ولكنه يتناقض مع النص الجانبي. لدينا بعض الحالات بحيث لا يكون الإطناب بين مختلف العناصر إلا جزئيا. يمكننا وضع تصنيف للروايات بحسب درجة الإطناب المنجز ما

¹⁸⁴ Meryem dans les palmes, p.04.

¹⁸⁵ Idem p.250.

بين العناصر المكونة للعمل الأدبي ولكن ليس هذا هو الهدف من عملنا. ما هو أكيد هو أن الإنتاج الأدبي في مجموعه لا يتطابق وبصفة عامة قانون الإطناب بين الأفعال وأداء الأدوار، بالشكل الذي يجب أن تظهر به في روايات الأطروحة.

أظهرت دراسة محور الواجب جملة من أسباب عدم الانسجام التي تميز هذه الأعمال، من الأكيد أن عدم الانسجام هذا هو انعكاس على المستوى الروائي لتناقضات النظام الاجتماعي السياسي و الثقافي الذي مهد لنشأة هذا الإنتاج الأدبي.

غياب مرسل إليه(مقصود)إنساني، الشكل والالتباسات في أداء الأدوار عند نهاية الروايات هي كلها عناصر تؤكد لنا الإحساس الذي راودنا عند البداية: هذه الأعمال ليست روايات أطروحة"بخط مستقيم" تظهر وكأنها تحمل رسالة إيديولوجية باتجاه واحد وتظهر وكأنها تعبير للصوت السلطوي الذي يحاول إقناع القارئ بنظامية الخطاب الداعي للإدماج. في حقيقة الأمر، ومن خلال عيوبها و برغم التباساتها وتناقضاتها، فإنها تسهم في الحوار الذي هو أساس تكوين الهوية الوطنية الجزائرية.

الخاتمة

الخاتمة

إنه لمن الصعب أو حتى الخطأ الفصل بين الرواية الجزائرية المكتوبة بالعربية و الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، كما أنه لمن الصعب الجزم أيضا بتأثير هذه في تلك لمجرد الأسبقية عليها في الظهور والنشأة و التطور، ومما لا شك فيه أنهما تلتقيان في سمات مشتركة وذلك بفعل انطلاقيهما من أرضية مشتركة لأن كلاهما تعيد صياغة للمجتمع بوصفه كيانا موضوعيا متميز بوجوده، ولا بد هنا من الوقوف عند ارتباط الحركة الأدبية الجزائرية باللغتين ومنذ نشأتها بالمسألة الوطنية والنضال الوطني، حتى غيبت هذه الحركة الأدبية التي سبقت حرب التحرير وفي كثير من الأحيان، أدبية الأدب وجماله بمنح الصدارة للعمل الإصلاحي و النضال من أجل المحافظة على مقومات الهوية الجماعية للشعب الجزائري.

وهذا البحث يتناول أدب الجزائريين باللغة الفرنسية في نشأته، فيحدد مضامينه، ويسأل نصوصه الأولى مباشرة بالدراسة و التحليل و الاستنباط، بالتركيز بالخصوص على النصوص الروائية الصادرة ما بين 1920 و 1945 و التي أهملت نوعا ما من طرف الدارسين الجزائريين خاصة وغيرهم عامة. لذا اعتمدنا على النصوص مباشرة بالتحليل لاستنباط مدلولها أولا ثم تناولناها في سياق الأحداث التاريخية والظروف السياسية التي عايشها أدباء هذه الفترة التي تميزت بميلاد الحركة الوطنية عبر تيارات متعددة للتعبير عن هوية الشعب الجزائري الجماعية من خلال الدين و اللغة و التقاليد وذلك رغم كل ما قيل عن هذه الفترة التي اعتبر كتابها من منشدي الإدماج في المجتمع الفرنسي، حتى طرحت جملة من الأسئلة حول موضوع هوية أدب هذه الفترة وما جاء بعده ولا سيما ما تعلق منها بلغته ومن ثم بهويته الثقافية و الحضارية، وبعد محاولة قراءة وتحليل النصوص المختارة كمدونة، توصلنا إلى بعض النتائج نذكر منها:

-لم يأت أدب هذه الفترة نتيجة احتكاك حضاري مؤثر ولا نتيجة تبادل ثقافي متميز بل جاء بعد تسعين عاما من حرب شاملة شنها الاستعمار الفرنسي في كل الميادين على الشعب الجزائري. فانطلاقا من هذه الحقيقة التاريخية، يمكننا القول بان

هذا الأدب حملته أمه كرها ووضعته عسرا، وهذا ما تعبر عنه موضوعاته الكبرى ولا سيما مسألة الإدماج المستحيل الذي كان مرفوضا من الطرفين لعمق الخلاف والاختلاف السائد بين المستعمر و المستعمر.

-دراسة الروايات تؤكد على أن خطاب الإدماج كان مؤول داخليا وبطريقة مختلفة لكل هؤلاء الكتاب الذين كانوا يرفضون هذه الفكرة كما كان يتصورها و يقترحها عليهم النظام الاستعماري المتواجد على أرض 186الجزائر لأن طابع فكرة الإدماج، كما تظهر في مدونتنا، تحيلنا إلى ما يقوله باختين(Bakhtine) عندما يقرب ما بين الفكرة الكاملة (achevée) و الفكرة الغير كاملة (inachevée) 1.

فكرة الإدماج المعبر عنها في رواياتنا هي فكرة غير كاملة لأنها مفتوحة كنوع من الحوار كما تطرأ عليها تغيرات من خلال السرد، أما الفكرة نفسها عند المستعمر فهي فكرة كاملة أي جامدة أو ميتة في نظر باختين.

-فكرة انتماء هذه الروايات إلى صنف الرواية الأطروحة تبقى غير مؤكدة لأن هذا النوع الأخير من الرواية يقترح على القارئ حلولا نهائية بينما تتميز الروايات الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية في فترة ما بين الحربين بوضع قارئها في حالات وطرق مختلفة حيث أنها لا تأت بالحلول بل تهتم بطرح الأسئلة.

-الخطاب الإيديولوجي لرواياتنا لا يفترض فقط وجود مترشح للإدماج وإنما يشترط كذلك وجود مجتمع يتكفل باستقبال الترشح و بالتالي تحقيق هذا الإدماج، لكن المجتمع الاستعماري الفرنسي للجزائر في تلك الفترة لم يكن مناسباً لهذه الصورة الضرورية لتجسيد تماسك هذا الخطاب المنادي بالإدماج.

في الأخير، لقد خلصنا القول بأن التناقضات البنائية التي تظهر في رواياتنا وخاصة بين عقد القراءة والمسار الروائي للأبطال، وبين عمل الشخصيات و التأويل النهائي لما تنجزه، تلخص كلها الانشغال الرئيسي للمؤلفات ألا وهو موضوع بروز وبناء الهوية الوطنية للشعب الجزائري الذي كان يرفض الاستعمار منذ بدايته، كما

¹⁸⁶ Bakhtine, Mikhaïl, « Esthétique et théorie du roman, Paris, Gallimard, Coll. Tel, 1987, traduit du russe par Daria Olivier.

نتمنى أن هذا البحث المتواضع يمكنه المساهمة في بعث فهم متجدد للأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية منذ إرهاباته الأولى وإلى ما بعد الاستقلال.

فهرس المصادر و المراجع

باللغة العربية

- أبو القاسم سعد الله، أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر، ج2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1988.
- أحمد بن نعمان "السمات الشخصية الجزائرية"، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1988.
- الطاهر زرهوني، التعليم في الجزائر قبل وبعد الاستقلال، "درا موفم" للنشر 1993.
- جمال قنان، نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر 1987.
- خديجة بقطاش، الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر (1830-1871)، مطبوعات دحلب الجزائر 1992.
- دانيال هنري باجو، الأدب العام و المقارن، ترجمة غسان السيد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق 1997.
- رينيه ويليك، نظرية الأدب، ترجمة محي الدين صبحي، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، طبعة 2، بيروت 1981.
- ساطع الحصري، حول الوحدة الثقافية العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، سلسلة التراث القومي، بيروت 1985.
- عمار بوحوش، العمال الجزائريون في فرنسا، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر 1975.
- مالك بن نبي، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، دار الفكر المعاصر، طبعة 4، 1988، دمشق، سوريا.
- محمد داود، النص الادبي: مقاربات متعددة، دفاثر مركز البحث الانتربولوجي، عدد 2004/07، وهران، الجزائر.
- محمد داود، رشيد بوجدره و إنتاجية النص، دفاثر المركز الوطني للبحث في الانتربولوجية الاجتماعية و الثقافية، عدد شهر ابريل 2005، وهران، الجزائر.
- محمد داود، الرواية الحديثة، كتابة الآخر و الهناك، منشورات المركز الوطني للبحث في الانتربولوجيا الاجتماعية و الثقافية، عدد نوفمبر 2002، وهران، الجزائر.
- محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، دار العودة، بيروت 1983.
- مصطفى الاشرف، الجزائر الأمة و المجتمع، ترجمة حنيفة بن عيسى، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1983.
- منور، أحمد: الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 2007.

- نور سلمان، الأدب الجزائري في رحاب الرفض و التحرر، دار العلم للملايين، بيروت 1981.
 - فرانسيس كلودون وكارين حداد، الوجيز في الأدب المقارن، ترجمة عبد القادر بوزيدة، دار الحكمة، 2002، الجزائر.
 - ولد يوسف، مصطفى، مع محمد ديب في عزلته، دار الأمل للطباعة و النشر، الجزائر 2002.
- القواميس باللغة العربية:**

- الموسوعة الفلسفية، بإشراف روزنتال، و ب يادين، ترجمة سمير كرم، دار الطليعة، بيروت 1981.
- الكنز الوسيط، جروان السابق، دار السابق للنشر، بيروت 1985.
- القاموس الجديد للطلاب، ط 7، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1991.
- لويس، معلوف، المنجد في اللغة و الآداب و العلوم، طبعة 8، بيروت (مادة هوية)، ص: 564، 565.

المجلات و الدوريات:

- مجلة الخلدونية، عدد 01، ماي 2006، جامعة تيارت.
- مجلة العربي، عدد 515، أكتوبر 2001، وزارة الإعلام بدولة الكويت.
- أعمال الملتقى الدولي حول الأدب المقارن عند العرب، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1983.
- إنسانيات، المجلة الجزائرية في الانتربولوجية، العدد 21، سبتمبر 2003 مركز البحث في الانتربولوجيا الاجتماعية والثقافية (CRASC)، وهران، الجزائر.

المصادر و المراجع باللغة الفرنسية
I. المدونة:

1. BENCHERIF, Mohammed " *Ahmed Ben Mostapha, goumier*, Publisud", 1997, « *Espaces méditerranéens*.
2. HADJ HAMOU, Abdelkader, "Zohra la femme du mineur", Editions Dar El Gharb, 2007, Oran, Algerie.
3. KHODJA, Chukri, "EL-Euldj, captif des Barbaresques", Editions ANEP, 2005, Collection « Patrimoine, Alger.
4. OULD CHEIKH, Mohamed", *Myriem dans les palmes*", Editions OPU, 1986, Alger.
5. ZENATI, Rabah, " *Bou-El-Nouar, le jeune algérien*", la Maison des livres, Alger, 1945.

II. مؤلفات تاريخية وثقافية:

1. ABBAS, Ferhat, " *de la colonie vers la province, recueil d'articles écrits entre 1922 et 1927* ", Edition, la jeune Parque, 1931, Paris.
2. AGERON, Charles Robert, " *Histoire de l'Algérie contemporaine*", tome 2, PUF, 1979, Paris.
3. AGERON, Charles Robert, *l'Algérie est ma patrie*, In *les collections de l'histoire, la guerre d'Algérie*, 2002.
4. BENCHERIF, Mohammed, *aux Villes Saintes de l'Islam*, récits de voyage , Hachette, 1914, Paris.
5. BENHABILLES, Cherif, " *l'Algérie française vue par un indigène*", conférences au Cercle de Constantine, 1914, Alger.
6. BERQUE, Jacques, *le Maghreb entre deux guerres*, Paris, Seuil, Collection "Esprit", 1962.
7. COLLONA, Fanny, *Instituteurs algériens*, OPU, 1975, ALGER.

8. DJEGHLOUL, Abdelkader, *éléments d'histoire culturelle algérienne*, ENAL, 1984, Alger.
9. HENRY, Jean Robert, *le mouvement national algérien, textes*, 1912-1954, OPU, 1981, Alger.
10. KADACHE, Mahfoud, *histoire du nationalisme algérien (1919-1951)* SNED, 1980, ALGER.
11. LACHRAF, Mostefa, l'Algérie. " *nation et société*", SNED, 1976, Alger.
12. SAHLI, Mohammed, " *décoloniser l'histoire*", E.Maspéro, 1965, Paris.
13. STORA, Benjamin, " *histoire de l'Algérie coloniale (1830-1945)*", Editions la découverte , 1991, Paris.
14. TOCQUEVILLE, Alexis, *Ecrits et discours politique, In oeuvres incomplètes*, Gallimard, 1962, Paris.
15. ZENATI, RABAH, " *le problème algérien vu par un indigène*", Publications Comité de l'Afrique française, 1983, Paris.

III.المؤلفات الأدبية:

- 1- ABDELKABIR, Khatibi, " *le roman maghrébin*", Editions Maspero, 1968, Paris.
- 2- ABDELGHANI, Meghribi, " *la paysannerie, algérienne face à la colonisation*", ENAP, 1973, Paris.
- 3- ACHOUR, CHRISTIANE, " *anthologie de la littérature algérienne de langue française*", ENAP, Bordas, 1990, Paris.
- 4- ALBERT, MEMMI, " *Portrait du colonisé*", Editions J.Jacques Pauvert, 1966.
- 5- ARISTOTE, rhétorique, Paris, *librairie générale française*, traduction de Charles Emile Ruelle.
- 6- BAKHTINE, Mikhail, *la poétique de Dostoïevski*, Paris, Seuil, 1970.
- 7- BARTHES, Roland, S/Z, Paris, Seuil, 1970.
- 8- BELAMRI, Rabah, *l'œuvre de Louis Bertrand, miroir de l'idéologie colonialiste*, OPU, 1980, Alger.
- 9- BENCHENEB, Saad Eddine, *préface mémoires de Bechtarzi*, SNED, ALGER, 1968.

- 10- BENRAHAL, *Si M'hamed, la vengeance du cheikh*, In *revue algérienne et tunisienne littéraire et artistique*, n°13, 1891, Alger.
- 11- BONN, Charles, *la littérature algérienne de langue française*, Sherbrooke, Naaman, 1974.
- 12- CAMARA, Laye, "*l'enfant noir*", les presses de la cité, 1967; Paris.
- 13- CLAUDE, Pichois, "*la littérature comparée*", Armand Colin, collection U2, 1971, Paris.
- 14- DEJEUX, Jean, *situation de la littérature maghrébine de langue française*, OPU, 1982, Alger.
- 15- DEJEUX, Jean, "*la littérature algérienne contemporaine*", collection "que sais-je", PUF, 1975, Paris.
- 16- DINET, Etienne et Baamer, "*la danseuse des Ouled Nail*", 1926, Paris.
- 17- FERAOUN, Mouloud, *le fils du pauvre*, SNED, 1975, Alger.
- 18- GENETTE, Gérard, "*seuils*", Edition seuil, collection poétique, Paris, 1987.
- 19- GENETTE, Gérard, *palimpsestes*, Editions seuils, paris, 1982.
- 20- KATEB, Yacine, *Nedjma*, seuil, 1956, Paris.
- 21- LANASRI, Ahmed, *Mohammed Ould Cheikh, un romancier algérien des années 30*, OPU 1986, Alger.
- 22- LUKACS, George, *Théorie du roman*, Paris, Gallimard, collection Tel, 1989.
- 23- MERIANE, Leila, *notes sur Chukri Khodja*, In *recherches biographiques (Alger 1830/1962)*, Paris, 1985.
- 24- OULD CHEIKH, Mohammed, "*Chants pour Yasmine*", OPU, 1988, Alger.
- 25- SULEIMAN, Susan Rubin, *le roman à thèse*, PUF 1983.

القواميس باللغة الفرنسية:

- *Larousse encyclopédique illustré*, Edition 1997
- *Dictionnaire Hachette*, Edition 2004
- *Encyclopédie Universalis*, volume 11, France,1975.
- *Dictionnaire des auteurs maghrébins de langue française*, Jean Dejeux, Edition Karthala, Paris 1979.

الفهرس العام

- (02) الإهداء:
(03) المقدمة:
(07) تمهيد:
(07) الهوية والاستعمار:
(11) الهوية الجزائرية وحرب الإبادة الاستعمارية:
الفصل الأول:
(16) الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية (1945/1920):
المبحث الأول:
(16) البدايات الأولى:
(21) النشأة والتطور:
المبحث الثاني:
(30) النماذج الروائية الأولى:
(30) أحمد بن مصطفى القومي (1920):
(32) زهرة زوجة عامل المنجم (1925):
(34) العليج أسير البرابرة (1929):
(35) مريم بين النخيل (1936):
(37) بولنوار الفتى الجزائري (1945):
(40) الخلاصة:
الفصل الثاني:
(43) تحليل ودراسة الأعمال الروائية الأولى (1945/1920):
المبحث الأول:
(45) مسالك الوحدة:
(45) أحمد بن مصطفى القومي:
(51) بولنوار الفتى الجزائري:
المبحث الثاني:
(60) مسالك الضياع وطريق الجنون:
(60) زهرة زوجة عامل المنجم:
(67) العليج أسير البرابرة:
المبحث الثالث:
(76) طريق السعادة:
(76) مريم بين النخيل:
(80) خلاصة التحليل:
المبحث الرابع:
(85) الرواية الأطروحة:
(91) 1- خطاب الإدماج:

(99)	2- العناوين الناطقة:
(106)	3- المقدمات:
		الفصل الثالث:
(110)	الهوية المسلوبة أو الإدماج المستحيل:
(110)	1- الخطاب والرغبة في الآخر:
(118)	2- النداء إلى العودة:
(121)	3- الفضاء:
(127)	4- الديانة:
(138)	5- الواجب المستحيل:
(145)	6- إشكالية التأويل:
(155)	الخاتمة:
(157)	فهرست المصادر والمراجع:
(162)	الفهرس العام: